الدكتور فاضل النعيمي

مدخل لدراسة

علوم القرآن الكريم

الرقم الموضوعي : ٢٢٠

الموضوع: القرآن وعلومه

العنوان: مدخل لدراسة علوم القرآن الكريم

التأليف: د. فاضل النعيمي

الإشراف والتنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق

عدد الصفحات: ٢٠٨ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥سم

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن من: المؤلف

الطبعة الأولى

جديدة ومنقحة

١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م

أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل لدراسة

علوم القرآن الكريم

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

[الحجر : ٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله الأمين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم ومن سلك سبيلهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد :

فإن الله سبحانه وتعالى ميّز هذه الأمة وخصّها بالانفراد من بين الأمم برسالة خالدة إلى يوم الدين ، وخصّ رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأن أنزل عليه القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ويسّر درسه كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ٣٢].

وإن من وسائل حفظه ، وتيسير درسه ، أن يعنى جهابذة العلماء المسلمين القدامى بدراسته منذ عهد مبكر ، فعكفوا على جمعه وتدوينه وتوحيد قراءاته ، وكان أن ضُمَّت جميع آياته إلى سوره ، وجُمعت كل سوره في المصحف ، وبدأوا تدارسه في نزوله وأسبابه وتشكيله ، وحفظه في الصدور وعلى السطور ، وتفسيره وإيضاح غامضه ، وبيان محكمه ومتشابهه ، والكشف عن خباياه وكنوزه الثمينة ، ودراسة مختلف قضاياه الفنية ، فكان ما فيه متواتراً دون ريب ، وسليماً دون منازع تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً.

كان هذا الجهد المتميز قد بدأه النبي ﷺ ذاته ، فكان الأثر مصاناً ، والتنزيل كما هو ـ لا زيادة فيه ولا نقصان ـ والكتاب في سلامة بكل تفصيلاته في التدوين والجمع والتشكيل.

وبدأت مدارس التفسير الأولى في كل من مكة والمدينة والكوفة والبصرة ، ترفد

العالم الإسلامي بسيل من المعارف لا ينضب ، وتنير الدرب أمام الدارسين بمصابيح من الهداية لا تخبو.

وكان الصحابة والأئمة رضوان الله عليهم ، والتابعون رحمهم الله ، ومن اتبعهم بإحسان ، يعبدون الطريق بين يدي المتعلمين والباحثين والمصنفين والمحققين ، يلتقطون شذرات من القرآن الكريم ، وينهلون من فيوضاته الكريمة من هنا وهناك ، سائرين بهديه وركاب مسيرته البيانية المعجزة من أجل الاعتداد بالقرآن وقدسيته وعظمته.

وبعد :

فإني أحمد الله وأشكره لأن أضع فصول هذا الكتاب التي حملت هذا العنوان « مدخل لدراسة علوم القرآن الكريم » بين يدي طلبة الجامعة في قسمي الدراسات الإسلامية ، والقرآن الكريم وعلومه ، بخاصة ، وزملائهم من الأقسام الدراسية الأخرى الذين لا بد أن يأخذوا بمبادرة تحصيل العلم من كتاب الله العزيز ، ويقف إلى جانبهم سائر الدارسين والباحثين بعامة ، الذين لا غنى لهم عن الإلمام بشيء من تاريخ القرآن الكريم وعلومه معاً ، والوقوف على طرف من آفاقه ومعانيه وأسرار إعجازه.

تتصل مفردات هذه الدراسة بصميم القرآن نصاً ومفهوماً ، حيث تناولت موضوعات تاريخ القرآن الكريم ، وعلومه ، بكل التفصيلات الوافية ، ابتداءً من ظاهرة وحيه ، ومروراً بنزوله ، وجمعه وتدوينه ، ومعرفة مكيه ومدنيه ، وناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وترتيب آياته وسوره ، وشكله ، وقراءاته ، وانتهاءً بترجمته ، مراعياً في عباراته الإيجاز والإيضاح غير المخل به ، وتجنبت التطويل الممل البعيد عن التعقيد ، وكان بإسلوب سهل يسير ، قريب المنال ، يساعد على استيعاب القضايا المعقدة ، وارتياد المناخ المجهول ، الهدف العلمي يطغى فيه على الهوى النفسي ، ليلتقي من خلال ذلك الغرض الفني في النقد والتمحيص ، بالغرض الديني في الاستقراء والمعرفة ، وصولاً إلى أصدق النتائج العلمية البعيدة عن الهوى والتعصب لرأي أو فكرٍ.

إن مصادر هذه الدراسة ومراجعها ، تعتمد على ما كَتَبَه القدامى في علوم القرآن ، والتفسير ، وأسباب النزول ، والقراءات ، والرسم ، والحديث ، وما حققه المحدثون من إنجاز في المجالات نفسها ، وما كتبه المستشرقون في تاريخ القرآن ، ونظمه ، وتأليفه ، وشكله ، وكتابته ، وقراءته ، ومراحله ، ومكيه ، ومدنيه ، وغيرها.

ولا أزعم أنني في هذه المحاولة جئت بما لم تستطعه الأوائل ، وحسبي من ذلك أنني قدمت وأحسنت العرض ـ بحسب جهدي المتواضع ـ للقارىء والباحث كتاباً علمياً جامعاً لأبرز العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم التي هي وسيلة لعلم التفسير ، بما يحقق هدفه الذي يوحي به اسمه ، وقد ضمنته بالمبادىء الأولية لهذا العلم وتم تبسيط مصطلحاته ، والتعريف بأمهات مسائله ، وبيان مضامينها من أجل تحبيب النظر في كتاب الله العزيز ، كونه كتاب هداية وتشريع ، ودستور السماء في الأرض إلى يوم يبعثون/

أدعو الله تعالى ، أن ينفع بهذا العمل ، وأن يكتب له القبول ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم ، عليه توكلت وإليه أنيب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

صنعاء في ١٤ من جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ
٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩م

الدكتور
فاضل النعيمي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
جامعة صنعاء

الفصل الأول

في التعريف بالعلم وبيان نشأته وتطوره وأشهر المؤلفات في هذا العلم

أولاً ـ في معنى علوم القرآن

١ ـ تعريف لفظ (علوم) .

أ ـ العلم عند الحكماء والمتكلمين

ب ـ العلم في لسان الشرع العام

جـ ـ العلم في عرف التدوين العام

٢ ـ تعريف لفظ (القرآن)

أ ـ القرآن في اللغة

ب ـ القرآن في الاصطلاح

٣ ـ معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافي وباعتباره علماً على هذا الفن

ثانياً ـ موضوع هذا العلم والفائدة من دراسته

ثالثاً ـ لمحة حول نشأة هذا العلم وتطوره

رابعاً ـ أشهر المؤلفات في علوم القرآن

الفصل الأول

التعريف بالعلم وبيان نشأته وتطوره وأشهر المؤلفات في هذا العلم

القدرة البيانية في نصوص القرآن الكريم ، تجاوزت حدود المعرفة الإنسانية العجلى ، حتى عادت ضرباً من الإعجاز ، وسنخاً جديداً من البيان العربي الذي لا يدانيه نص أدبي.

لقد بهر العرب بجمال القرآن وجلالته ، ونظروا إلى التغيير الجذري الذي أحدثه هذا الوحي الهادر ليس في العادات والمفاهيم والتقاليد فحسب ، بل في القول وفنون الكلام والنظم البياني.

وما دام الأمر هكذا فالعرب والمسلمون بإزاء الكشف عن خبايا هذا الكتاب وكنوزه الثمينة ، ودراسة مختلف قضاياه الفنية.

فمنذ وقت مبكر شغل العلماء بهذا النص المقدس ، ولم يتركوا شيئاً يتصل به إلا وفّوه حقه من البحث والدراسة ، غير عابئين بثقل الأمانة وفداحة الأمر ، مشمرين السواعد لا يعرفون ليناً ولا هوادة ، متناثرين حلقات وجماعات وأفراداً ، يسددون الخطى ، ويباركون السعي باحثين في لغة القرآن الكريم ، واستكناه وجوه إعجازه في ظلال آياته.

وقد اتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة ، فتارةً ترجع إلى لفظه وأدائه ، وأخرى إلى أسلوبه وإعجازه ، وثالثة إلى كتابته ورسمه ، ورابعة إلى تفسيره وشرحه ، إلى غير ذلك.

ولقد أفرد العلماء كل ناحية من هذه النواحي بالبحث والتأليف ، ووضعوا من أجلها العلوم ودونوا الكتب ، وتباروا في هذا الميدان الواسع أشواطاً بعيدة ، حتى زخرت المكتبة الإسلامية بتراث مجيد من آثار سلفنا الصالح ، وعلمائنا الأعلام ، وكانت هذه

الثروة لا تزال مفخرة نتحدى بها أمم الأرض جميعاً ، ونفحم بها أهل الملل والنحل في كل عصر ومصر.

وهكذا أصبحت بين أيدينا مصنفات متنوعة ، وموسوعات قيّمة ، فيما نسميه : علم القراءات ، وعلم التجويد ، وعلم النسخ العثماني ، وعلم التفسير ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم المحكم والمتشابه ، وعلم غريب القرآن ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم إعراب القرآن ، وما شاكل ذلك . وهذا مما يعتبر بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة هذا الكتاب ، وبات هذا المظهر معجزة جديدة مصدِّقة لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩].

ولقد أنجبت تلك العلوم الآنفة وليداً جديداً ، هو مزيج منها جميعاً ، فيه مقاصدها وأغراضها ، وخصائصها وأسرارها ، وقد أسموه (علوم القرآن) وهو موضوع دراستنا في هذا الكتاب .

أولاً ـ في معنى علوم القرآن:

يقتضينا منهج البحث التحليلي لهذا المركب الإضافي المركب من مفردتين وهما كلمتا (علوم) و(القرآن) أن نتحدث عن طرفيه ، ثم عن المراد بهذا المركب كفن مدوّن ، ليسهل علينا بعد ذلك التماس الحديث لهذا الاسم المركب.

١ ـ العلوم:

فالعلوم جمع (علم) والعلم في اللغة : مصدر يرادف الفهم والمعرفة ، ثم تداولت هذا اللفظ اصطلاحات مختلفة :

أ ـ العلم عند الحكماء والمتكلمين:

فالحكماء : يريدون به صورة الشيء الحاصلة في العقل ، أو حصول الصورة في العقل ، أو تعلق النفس بالشيء على جهة انكشافه ، والتحقيق عندهم هو الإطلاق الأول.

والمتكلمون يعرِّفون العلم : بأنه صفة يتجلى بها الأمر لمن قامت به ، وهو مراد من قال منهم : « إنه صفة توجب لمحلها تمييزاً لا يحتمل النقيض ».

ب ـ العلم في لسان الشرع العام:

ويطلق العلم في لسان الشرع العام : على معرفة الله تعالى وآياته ، وأفعاله في عباده

وخلقه . قال الإمام الغزالي في الإحياء : « قد كان العلم يطلق على العلم بالله تعالى وآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، فتصرفوا فيه بالتخصيص حتى اشتهر في المناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها . ولكن ما ورد في فضل العلم والعلماء أكثره في المعنى الأول » . وقد نص الغزالي نفسه أيضاً على أن الناس اختلفوا في العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ، وذهب إلى أن المراد به علم المعاملة الشاملة لما يصلح الظاهر من عبادات وعادات إسلامية ، ولما يُصلح الباطن من عقائد الإسلام وأخلاقه .

جـ ـ العلم في عرف التدوين العام:

ويعرّف العلم في اصطلاح علماء التدوين بأنه : يطلق على المسائل المضبوطة بجهة واحدة ، الغالب أن تكون تلك المسائل نظرية كلية ، وقد تكون ضرورية ، وقد تكون جزئية ، وقد تكون شخصية أيضاً كمسائل علم الحديث رواية ، فإنها في الواقع قضايا شخصية موضوعها ذات النبي ﷺ .

ويمكن أن نستخلص من هذا كله أن العلم في عرف التدوين العام يقال على المعلومات المنضبطة بجهة واحدة سواء أكانت وحدة الموضوع أم وحدة الغاية ، وسواء أكانت تلك المعلومات تصورات كعلم البديع ، أم تصديقات ، وسواء أكانت تلك التصديقات كلية ـ وهو الغالب ـ أم جزئية أم شخصية كعلم الحديث رواية .

والإطلاق الثاني على العلم عند علماء التدوين : هو الإدراك ، أي إدراك تلك المعارف السابقة .

والإطلاق الثالث : هو على ما يسمونه ملكة الاستحصال أي التي تستحصل بها تلك المعارف . أو ملكة الاستحضار أي التي تستحضر بها المعارف بعد حصولها . وأول هذه الإطلاقات هو أولاها بالقبول لأنه المتبادر من نحو قولهم : « تعلمت علماً من العلوم ، وموضوع العلم كذا » والتبادر أمارة الحقيقة[1] .

٢ ـ تعريف لفظ القرآن:

أما لفظ القرآن :

أ ـ فهو في اللغة : مصدر مرادف للقراءة ، ذلك أن (قرأ) تأتي بمعنى (جمع) والقراءة ضَمُّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل . أو مصدر قرأت بمعنى

---

(١) ينظر : الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ١/ ٥ـ٦ .

تلوت ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ [القيامة : ١٧-١٨] ثم نقل من هذا المعنى وأصبح اسماً لكلام الله تعالى ، من باب إطلاق المصدر على مفعوله[١] .

والقرآن اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله تعالى كما يراه الشافعي ، ويرجحه السيوطي وعليه أئمة الأصوليين[٢] .

وقد يكون مشتقاً من القراءة ومرادفاً لها باعتباره مصدراً ، وقد يكون مشتقاً من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً ، ويشبه بعضها بعضاً كما يراه الفرّاء[٣] .

ويقال للقرآن : فرقان أيضاً ، وأصله مصدر كذلك ثم سمي به النظم الكريم ، تسمية للمفعول أو الفاعل بالمصدر ، باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق بعضه عن بعض في النزول ، أو في السور والآيات ، قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

ثم إن هذين الاسمين هما أشهر أسماء النظم الكريم ، ويلي هذين الاسمين في الشهرة : الكتاب ، والذكر ، والتنزيل .

وقد أوصل بعض العلماء أسماء القرآن إلى نيف وتسعين اسماً .

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة ، منها : أنه نور ، وهدى ، ورحمة ، وشفاء ، وكريم ، ومبين ، وموعظة ، ومبارك ، وبشرى ، وبشير ، ونذير ، وعزيز .

ب- القرآن في الاصطلاح:

« هو كلام الله المعجز ، المنزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين ، بوساطة الأمين جبريل عليه السلام ، المكتوب في المصاحف ، المحفوظ في الصدور ، المنقول إلينا بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ، المبدوء بسورة الفاتحة ، والمختتم بسورة الناس » .

هذا التعريف متفق عليه بين العلماء والأصوليين .

٣- معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافي ، وباعتباره علماً على هذا الفن:

بعد التعرف على اللفظين المتضايفين في لفظ « علوم القرآن » ، وبعد كل ما سلف

---

(١) ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : قرأ .
(٢) ينظر : السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ١/ ٥١ .
(٣) الآلوسي ، روح المعاني ، ١/ ١١ .

تسهل علينا معرفة علوم القرآن بالمعنى الإضافي.

فقد جمعت هذه العلوم في هذا المصطلح ولم تفرد ؛ لأنه لم يقصد إلى علم واحد يتصل بالقرآن ، إنما أريد شمول كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه ، وينتظم ذلك في : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الرسم العثماني ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم أسباب النزول ، وعلم الناسخ والمنسوخ ،وعلم المحكم والمتشابه ، وعلم إعراب القرآن ، وعلم غريب القرآن ، وعلوم الدين واللغة إلى غير ذلك.

فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته ، أو يتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه ، فذلك من علوم القرآن ، وهذا ظاهر في العلوم الدينية والعربية.

وقد نقل هذا اللفظ من ذلك المعنى الإضافي حتى جُعِلَ عَلَماً على الفن المدون ، وأصبح مدلوله بعد النقل وهو علم ، غير مدلوله قبل النقل وهو مركب إضافي ، ضرورة أن هذا الفن ليس هو مجموعة العلوم الدينية والعربية ، بل هو غيرها ، وإن كان مستمداً منها ومأخوذاً عنها ، **ويمكن أن نُعَرِّفَهُ :**

بأنه مجموعة من المباحث التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله ، وترتيبه ، وجمعه ، وكتابته ، وقراءته ، وتفسيره ، وإعجازه ، وناسخه ومنسوخه ،ودفع الشبه عنه ، ونحو ذلك[1].

وبتعبير آخر : هو العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول ، وجمع القرآن وترتيبه ، ومعرفة المكي والمدني ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن.

ثانياً- موضوع هذا العلم والفائدة من دراسته:

أما موضوع هذا العلم فهو القرآن الكريم من أي ناحية من النواحي المذكورة في التعريف ، بخلاف علوم القرآن بالمعنى الإضافي ، فإن موضوعه ، هو مجموع موضوعات تلك العلوم المندرجة تحت لوائه.

وموضوع كل واحد منها هو القرآن الكريم من ناحية واحدة من تلك النواحي ، فعلم القراءات مثلاً موضوعه القرآن الكريم من ناحية لفظه وأدائه ، وعلم التفسير موضوعه القرآن الكريم من ناحية إيضاحه وبيانه ، وهكذا.

---

(١) ينظر : الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١/ ٢٠ .

أما الفائدة من دراسة هذا العلم : فهي ترجع إلى الثقافة العالمية العامة في القرآن الكريم ، لأن القرآن وإن كان عربي النص إلا أنه عالمي الدلالة ، وإلى التسلح بالمعارف القيمة فيه ، استعداداً لحسن الدفاع عن هذا الكتاب العزيز ، ثم إلى سهولة خوض غمار تفسير القرآن الكريم به كمفتاح للمفسرين ، فمثله من هذه الناحية كمثل علوم الحديث لمن أراد أن يدرس علم الحديث .

هذا وإنما سمي هذا العلم بـ (علوم القرآن) ـ بالجمع دون الإفراد ـ للإشارة إلى أنه خلاصة علوم متنوعة ، باعتبار أن مباحثه المدوَّنة تتصل اتصالاً وثيقاً بالعلوم الدينية والعلوم العربية ، حتى إنك لتجد كل مبحث منها خليقاً أن يُسْلك في عِداد مسائل علم من تلك العلوم . فنسبته إليها كنسبة الفرع إلى أصوله ، أو الدليل إلى مدلوله .

ثالثاً ـ لمحة حول نشأة هذا العلم وتطوره:

لو نظرنا إلى الحقبة الزمنية الممثلة بالقرنين الأول والثاني من الهجرة النبوية المباركة ، التي أبقت لنا هذا التراث الإسلامي الضخم ، لوجدنا أن أكثر العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم مثل : علم التفسير ، وعلم غريب القرآن ، وعلم المكي والمدني ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وغيرها كانت مجموعة في صدور المبرِّزين من العلماء ، بعد أن ظلت معتمدة على الرواية بالتلقين ، وبعد أن كانت متناثرة في غضون كتب العلم هنا وهناك .

حتى إذا أطلَّ القرنان الثالث والرابع من الهجرة ، وجدنا التوجه منصباً في تصنيف الكثير من المؤلفات القيّمة التي تتصل موضوعاتها بالقرآن الكريم وعلومه التي لا يستغني المفسر عنها ، والتي امتازت بالتأليف المنظَّم والمتكامل .

فقد لجت أبواب الوعي العربي في التصنيف والتأليف والبحث الجدي والمتابعة الفذة من قبل فحول العلماء وعلية القوم ، وكان تفسير القرآن يمثل الشطر الأكبر من هذا التأليف ، ونشأت علوم جديدة للقرآن ، وظهرت مؤلفات في كل نوع منها ، سواء في ذلك أقسام القرآن ، وأمثال القرآن ،وحجج القرآن ، وبدائع القرآن ، ورسم القرآن ، وما أشبهها مما يملأ مكتباتنا بهذا العطاء الثر ، ثم لا يزال المؤلفون إلى عصرنا هذا يزيدون ، وعلوم القرآن ومؤلفاته تنمي وتزدهر وتزيد ، كل ذلك بهدف واحد هو الاعتداد بالقرآن وتراثيته ، فضلاً عن قدسيته وعظمته .

لقد امتازت هذه الحقبة الزمنية بالتدوين المنظم ، وأثرت فيما بعد بالحركة التأليفية

المتفتحة ، بعد أن اعتصر العلماء من تلك العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم علماً جديداً يكون كالفهرس لها ، والدليل عليها ، والمتحدث عنها ، فكان هذا العلم هو ما نسميه (علوم القرآن) بالمعنى المدوّن.

رابعاً ـ أشهر المؤلفات في علوم القرآن:

أما أشهر المؤلفات والمصنفات القيمة التي أُلِّفت في هذا العلم على يد جمهرة لامعة من الأئمة والعلماء المهتمين بالدراسات القرآنية فهي ما يلي :

١ـ فقد ألف علي بن المديني شيخ البخاري (ت ٢٣٤هـ) في أسباب النزول .

٢ـ وألف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٣٤هـ) في الناسخ والمنسوخ ، وفي القراءات ، وفي غريب القرآن .

٣ـ وألف عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في مشكل القرآن .

٤ـ وألف محمد بن خلف المرزبان (ت ٣٠٩هـ) الحاوي في علوم القرآن .

٥ـ وألف أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ) في علوم القرآن .

٦ـ وألف أبو بكر السجستاني (ت ٣٣٠هـ) في غريب القرآن .

٧ـ وألف محمد بن علي الأدفوي (ت ٣٨٨ هـ) (الاستغناء في علوم القرآن) .

ثم تتابع التأليف بعد ذلك :

٨ـ فألف أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) في إعجاز القرآن .

٩ـ وألف علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (ت ٤٥٠هـ) في إعراب القرآن .

١٠ـ وألف الماوردي (ت ٤٥٠هـ) في أمثال القرآن .

١١ـ وألف العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) في مجاز القرآن .

١٢ـ وألف علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣هـ) في علم القرآن .

١٣ـ وألف ابن القيم (ت ٧٥١هـ) في أقسام القرآن .

وهذه المؤلفات يتناول كل مؤلَّف منها نوعاً من علوم القرآن وبحثاً من مباحثه المتصلة به.

أما جمع هذه المباحث وتلك الأنواع ـ كلها أو جلها ـ في مؤلف واحد ، فقد ذكر الشيخ محمد بن عبد العظيم الزرقاني في كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن)[1] أنه

---

(١) ينظر : المصدر المذكور ، ١/٢٧ـ٢٨ .

ظفر في دار الكتب المصرية بكتاب لعلي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي (ت ٣٣٠هـ) اسمه (البرهان في علوم القرآن) وهو يقع في ثلاثين مجلداً ، والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً ، غير مرتبة ولا متعاقبة ، حيث يتناول المؤلف الآية من آيات القرآن الكريم بترتيب المصحف فيتكلم على ما تشتمل عليه من علوم القرآن ، مفرداً كل نوع بعنوان ، فيجعل العنوان العام في الآية (القول في قوله عزّ وجل) ، ويذكر الآية ، ثم يضع تحت هذا العنوان (القول في الإعراب) ويتحدث عن الآية من الناحية النحوية واللغوية ، ثم (القول في المعنى والتفسير) ويشرح الآية بالمأثور والمعقول ، ثم (القول في الوقف والتمام) ويبين ما يجوز من الوقف وما لا يجوز ، وقد يفرد القراءات بعنوان مستقل فيقول (القول في القراءة) ، وقد يتكلم على الأحكام الشرعية التي تؤخذ من الآية عند عرضها.

والحوفي بهذا المنهج يعتبر أول من دوّن علوم القرآن ، وإن كان تدوينه على النمط الخاص الآنف الذكر ، فجزاه الله خيراً في إثراء هذا العلم.

ثم جاء القرن السادس فألف فيه ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) كتابين : أحدهما اسمه (فنون الأفنان في علوم القرآن) والثاني : (المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن).

وفي القرن السابع ألف علم الدين السخاوي (ت ٦٤١هـ) كتاباً سماه (جمال القرّاء) ، وألف أبو شامة (ت ٦٦٥هـ) مؤلفه المسمى (المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز).

وما إن جاء القرن الثامن حتى وجدنا بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) الذي ألف كتاباً سماه (البرهان في علوم القرآن) ، وجاء جلال الدين البلقيني (ت ٨٢٤هـ) الذي أضاف بعض الزيادات على كتاب البرهان للزركشي وسماه (مواقع العلوم من مواقع النجوم) ، ثم ألف جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) كتابه المشهور (الإتقان في علوم القرآن).

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في عصر النهضة الحديثة أقل من العلوم الأخرى ، فقد اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامي اتجاهاً سديداً في معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر ، ومن ذلك :

١ـ كتاب (إعجاز القرآن) لمصطفى صادق الرافعي .
٢ـ كتابي (التصوير الفني في القرآن) و(مشاهد القيامة في القرآن) لسيد قطب .
٣ـ وترجمة القرآن للشيخ محمد مصطفى المراغي .

٤ـ و(مسألة ترجمة القرآن) لمصطفى صبري .

٥ـ و(النبأ العظيم عن القرآن الكريم) للدكتور محمد عبد الله دراز .

٦ـ ومقدمة تفسير (محاسن التأويل) لمحمد جمال الدين القاسمي .

٧ـ وكتاب (التبيان في علوم القرآن) للشيخ طاهر الجزائري .

٨ـ و(منهج الفرقان في علوم القرآن) للشيخ محمد علي سلامة .

٩ـ وكتاب (مناهل العرفان في علوم القرآن) للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني .

١٠ـ و(مذكرة علوم القرآن) للشيخ أحمد أحمد علي التي ألقاها على طلابه بالكلية .

١١ـ وصدر أخيراً (مباحث في علوم القرآن) للدكتور صبحي الصالح .

١٢ـ و(أبحاث على مائدة القرآن) للأستاذ أحمد محمد جمال.

فكل من هؤلاء الأعلام قد أفرغ ما فيه كنانته من سهام مضيئة في التنوير العام بين يدي القرآن وأسلوبه الإعجازي ، وكان « علوم القرآن » جزءاً رصيناً مما كتبوا فجزاهم الله خيراً عن كتابه المجيد.

وها هي مسيرة علوم القرآن لا تقف عند حد معين ، ولا يستوعبها أحد ، فهي تشق طريقها بكل وضوح وترسخ أصالتها في رحاب هذا الكتاب المعجز ، تلتقط من هذا وذاك جواهره المضيئة ، تغذي العقول ، وتربّي الأفئدة ، خاشعة لها الأبصار ، بدراً يدور به فلك من المعارف لا تنتهي ، وسراجاً تهتدي به العربية في ليل سراها الطويل.

فمنذ بداية اللحظة التي نزلت فيها أولى آياته الكريمة ، وعلى مدى التنزيل المبارك ، وإلى آخر الزمان ، وعين الله تحفظه وتحميه ، والعناية الربانية تلاحظه وترعاه ، ولم تقف عقبة أمام هذا الكتاب المجيد .

الفصل الثاني

ظاهرة الوحي الإلهي

أولاً ـ رعاية الوحي للنبي ﷺ

ثانياً ـ التعريف بظاهرة الوحي ومقدمة عن عالم الغيب

ثالثاً ـ معنى الوحي في اللغة والاصطلاح الشرعي

رابعاً ـ الفرق بين الوحي والكشف والإلهام

خامساً ـ ظاهرة الوحي مرئية مسموعة خاصة بالنبي ﷺ

سادساً ـ صور الوحي الإلهي

سابعاً ـ ادعاءات وافتراءات أمام ظاهرة الوحي والرد عليها

الفصل الثاني

ظاهرة الوحي الإلهي

قبل البدء بدراسة ظاهرة الوحي الإلهي يجدر بنا أن نعرض بعض اللمسات التمهيدية التي تستدعي الإشارة الخاصة بحياة النبي محمد ﷺ التي يذكرها كل من يترجم له.

لقد كان مقدراً أن ينبثق للبشرية نبع جديد ، إذ كانت العناية الإلهية أرحم دائماً من أن تدع البشر في جحيم الجفاف والظمأ ، وقد اعتادت ينابيع الأديان أن تنبثق في أكثر البقاع ظلماً وجفافاً ، بعد أن فقد العالم قوة الإيمان ، وصفاء العقيدة ، وأسباب الطمأنينة ، فاستبد به جفاف محرق أورث الناس ظمأً قاسياً . . ظمأ إلى الإيمان ، والحكمة ، والاستقرار.

وكانت شبه الجزيرة العربية هي البقعة المختارة في هذه المرة ، إذ كانت قد تردت في أعماق مهاوي الوثنية ، ونمو التعصب للأخطاء الموروثة في تأليه الملائكة وتأنيثها ، وعبادة الأصنام وتقديسها ، ورؤية الشمس والقمر والكواكب بمنظار الأرباب ، فتداعت الأخلاق تحت وطأة الرذيلة ، وتفشى الفجور والبغاء والزنا ، والجهل ، والربا ، والخمر ، والميسر ، والفرقة ، ووأد البنات ، وقتل الأولاد خشية الفقر ، وأكل التراث ، وحب المال ، ووراثة النساء كرهاً ، وغيرها.

وفي هذه البقعة المختارة ، وهذا الحال مع هذا الخلط العجيب من الديانات المنحرفة ، وتعدد الآلهة ، ولد النبي الكريم محمد ﷺ صاحب أحدث الديانات السماوية الثلاث ، التي تعد حياته فتحاً جديداً في تاريخ الإنسانية ، وتحولاً واضحاً في وضع الجماعة البشرية ، ونصراً ملحوظاً للدعوة الإسلامية.

فاستنقذ الناس من عبودية الفكر ، واسترقاق النفوس ، واتجه بها إلى عبادة الله الواحد القهار ، وهي عبادة تجمع إلى راحة الضمير ، وصدق العبودية دون إذلال ، وصحة الاعتقاد دون انحراف ، ابتعاداً عن الخرافات والأساطير والمتاهات.

لقد اختط لنفسه هذا الثائر العربي الذي كان يدعو إلى الطاعة والنظام ، والمحارب الذي كان يدعو إلى السلام منهجاً يوفق بين واجباته الروحية ومهماته القيادية من جهة ، وبين حياته العامة ومساره الدنيوي من جهة ثانية .

هناك العلاقة الثنائية بين الوحي والنبي ﷺ ، وهناك التجاوب المطلق بينهما ، وكان تحقق ذلك في التدرج بالنزول ، وكانت الأزمات وهي تحاول أن تعصف بالنبي ﷺ تضرب فجأةً بإرادة الوحي الإلهي ، فهو إلى جنبه يشد عزمه ، ويقوي أمره ، ويسليه تارةً ، ويعزيه تارةً أخرى ، ويصبره ويؤسيه ، فيما يقتص له من الأنباء ، وما يورده من الصبر ، وما يحدده من الأحكام ، مفرقاً بين الحق الثابت الرصين ، والباطل المتزعزع الواهن ، وفي ذلك تثبيت له على المثل ، وتحريض له على المثابرة ، وإعلام له بالنصر ، لأنها سنة الله مع رسله وأنبيائه .

ولا نريد أن نطيل أكثر فأكثر في هذا الجانب وسواه فهو بديهي لاستكمال الرسالة وضرورة تطبيقها ، ومواكبة الوحي لهذه الأحداث والأزمات والمؤشرات دليل على أصالة هذا المنهج المتناسب تأريخياً وزمنياً مع مرحلية الظروف .

وسنقف عند هذه الظاهرة بكل أبعادها وتفصيلاتها الدقيقة وتعليلها نفسياً وعلمياً وقرآنياً من خلال المباحث الآتية :

أولاً ـ رعاية الوحي للنبي ﷺ :

إن الدور الأساسي للنبي محمد ﷺ في هذا القرآن هو « الحكاية والتبليغ » لأننا نجد الوحي رفيقاً أميناً لهذا القائد العظيم الموحى إليه ، وإن الوحي يشكل بعداً زمنياً معنياً يقترن بنزول القرآن ، وذلك أول تاريخ القرآن ، ويستمر معه بوحي القرآن متكاملاً .

لم يكن النبي ﷺ بدعاً من الرسل ، ولم يختص بالوحي دونهم ، بل العكس هو الصحيح ، فقد شاركهم هذه الظاهرة ، وقد أوحي إليه كما أوحي إليهم من ذي قبل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ـ١٦٤] .

فقد هدفت الآية وما بعدها إلى بيان حقيقة الوحي الشاملة للأنبياء كافة ، فمن اقتص خبرهم وممن لم يقتص ، وإيثار موسى بالمكالمة وحده .

ويبقى التساؤل قائماً : بماذا تفسر هذه الظاهرة ، وكيف تعلل نفسياً ؟ وكيف تنطبق كونياً ، وكيف عولجت قرآنياً ؟ وهل هي حقيقة تنطلق من ذات النبي ﷺ ؟ أم هي ظاهرة منفصلة عنه تماماً ؟ وما سبيل معرفتها جوهرياً عند النبي ؟ وعند الناس ؟ وكيف آمن به بكل قوة ويقين وآمن بها من حوله ؟ .

وللإجابة عن هذه الافتراضات ، لا بد من رصد جديد لهذه الأبعاد كافة لتأصيل حقيقة هذه الظاهرة وتأكيدها .

وباستعراض هذه الافتراضات سوف نلمس النبي ﷺ واسطة لعلم غيبي مطلق وأن الذكر الذي قرأه على العالمين ، نزل به الروح الأمين من عند رب العالمين ، لأنه كان عبداً مأموراً محتسباً ، يُنفّذ ولا يسأل ، ويبلّغ ولا يُضيف ، مهمته التلقي والأداء ، مستقلاً بذاته ، ومنفصلاً عن ظاهرته ، ويبقى الجمع بين حياته العامة والخاصة من اختصاصه بتوجيه من الله تعالى ، وبعناية من وحيه ، فلا تعارض بينهما ، مع أننا نلمس بشكل جدي أن النبي ﷺ قد وهب حياته للوحي ، مُبلغاً أميناً ، ورسولاً كريماً ، إلا أن شخصيته حقيقية ، والوحي حقيقة أخرى ، وهذا ما ندأب على إثباته علمياً .

ثانياً ـ التعريف بظاهرة الوحي ومقدمة عن عالم الغيب:

إن ظاهرة الوحي تمثل مبدأ اتصال عالم الغيب بعالم الشهادة ، وإن الوحي الإلهي هو الفصل الذي يكشف به الله للإنسان عن الحقائق التي تجاوز نطاق عقله[1] .

وكما يمثل الوحي مصدر المعرفة الإنسانية عن عالم الغيب ، في حين يشكل العقل والحواس مصدر هذه المعرفة عن عالم الشهادة . إن الإيمان بعالم الغيب ليس خارجاً عن نطاق القدرة العقلية ، فضلاً عن أن يكون فيه مناقضة لهذا العقل أو خروج عن قوانينه الفطرية . إن في وسع العقل ـ بوصفه صاحب الدور الأول في إدراك عالم الشهادة ـ أن يستدل بعالم الشهادة عن عالم الغيب ، أو على رأس الإيمان بعالم الغيب ، وهو الإيمان بالله تعالى ، ولا يكون العقل بذلك قد سلم بِسِر باطل أو عقيدة مستحيلة .

إن التسليم بعالم الغيب ليس خارجاً عن نطاق العقل ، بل إن العقل نفسه يدل على ساحة هذا العلم ، كل ما في الأمر أنه يعجز عن اقتحامها أو معرفة كنهها بوسائل عالم الشهادة ـ العقل والحواس ـ وهنا يأتي دور الوحي الذي يعرّف الإنسان بحقيقة هذا

---

(١) ينظر : د . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ٢/ ٥٧٠ .

العالم ، ويقفه على طبيعة الصفات الإلهية ، ويرسم له طريق الحياة الأمثل ، إلى غير ذلك من موضوعات الوحي . فاعجب بعد ذلك لمن يقدم على إنكار عالم الغيب أو ما وراء الطبيعة بحجة عدم دخوله تحت سلطان الحس والمشاهدة ! ! وإذا تركنا الحديث عن الوعي بوجود الله تعالى ـ أساس الإيمان بعالم الغيب ـ وأن هذا الوعي يخالط كل نفس إنسانية ، فإن عدم تمكن العقل من الوقوف على كنه عالم الغيب ، أو حقيقة الذات الإلهية لا يضعف من شأنه أو دوره في عالم الشهادة ، ولكنه يضعفه في موضعه قادراً على تيسير الحياة لا تصوير الوجود ، كما يقول برجسون ، ويطامن من كبريائه حين يعلم أن هذه الوسيلة ـ العقل نفسه ـ لم تدرك حقيقة ذاتها بعد ، والله تعالى أعلم.

ثالثاً ـ معنى الوحي في اللغة والاصطلاح الشرعي:

أصل الوحي لغةً هو : الإشارة السريعة على سبيل الرمز والتعريض ، وما جرى مجرى الإيمان والتنبيه على الشيء من غير أن يفصح به[1].

وقيل : إنه الإعلام في خفاء[2].

ومؤدى التعريفين واحد فيما يبدو ، إذ الإشارة السريعة ، إعلام عن طريق الرمز ، والرمز إيماء يستفيد منه المتلقي أمراً إعلامياً قد يخفى على الآخرين.

ومن ثم قيل « للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وحي »[3] حتى صار هذا التعريف شرعياً باعتبار إسرارها إليهم من قبل ملك الوحي ، واختصاصها بهم دون سائر الناس.

قال ابن الأنباري : سمي الوحي وحياً لأن الملَكَ أسرّه إلى الخلق ، وخصَّ به النبي ﷺ[4].

وعرفه الأستاذ محمد عبده فقال : « عرفان يجده الشخص في نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله تعالى ، بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يسمعه ، أو بغير صوت »[5].

---

(١) ينظر : الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ٥١٥ .
(٢) ينظر : ابن منظور « لسان العرب » ٢٠/ ٢٥٨ .
(٣) الراغب الأصفهاني ، المفردات ، ٥١٥ .
(٤) ابن منظور « لسان العرب » ٢٠/ ٢٥٨ .
(٥) محمد رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ٣٤ .

ومن هنا يبدو أن التعريف الشرعي منحدر عن الأصل اللغوي في خصوصية الإسرار والإعلام السريع ، وما يصاحب ذلك من الإشارة والرمز اللذين يخفيان على الآخرين.

فوحي الأنبياء ظاهرة ثابتة متيقنة لا يرتقي إليها الشك ولا تقبل الجدل ، لأنها ظاهرة شعورية تتسم بالوعي والإدراك التامين ، ولما يقترن بها من معجزات حسّية تبرهن على صدق دعوى الأنبياء والمرسلين فيما يُبلّغونه عن الله تبارك وتعالى.

رابعاً ـ الفرق بين الوحي والكشف والإلهام:

وإذا كان الوحي فعلاً متميزاً ، فهو صادر عن فاعل مريد ، وهذا الفاعل المريد هو الله تعالى ، وليس الإلهام والكشف والإيحاء النفسي التي تعد حالات لا شعورية ولا إرادية ، وهذا ما يميز الوحي عن المكاشفة ، والوحي النفسي ، والإلهام ، إذ أن مرد الإلهام يعود عادةً إلى الميدان التجريبي لعلم النفس ، ونزعة الوحي النفسي في انقداحها تعتمد على التفكر في الاستنباط ، تتأرجح بين الشك واليقين.

والوحي بالمعنى المشار إليه يختص بالأنبياء ، وليس الإلهام والكشف كذلك ، فهما عامان وشائعان بين الناس.

لقد فرّق المستشرق الألماني الدكتور تيودور نولدكه (١٨٣٦ـ١٩٣٠م) بين الوحي والإلهام تفريقاً فيه مزيج بين الواقع والصوفية ، فاعتبر الوحي خاصاً بالأنبياء ، والإلهام خاصاً بالأولياء إذ لا يوحى إليهم[١].

ويتجلى الفرق بين الإلهام والوحي بتعبير آخر ، وبتصوير مغاير ، أن مصدر الإلهام باطني ، وأن مصدر الوحي خارجي ، بل الإلهام من الكشف المعنوي ، والوحي من الواقع الشهودي ، لأن الوحي إنما يتحصل بشهود الملك وسماع كلامه ، أما الإلهام فيشرق على الإنسان من غير واسطة ملك ، فالإلهام أعم من الوحي ، لأن الوحي مشروطاً بالتبليغ ، ولا يشترط ذلك في الإلهام.

والإلهام ليس سبباً يحصل به العلم لعامة الخلق ، ويصلح للبرهان والإلزام ، وإنما هو كشف باطِني ، أو حدس ، يحصل به العلم للإنسان في حق نفسه لا على وجه اليقين والقطع ، كما هي الحالة في الوحي ، بل على أساس الاحتمال الإقناعي[٢].

---

(١) ينظر : نولدكة ، دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ٩ مادة : الدين .

(٢) ينظر : د . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ١/ ١٣١ .

إن طريق الوحي هو التلقي ، وطريق هذا التلقي هو الملك وفي ضوئه نجدعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) حدياً بتمثل الوحي متفرداً بما ألقاه جبرائيل على النبي ﷺ ، وإن القول بأنه : « قد كان على سبيل الإلهام ، وكالشيء يلقى في نفس الإنسان ويهدي له من طريق الخاطر والهاجس الذي يهجس في القلب ، فذلك مما يستعاذ بالله منه ، فإنه تطرق للإلحاد »[1] .

خامساً ـ ظاهرة الوحي مرئية مسموعة خاصة بالنبي ﷺ :

إن عملية الوحي إنما تخضع لتصور حوار علوي بين ذاتين : « ذات متكلمة آمرة معطية ، وذات مخاطبة مأمورة متلقية »[2] .

ولم تتشاكل في مظهر من مظاهر الوحي وظاهرته ، الذات المتكلمة ، والذات المخاطبة في قالب واحد ، ولم يتحدا في صورة واحدة على الإطلاق فهما متغايران .

إن ظاهرة الوحي الإلهي ظاهرة مرئية مسموعة ، ولكنها خاصة بالنبي وحده ، فما اتفق ولو مرة واحدة ، أن سمع أصحابه صوت الوحي ، ولا حدث أن رأوا هذا الكائن الموحي ، ومع هذا فقد أدركوا صحة ما نزل عليه ، وصدق ما أوحي إليه ، بدلائل الإعجاز ، وقرائن الأحوال ، واعتبارات الاختصاص ، فالنفس الإنسانية وإن كانت واحدة في الأصل والجوهر ، ولكنها تختلف شفافية كما تختلف تخويلاً من قبل الله تعالى ، فالنبي يرى ويسمع ويعي ما حوله من الظاهرة بيقين مرئي مشاهد ، ومن حوله لا يرون ولا يسمعون ولكنهم يصدقون ويؤمنون .

وربما قيل إن ما يتلقاه النبي من الروح الأمين وهو رسول الوحي : « هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواس الظاهرة ، التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئية ، فكان ﷺ يرى ويسمع حينما يوحى إليه من غير أن يستعمل حاستي البصر والسمع . . . فكان ﷺ يرى الشخص ، ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت غير أنه ما كان يستخدم حاستي بصره وسمعه الماديتين كما نستخدمهما ، ولو كانت رؤيته وسمعه بالبصر والسمع الماديين لكان ما يجده مشتركاً بينه وبين غيره ، فكان سائر الناس يرون ما يراه ، ويسمعون ما يسمع ، والنقل القطعي يكذب ذلك ، فكثيراً ما كانت تؤاخذه برحاء الوحي ، وهو بين الناس ، فيوحى إليه ،

---

(١) عبد القاهر الجرجاني « الرسالة الشافية » ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ١٥٦ .

(٢) ينظر : مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ١٩٤ وصبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ٢٧ .

ومن حوله لا يشعرون بشيء ، ولا يشاهدون شخصاً يكلمه »[1].

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نرصد في ظاهرة الوحي عملية إرسال واستقبال بوقت واحد ، إرسال بواسطة الملك المؤتمن ، واستقبال من قبل النبي المصطفى ، يتم ذلك في حالة إدراك متماسكة ، يسيطر فيها الوعي والشعور والإحساس ، كما لو كان أمراً عادياً في يقظة حقيقية ، قبل الوحي ، وأثناء الوحي ، وبعد الوحي ، مهما صاحب عملية الوحي من شدة ووطأة ومفاجأة . فالوحي حقيقة خارجية مستقلة عن كيان النبي النفسي ، ولكنها لا تغير ذلك الواقع النفسي ، بل تزيده جلاء وفطنة وذاكرة ، ويمثل فيها النبي ﷺ دور المتلقي من جهة ، ودور المبلغ الأمين من جهة أخرى ، لا يُقَدِّمُ ولا يُؤَخِّر ، ولا يُغَيّر ولا يقترح ، ولا يفتر ولا يتكاسل.

ولقد كان ذلك بحق : « استقبالاً من النبي لحقيقة ذاتية مستقلة ، خارجة عن كيانه وشعوره الداخلي ، وبعيداً عن كسبه أو سلوكه الفكري أو العملي »[2].

وليس من الضروري أن تتوافق هذه الظاهرة مع رغبات النبي ﷺ الآنية ، أو تطلعاته النفسية الملحة ، فقد ينقطع عنه الوحي ، وقد يتقاطر عليه ، ولكنه لا يعدو الوقت المناسب في تقدير الله عز وجل ، وما تحويل القبلة إلى الكعبة ، وإبطاء الوحي في حادثة الإفك ، وفترة الوحي حيناً ،والتلبث في قصة أهل الكهف ، إلا شواهد تطبيقية على ما نقول ، وأدلة مثبتة : إن الوحي خارج عن إرادته ، ومستقل عن ذاته.

ولا شك أن النبي ﷺ آمن منذ اللحظة الأولى ـ بقناعة شخصية متوازنة ـ بأن ما يوحى إليه ليس من جنس الأحلام وأضغاثها ، ولا من باب الأحاسيس القائمة على أساس من الذكاء والفطنة ، ولا من قبيل التخيلات المستنبطة من الحدس والفراسة ، وإنما كان بإيمان نفسي محض بأنه نبي يوحى إليه من قبل الله تعالى ، وما الروايات والإسرائيليات القائلة بشكه في الظاهرة إلا ضرب من الأخيلة التي لا يدعمها دليل يعتد به أو حجة يصار إليها . ويوحي الله عز وجل لملك الوحي ما يوحيه الملك إلى النبي عن الله ، ويتسلم النبي الوحي ، فالوحي واحد هنا مع تقاسم المسؤولية ، وهو عام بالنسبة لكل الأنبياء ، وخاص بالنسبة لوحي القرآن أيضاً ، فالملك يؤدي عن الله لمحمد ، ومحمد يتلقى ذلك الوحي من الملك ، ويؤدي ما يوحى به إليه إلى الناس ، وكان ذلك

---

(١) الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن ١٥/ ٣١٧ وما بعدها .

(٢) بكري شيخ أمين ، التعبير الفني في القرآن ، ١٩ .

طريق الوحي القرآني فحسب ، وقد صرح به القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٤].

والروح الأمين هو جبرائيل بإجماع الأمة والروايات ، قال الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) : « يعني جبرائيل عليه السلام ، وهو أمين الله لا يغيره ، ولا يبدله . . . لأن الله تعالى يُسمعَهُ جبرائيل ، عليه السلام ، فيحفظه ، وينزل به على الرسول ويقرأه عليه ، فيعيه ويحفظه بقلبه ، فكأنه نزل به على قلبه »(١).

وهذا صريح بكيفية تلقي النبي ﷺ للقرآن من جبرائيل ، على قلبه تثبيتاً وحفظاً ورعايةً ، والقلب أشرف الأعضاء للتدبر والتفكر إن أريد به هذا الجهاز العضلي ، وإلاّ فهو الإدراكات النفسية الخاصة لدى النبي ﷺ المستعدة للتلقي والصيانة والاستيعاب دون ريب.

وكان ما نزل به جبرائيل بإيحاء من الله تعالى هو النص الصريح من الوحي القرآني دون زيادة أو نقصان ، بألفاظه المدونة في المصحف من ألفه إلى يائه.

سادساً - صورة الوحي الإلهي:

صرحت الآية القرآنية التالية بصور الوحي الإلهي ، وحددت كيفية هذا الوحي ، ومراتب إيصاله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١].

وهذه الصورة هي :

١- إلقاء المعنى في قلب النبي ﷺ ، أو إلقاء الله تعالى ما يريد إعلامه أو وحيه مباشرة في قلب النبي الكريم ، من غير واسطة الكلام أو توسط ملك الوحي ، وذلك بأن ينفث الله في روع النبي ﷺ ما يشاء من أمر ، أو ينفث روح القدس ما أوحي إليه بتبليغه إياه ، فيكون ذلك من الوحي بوجه من الوجوه .

وقد يؤيد هذا الملحظ ما نسب إلى النبي أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي »(٢).

ولهذا أطلقت الآية اسم « الوحي » عليها على الرغم من أن الصورتين التاليتين

---

(١) الطبرسي مجمع البيان ، ٧/ ٢٠٤ .

(٢) ينظر : الحديث عند السيوطي في الإتقان ، ١/ ١٢٩ والمفردات للراغب الأصفهاني ، ٥١٥ .

فيهما إعلام خفي وسريع ، إلا أن الأولى منهما يدخل فيها الكلام المسموع ، وتتم الأخرى عن طريق ملك الوحي ـ جبريل عليه السلام ـ.

٢ـ سماع كلام الله تعالى مباشرة من وراء حجاب ، أي أن يكلمه الله تعالى بكلام يسمعه دون معاينة أو رؤية المتكلم سبحانه ، والحجاب هنا راجع لمكان الكلام كما هو واضح ، وقد كلم الله تعالى موسى عليه السلام ـ من وراء الشجرة ـ الحجاب ـ كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] وقال تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤].

٣ـ تكليم النبي بواسطة ملك الوحي ، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ فيوحي بإذنه ما يشاء ، غير أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بأسلوبين أو على شكلين ،

الأول : أن يأتيه ملك الوحي في مثل صلصلة الجرس.

والثاني أن يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه فيعي عنه ما يقول ، أخرج البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أن الحارث بن هشام سأل رَسُول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رَسُول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدّه عليَّ ، فيُفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً !.

وفي هذا الضوء ، فإن ما يوحى به إلى النبي ﷺ لا يخلو : إما أن يكون تعليمات يؤمر بإشاعة مفاهيمها بين الناس بحال من الأحوال ، وإما أن يكون كلاماً يؤمر بتدوينه ، ويثبته الله في قلبه ، ويتلوه بلسانه ، فيكون كتاباً فيما بعد ، وإلى هذا أشار الزهري بقوله :

« ما يوحي الله به إلى نبي من الأنبياء فيثبته في قلبه ، فيتكلم به ويكتبه ، وهو كلام الله ، ومنه ما لا يتكلم به ولا يكتبه لأحد ، ولا يأمر بكتابته ، ولكن يحدِّث الناس به حديثاً ، ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم إياه »[1].

والقرآن الكريم من النوع الذي يثبت في قلب النبي ﷺ وتكلم به ، وأمر بكتابته وتدوينه ، بعد إنزاله وحياً من قلبه.

---

(١) السيوطي ، الإتقان ، ١٢٨/١ .

قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ـ١٩٤].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٩٧].

وفي هذه الكيفية أو الصورة كان يهبط جبريل بصورته النورانية أو الملائكية (أي الغيبية) فلا يرى ، وكان النبي الكريم عليه الصلاة والسلام يجد فيها جهداً ومشقة بالغة ! وما كان خبر السماء يهبط به أمين الوحي جبريل فيصل عالم الغيب بعالم الشهادة إلاّ أمراً بالغ الخطر عظيم الشأن . . . هيأ الله تعالى له نبيّه وأعدّه لاستقباله ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤].

وقد أورد الزركشي عن السمرقندي ثلاثة أقوال في المنزَّل من القرآن :

١ـ أنه اللفظ والمعنى ، وأن جبرائيل ، عليه السلام ، حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به .

٢ـ أن جبرائيل إنما نزل بالمعاني الخاصة ، وأن النبي ﷺ علم تلك المعاني ، وعبّر عنها بلغة العرب.

٣ـ أن جبرائيل ، إنما ألقي إليه المعنى ، وأنه عَبَّر بهذه الألفاظ بلغة العرب[1].

والأول هو الصحيح دون ريب ، لأن جبرائيل وصف بالروح الأمين لأمانته المتناهية ، فلا يضيف ولا يغيّر ، ولا يبدل ولا ينسى ، ولا يُخول ولا يتجوز ، كيف لا وهو روح القدس بقوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل : ١٠٢].

والقرآن نازل من عند الله بألفاظه نفسها ، وما مهمة جبرائيل إلا تبليغ الوحي كما تسلمه ، وهو آيات الكتاب الكريم بنصوصها خالصة بدلالة قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمران : ١٠٨].

وقد اختار السيوطي ذلك تعبداً بلفظ القرآن إعجازاً ، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه ، وإن تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرة ، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه[2].

---

(١) ينظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٢٢٩/١ والسيوطي ، الإتقان ، ١٢٦/١ .

(٢) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ١٢٨/١ .

وخصوصية القرآن التعبد بتلاوته ؛ لأنَّ ألفاظه نازلة من الله تعالى فلا تدانيها خصوصية أخرى ، لأن هناك ما هو نازل من السماء كالأحاديث القدسية ، ولكنها ليست بقرآن ، فلا خصوصية للتعبد بتلاوتها ، وإن أخذنا بمضامينها حرفياً ، ولكنها لم تنزل بألفاظها المخصوصة لها كما هو شأن القرآن.

والحديث النبوي نتعبد به أمراً ونهياً ، وكان النبي ﷺ يرسل الحديث ويقوله ويتبع ذلك أهله وأصحابه ، ثم يتلو القرآن ويقرؤه ، فما اتفق يوماً أن تشاكل النصان ، أو تشابه القولان ، ولو كان معنى القرآن ينقل إلى النبي وحياً ، أو وحيه ينقل إليه معنى ، والنبي يصوغه بلفظه ، ويعبر عنه بكلامه ، لاشتبه القرآن بالحديث ، والحديث بالقرآن ، من وجهة نظر بلاغية على الأقل ، بينما العكس هو الصحيح ، فالخصائص الأسلوبية في القرآن تدل عليه ، وخصائص الحديث تدل عليه ، فكل له أسلوبه المتميز ، ومنهجه الخاص ، حتى عرف ذلك القاصي والداني ، فمن آمن بالنبي والقرآن وممن جحدهما ، فالقرآن كلام الله ، ومحمد ﷺ ينقله كما سمعه ، بلفظه الدال على معناه ، وبمعناه الذي نطق به لفظه ، لا شيء من محمد إلا النقل الأمين ، والحديث كلام محمد ﷺ يتفوه به فيشرع ويحكم ، لأنه المصدر الثاني بعد القرآن للشريعة الإسلامية ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧].

وثمة دليل قرآني آخر في توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ بعبارة : « قل » في القرآن الكريم ، وتكرارها فيه أكثر من ثلاثمئة مرة ، تصريح وأي تصريح بأن النبي ﷺ : « لا دخل له في الوحي ، فلا يصوغه بلفظه ، ولا يلقيه بكلامه ، وإنما يلقى إليه الخطاب إلقاءً ، فهو مخاطب لا متكلم ، حاكٍ لما يسمعه ، لا يعبر عن شيء يجول في نفسه »[1].

لهذا كان إذا نزلت عليه آية أو سورة ، بل وجزء من آية ، يدعو كتبته لتدوينها على الفور نصاً.

سابعاً ـ ادعاءات وافتراءات أمام ظاهرة الوحي الإلهي والرد عليها:

نقف هنا أمام بعض الفروض والأوهام والشكوك المتعلقة بظاهرة الوحي القرآني التي راودت أذهان البعض من **العرب والمستشرقين والمتطرفين** ، التي تهدف إلى إنكار نبوة الرسول الكريم ﷺ ولصرف الناس عن الإسلام ، أو لإقامة حواجز تحول

---

(١) صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ٣٠ .

دون تأثر أقوامهم به ، لكن الواجب العلمي بات يقتضي الرد على مثل هذه الادعاءات والافتراضات ودحضها ومعالجتها بما يكفل العناية الإلهية التي رافقت هذه الظاهرة وإنجاز الوعد الإلهي بصيانة النص القرآني الكامل .

أولاً : لقد بهت العرب أمام ظاهرة الوحي القرآني ، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة ، وأئمة البيان والفن القولي ، وتذرعوا للتشكيك فيها بمختلف الوسائل ، فأثاروا الشبهات ، وتعلقوا بالأوهام ، فوصفوا النبي بالضلال ، والقرآن من ورائهم يناديهم بقوله : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ١ـ٤].

وتداعوا مرة أخرى إلى افتراضات متناقضة ، فقالوا : أضغاث أحلام ، وقد أيقنوا بصحوة النبي ويقظته ، وردّوه إلى الكذب والاختلاق ، وهم أنفسهم وصفوه من ذي قبل بالصادق الأمين ، ونسبوا كلام النبي إلى الشعر ، وقد علموا بأن النبي : أبعد ما يكون عن مزاج الشاعر وأخيلته ، وما ترك في هذا المجال أثراً يركن إليه بهذه السمة ، وقد عبّر القرآن عن ذلك بقوله : ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء : ٥] وما استقامت لهم الدعوى في شيء ، ووصموه بالجنون كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : ٦] ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان : ١٤].

وقد دلت الأحداث الاستقرائية ، والسيرة الذاتية للنبي ﷺ على رجاحة عقله ، واتزانه في تصرفاته ، وتأكد لهم افتراؤهم بما شاهدوه من مجريات الأمور ، وقد لبث النبي بين ظهرانيهم حقباً طويلة قبل البعثة ، فما مسكوا زلة ، ولا أدركوا غفلة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النكتة الدقيقة بقوله : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٦].

وترددوا بقول الكهانة من بعد الجنون ، فرد افتراءهم القرآن بما أمره به : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [الطور : ٢٩] فما كان محمدٌ إلا مبشراً ونذيراً ، وما كان الوحي إلا ذكراً للعالمين ، فأين هو من الكهانة ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة : ٤٢].

وحينما أعيتهم الحيلة ، ووقف بهم المنطق السليم ، انطلقوا إلى القول : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر : ٢٤] شأنهم في هذا شأن من تقدمهم من الأمم مع أنبيائهم ورسلهم في الادعاءات ، قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ

﴿ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢] وقد علموا جدياً أن محمداً ﷺ في أصالته العقلية ، أبعد ما يكون عن السحر والشعوذة والتمويه من قبل ومن بعد.

وتمسكوا بأوهن من بيت العنكبوت ، فأشاعوا بكل غباء أن لمحمد ﷺ معلماً من البشر ، وهو غلام روحي يمتهن صناعة السيوف بمكة ، فألقمهم القرآن حجراً بردهم رداً فطرياً قال تعالى : ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣].

وأغلقت السبل كافة في الوجوه والألسن والأقاويل ، فرجموا بالغيب ، وتشبثوا بالطحلب ، وحسبوا وجدان الضالة ، فقالوا بما حكى الله عنهم : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٥] وتمادى بهم القول ، ففصّلوا بعد الإجمال ، وأبانوا بعد الإبهام : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥].

وهكذا تبدو الحيرة مترددة بين عدة ادعاءات وافتراءات ، هم أنفسهم يعلمون بمجانبتها للواقع المشهود ، إذ لم يؤيدها نص استقرائي واحد في حياة محمد ﷺ ، وبذلك أخفقت تخرصات العرب المتناقضة في وصف الوحي.

ثانياً : لقد توصل النبي ﷺ إلى اليقين القطعي بصدق الرؤية والسمع عند حدوث ظاهرة الوحي طيلة ثلاث وعشرين عاماً ، وكان لذلك أمارات خارجية تبدو على وجهه وعينيه وجبينه ، من شحوب أو احتقان أو تصبب عرق ، وقد يرافق ذلك من دوي بجسمه أو أصداء أو أصوات كما تقول الروايات[1].

ولكن هذه المظاهر لم تمتلك عليه وعيه الكامل ، وإحساسه اليقظ ، لأنها أمارات خارجية لا تغير من حقيقة شعوره على الإطلاق ، فقسمات الوجه ، وتعرق الجبين ، وشحوب المحيا لا تدل في حالة اعتيادية على تغير في الوعي ، أو انعدام للذاكرة ، أو فقدان للشعور ، وما هي إلا طوارىء عارضة لا تمس الجوهر بشيء.

ولقد تعجل بعض النقاد من المستشرقين ، حين ألموا بهذه الدلائل النفسية ، والأمارات الشكلية الخارجية التي لا تنتاب الوعي إطلاقاً ، ولا تؤثر على الإدراك في حال ، فاعتبروها ـ مخطئين ـ أعراضاً للتشنج تارةً ، وللإغماء تارة أخرى ، « وهذا

---

(١) ينظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ١/ ١٩٧ والبخاري ، الجامع الصحيح ، ١/ ٤ وابن حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ١/ ٢١ .

الرأي يشمل خطأً مزدوجاً حين يتخذ من هذه الأعراض الخارجية مقياساً يحكم به على الظاهرة القرآنية بمجموعها ، ولكن من الضروري أن نأخذ في اعتبارنا قبل كل شيء الواقع النفسي المصاحب ، الذي لا يمكن أن يفسر أي تعليل مرضي . . . فإذا نظرنا إلى حالة النبي ﷺ وجدنا أن الوجه وحده هو الذي يحتقن ، بينما يتمتع الرجل بحالة عادية ، وبحرّية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية ، بحيث يستخدم ذاكرته استخداماً كاملاً خلال الأزمة نفسها على حين يمحي وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة ، فالحالة ـ إذن ـ ليست حالة تشنج .

هذا التلازم الملحوظ بين ظاهرة نفسية في أساسها ، وحالة معينة ، هو الطابع الخارجي المميّز للوحي »[1] .

وهكذا كان لظاهرة الوحي عند بعض المستشرقين تفسيرات خاطئة ، أملاها حقد ودجل وافتراء ، فقد كان الوحي على حد زعمهم أثراً لنوبات الصرع التي تعتري الرسول الأعظم ﷺ فكان يغيب عن صوابه ،ويسيل منه العرق ، وتعتريه التشنجات ، وتخرج من فيه الرغوة ، فإذا أفاق من نبوته ذكر أنه أوحي إليه ، وتلا على المؤمنين به ما يزعم أنه وحي من ربه[2] .

ومع ما في هذا الزعم من الكذب المضحك ، والغض المتعمد من منزلة النبي الرسالية ، فالطريف أن ينبري له المستشرقون أنفسهم ، ولا سيما هنري لامنس ، وفون هامر ، وأمثالهما للرد عليه ، إلا أن في طليعة هؤلاء جميعاً السير وليم موير (١٨١٩/ ١٩٠٥م)[3] .

لقد فنّد هذا الباحث المحايد في كتابه (حياة محمد) مزاعم الجهلة الحاقدين ، وعقب على ظاهرة الوحي في أعراضها الخارجية بقوله : « وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو الخاطىء من الناحية العلمية أفحش الخطا ، فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها ، بل هو ينسى هذه الفترة في حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً ، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حلّ به خلالها ، لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل . هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم ، ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربي أثناء الوحي ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة في

---

(١) مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ١٨٢ .

(٢) ينظر : بكري شيخ أمين ، التعبير الفني في القرآن ، ١٨ .

(٣) Sir William Muir. Life of Mohamet, p. (14-29)

تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به ، يذكر بدقة ـ غاية الدقة ـ ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه ، ثم نزول الوحي لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الحسية مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه ، بل كثيراً ما يحدث والنبي في تمام يقظته العادية[1] .

فالنبي ﷺ يستقبل ما كان يرسل إليه بوساطة الملك المؤتمن ، ويتم ذلك في حالة إدراك متماسكة ، يسيطر فيها الوعي والشعور والإحساس كما لو كان أمراً عادياً في يقظة حقيقية قبل الوحي ، وأثناء الوحي ، وبعد الوحي ، فالوحي منفصل عن النبي ﷺ في شخصيته المستقلة ، وإنه مؤتمن على الرسالة ، وقد أداها متكاملة غيرمنقوصة بنص القرآن الكريم : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣].

ثالثاً : ومن الافتراضات الأخرى على ظاهرة الوحي الإلهي : فقد تطرف بعض الباحثين الكهنوتيين فادعى بأن الوحي : « هو حلول روح الله في روح الكتّاب الملهمين لإطلاعهم على الحقائق الروحية والأخبار الغيبية ، من غير أن يفقد هؤلاء الكتّاب بالوحي شيئاً من شخصياتهم ، فلكل منهم نمطه في التأليف ، وأسلوبه في التعبير »[2] .

وهذا التعبير عن الوحي بهذا الفهم ، يختلف جذرياً عن المفهوم القرآني للوحي ، ويضفي مناخاً باطنياً في الحلول والاتحاد ، يدفعه الإسلام ، وهو سبيل مختصر إلى تقمص الصفاء الروحي وادعائه من قبل من لم يحصل عليه ، وفيه استهواء للدجل الاجتماعي عند الكهنة والكذبة ، وبعد هذا :

فهو مغاير لمفهوم الوحي وطريقته اللذين خاطب الله بهما رسله ، وعلمهم من خلالهما ، مع استقلال في شخصية الوحي ، بعيدة عن مراتب الفراسة والتجانس الروحي ، واستقلال في المتلقي بعيد عن الاستنتاج الذاتي ، أو التعبير المطلق بكل صوره .

فعملية الوحي الإلهي كما قلنا إنما تخضع لتصور حوار علوي بين ذاتين : ذات متكلمة آمرة مُعطية ، وذات مخاطبة مأمورة متلقية ، ولم تتشاكل في مظهر من مظاهر الوحي وظاهرته ، الذات المتكلمة ، والذات المخاطبة ، في قالب واحد ، ولم يتحدا

---

(١) بكري شيخ أمين ، التعبير الفني في القرآن ، ١٩ .

(٢) جورج بوست ، قاموس الكتاب المقدس ، وينظر : صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ٢٥ .

في صورة واحدة على الإطلاق فهما متغايران . وهكذا فإن هذا الافتراض يغاير الواقع المشهود ، إذ لم يؤيده نص استقرائي واحد في حياة محمد ﷺ ، ويبقى الوحي وحياً رغم كل هذه الأراجيف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] ويبقى القرآن قرآناً مقترناً بظاهرة الوحي الإلهي .

الفصل الثالث

نزول القرآن وأسرار تنجيمه

أولاً ـ الوحي والتنزيل

ثانياً ـ مدة نزول القرآن ، وزمن النزول ، والنزول التدريجي والجملي

ثالثاً ـ أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه

رابعاً ـ أسرار تنجيم القرآن الكريم

الفصل الثالث

نزول القرآن وأسرار تنجيمه

أولاً ـ الوحي والتنزيل:

نزل القرآن بأرقى صور الوحي ، وتاريخ نزوله يمثل تاريخ القرآن في حياة النبي ﷺ ، وهو تاريخ يستغرق ثلاثة وعشرين عاماً.

هذه الحقبة الذهبية هي تاريخ الرسالة المحمدية في عصر صاحب الرسالة ، والعناية بها منبثقة عن عناية الوحي بصاحبها ، وبتواجده معه ، يحمّله العبء حيناً ، ويلقي له بالمسؤولية حيناً آخر ، ويتناوب عليه بآيات الله بين هذا وذاك.

وقد عبّر القرآن الكريم عن كونه وحياً إلهياً ، إما بمادة (الوحي) ذاتها ، أو بمادة (النزول) وما يتصل بها ويشتق منها ، وغالباً ما يأتي التعبير بالوحي في سياق الحديث عن نزول القرآن على النبي ﷺ ، أو مخاطبته به ، أو وصوله إليه ، أو ـ باختصار ـ في سياق العلاقة بين النبي والقرآن على وجه العموم . وغالباً ما يأتي التعبير عن القرآن الكريم بالنزول في سياق الحديث عن القرآن بوصفه حقيقة موضوعية (أنزله) الذي يعلم السر في السماوات والأرض ، أو لبيان أطراف التنزيل : الموحي به سبحانه ، وأمين الوحي النازل بالقرآن : جبريل عليه السلام ، ومحمد ﷺ الذي (نزل) عليه القرآن.

وقد جاء التعبير بهذه المادة ـ النزول ـ وما تصرف منها تنويهاً بشرف القرآن ، وعلو مكانته ومقامه ، مصداقاً لقوله تعالى في فاتحة سورة الزخرف : ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف : ١ـ٤].

وقد فرّق الراغب الأصفهاني(ت ٥٠٢هـ) بين الإنزال والتنزيل فقال : والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة ، أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير

إليه إنزاله مفرقاً ، ومرة بعد أخرى ، والإنزال عام ، ثم استشهد بكثير من الآيات منها قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان : ٣] ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١].

والذي نحب أن نؤكد عليه هنا هو أن الذي نزل به جبريل عليه السلام هو القرآن الكريم باعتبار أنه الألفاظ المعجزة أو الكلام العربي المعجز من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس . وإنه كلام الله تعالى وحده ، لا دخل لجبريل ولا لمحمد ، عليه السلام ، في إنشائه وترتيبه . فمهمة جبريل عليه السلام الحكاية للرسول والإيحاء إليه ، وليس للنبي ﷺ في هذا القرآن سوى وعيه وحفظه ، ثم حكايته وتبليغه ، ثم بيانه وتفسيره والعمل بمقتضاه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ﴾ [الأعراف : ٢٠٣].

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : ١٥] ، وإذا كانت هذه النصوص في شأن إيحاء المعاني ، فإن الآيات التالية دالة على أن الوحي كان باللفظ أيضاً قال تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ٦] وقال تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦ـ١٩] ، وقال سبحانه : ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : ٤].

والإقراء ، وتحريك اللسان ، والترتيل . . . إنما هي من عوارض الألفاظ لا المعاني كما هو معلوم.

وقد قال بعض العلماء في تفسير الآيات السابقة من سورة القيامة : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ إن سبب نزولها أن الرسول كان إذا نزل القرآن عجّل بتحريك لسانه به ، أي بقراءته ، حباً له ، أو حتى يحفظه ولا ينساه ، فنهاه الله عزّ وجل ، عن ذلك وأمره بالاستماع إلى جبريل ، وطمأنه بأن عليه ، سبحانه ، جمعه له في صدره حتى يحفظه ، وقراءته عليه حتى يعيه ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾ أي قرأه الملك علينا بأمره ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أي اتبع قراءته بقراءتك . « فكان رَسُول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل

استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأ »[1].

أما إضافته تعالى القرآن إلى النبي ﷺ أو إلى جبريل ، فلبيان أنه ليس بسحر كما زعم بعضهم ، ولكنه كلام (رسول) مرسل به من رب العالمين ، أو كلام مرسل رسول كريم ، على مجاز الحذف ، قال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة : ٣٨ـ٤٣] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير : ١٩].

ثانياً ـ مدة نزول القرآن ، وزمن النزول ، والنزول التدريجي والجملي:

١ـ هنالك عدة أقوال في مدة نزول القرآن ، فقيل : عشرون ، أو ثلاث وعشرون ، أو خمس وعشرون سنة ، وهو مبني على الخلاف في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد النبوة ، فقيل : عشر سنوات ، وقيل : ثلاث عشرة ، وقيل : خمس عشرة سنة . ولم يختلف في مدة إقامته بالمدينة أنها عشر[2].

فإذا علمنا أنه ﷺ أوحي إليه وهو ابن أربعين سنة ، وتوفي وعمره ثلاث وستون سنة ، ترجح أن تكون مدة الوحي ثلاثة وعشرين عاماً.

وقد تتابع نزول القرآن خلال هذه المدة الطويلة ، ونزوله كان منجماً : الآية والآيتين والثلاث والأربع ، وورد نزول الآيات خمساً وعشراً وأكثر من ذلك وأقل ، كما صح نزول سورة كاملة[3].

٢ـ ونزل القرآن في شهر رمضان المبارك : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة : ١٨٥] وفي ليلة مباركة فيه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان : ٣] وحُملت الليلة المباركة على ليلة القدر : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر : ١] هكذا صرح القرآن.

واختلف في هذا الإنزال كلاً أو جزءاً ، جملة أو نجوماً ، دفعةً أو دفعات ، إلى

---

(١) البخاري ، الجامع الصحيح ١٠/ ٤ قال ابن عباس رضي الله عنه : كان رَسُول الله ﷺ يحرك شفتيه إذا أنزل عليه القرآن يخشى أن يتفلّت منه ، فقيل له : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه﴾ أن نجمعه في صدرك ﴿وقرآنه﴾ أي تقرأه . . . الحديث : البخاري ، ٦/ ٧٦ .

(٢) ينظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ١/ ٢٣٢ .

(٣) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ١/ ١٢٤ وما بعدها .

السماء الدنيا تارةً ، وعلى قلب النبي تارةً أخرى[1].

وأورد الطبري جملة من الأقوال في ذلك:

أ ـ أن الله أنزل جميع القرآن في ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، ثم أنزل على النبي ﷺ بعد ذلك نجوماً ، وهو رأي ابن عباس.

ب ـ أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة ، وبه قال الشعبي[2].

جـ ـ أنه كان ينزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ما يحتاج إليه في تلك السنة جملة واحدة ، ثم ينزل على مواقع النجوم إرسالاً في الشهور والأيام ، وهو رأي ابن عباس[3].

إلا أن ظاهر الآيات : أنزل القرآن جملة ، ويؤيده التعبير بالإنزال الظاهر في اعتبار الدفعة ، دون التنزيل الظاهر في التدرج ، فمدلول الآيات أن للقرآن نزولاً جملياً على النبي ﷺ غير نزوله التدريجي الذي تم في ثلاث وعشرين سنة.

ومهما يكن من أمر ، فلا ريب بنزوله مفرقاً ومنجماً ، ليثبت إعجازه في كل اللحظات ، ولينصح بتعليماته بشتى الظروف ، في حين يعترض فيه الكفرة على هذا النزول : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢].

ولكن الرد كان حاسماً ، لأن الوحي إذا تجدد في كل حادثة ، كان أقوى للعزم ، وأثبت للفؤاد ، وأدعى للحفظ والاستظهار ، وأشد عناية بالمرسل إليه فلا يغيب عنه إلا ويهبط عليه ، ولا يودعه حتى يستقبله ، وذلك يستلزم كثرة نزول الملك عليه وتجديد العهد به ، وبما معه من الرسالة ، وهو مضاف إلى العطاء الروحي ، ذو عطاء نفسي تهذيبي بالنسبة إلى النبي ﷺ « ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام فيه »[4].

---

(١) ينظر : تفصيل هذه الآراء والروايات الكثيفة عند : أبو شامة ، المرشد الوجيز ، ١١ وما بعدها والزركشي ، البرهان ، ١/ ٢٣٠ وما بعدها والسيوطي ، الإتقان ، ١/ ١١٨ والبيهقي « الأسماء والصفات » ، ٢٣٦ .

(٢) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ١/ ١١٨ .

(٣) ينظر : الطبرسي ، مجمع البيان ، ١/ ٢٧٦ .

(٤) أبو شامة ، المرشد الوجيز ، ٢٨ .

وناهيك في أسرار تعدد النزول حكمةً ويقيناً واستمراراً لجدة القرآن ، وحضوره في زحمة الأحداث ، وتجدد الوقائع ، وطبيعة الرسالة المتدرجة في تعاليمها من الأسهل إلى السهل ، ومن السهل إلى الصعب أو من الكليات العامة إلى التفصيلات الجزئية .

والوحي ينظر إلى الناس باعتبارهم الهدف الرئيسي من تنزيل القرآن ، قصد هدايتهم ، ورجاء إثابتهم إلى الحق ، فاهتم بهذا العنصر في سبب النزول مفرقاً ، وصرح بذلك سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦].

ثالثاً ـ أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه:

١ ـ يكاد أن يتوافر لنا اقتناع نطمئن إليه بأن أول ما نزل من القرآن هو أوائل سورة العلق ، ومنشأ هذا الاقتناع تاريخي وعقلي . **أما التاريخي** : فمصدره إجماع المفسرين تقريباً ، ورواة الأثر ، وأساطير علوم القرآن[1] .

وأما العقلي : فالقرآن أنزل على أمي لا عهد له بالقراءة ، ليبلغه إلى أميين لاعهد لهم بالتعلم ، فكان أول طوق يجب أن يكسر ، وأول حاجز يجب أن يتجاوز ، هو الجمود الفكري ، والتقوقع على الأوهام ، وما سبيل ذلك إلا الافتتاح بما يتناسب مع هذه الثورة ، وقد كان ذلك بداية للرسالات بهذه الآيات : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ـ٥] .

إنها الدعوة الفطرية إلى العلم والإيمان بوقت واحد ، والبداية الطبيعية لملهم هذا العلم ، ورائد وسيلة التعلم ، فهو إرهاص بإيمان سيشيع ، وإشعار بإفاضات ستنشر ، مصدرها الخالق ، وأداتها القلم ، لارتياد المجهول ، واكتشاف المكنون ، والقرآن كتاب هداية وعلم .

وأما ما حكاه ابن النقيب في مقدمة تفسيره ، وأخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن ، والضحاك عن ابن عباس : من أن أول ما نزل من القرآن ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[2] فلا ريب فيه ، ولا غبار عليه فإنه من ضرورة نزول السورة نزول

---

(١) ينظر : البخاري ، الجامع الصحيح ، ١/ ٥ والباقلاني ، نكت الانتصار ، ٨٨ والطبرسي ، مجمع البيان ، ٥/ ٥١٤ والزركشي ، البرهان ، ١/ ٢٠٦ ، والسيوطي ، الإتقان ، ١/ ٦٨ ، وما بعدها .

(٢) السيوطي ، الإتقان ، ١/ ٧١ .

البسملة معها ، فهي أول آية نزلت على الإطلاق[1] .

وبدأت مسيرة الوحي تلقي بثقلها على الرسول الأعظم ﷺ وفتح محمد للنداء السماوي : ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : ٤] ذراعاً وقلباً وتاريخاً . وهذا القول ثقيل بمبناه ومعناه ، فهبوطه من سماء العزة ، وساحة الكبرياء والعظمة يوحي بثقله في الميزان ، وتسيير للحياة العامة بشؤونها المتعددة يوحي بكونه عبئاً ثقيلاً في التشريع والتنفيذ وإدارة الكون والعالم .

٢ـ أما آخر ما نزل من القرآن ، فهو قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٨١] كما نقل ذلك عن ابن عباس ، وفي رواية للبخاري عن ابن عباس أيضاً أن آخر آية نزلت قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨] .

وعن سعيد بن المسيب : إنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدّين وهو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ ـ إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وهي أطول آية في القرآن ، وقال السيوطي (ت٩١١هـ) : إن هذه الآراء الثلاثة يمكن الجمع بينها ، لأن هذه الآية نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصاحف ، لأنها في قصة واحدة ، فأخبر كل عن بعض ما نزل ، وإن كان من الراجح إن آخر ما نزل بإطلاق هو قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨١] لأن بعض الروايات تنص على أن النبي ﷺ توفي بعد نزول هذه الآية بتسع ليال فقط[2] .

على أن الزركشي في البرهان عدد بضع روايات في آخر ما نزل ، كما بلغ بها بعضهم إلى عشرة أقوال ، ليس من بينها كلها آية سورة المائدة التي اشتهرت عند بعضهم ، أخذاً من موضوعها ، وهي قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] وذلك لأن هذه الآية نزلت في يوم عرفة من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة ، وقد عاش النبي ﷺ بعدها واحداً وثمانين يوماً ، في حين لم يكن بين وفاته ﷺ وبين نزول آية : ﴿ واتقوا يوماً . . . ﴾ سوى تسع ليال فقط ! .

---

(١) المصدر نفسه والصفحة .

(٢) ينظر : الزركشي ، البرهان ، ١/٢٠٩ ـ ٢١٠ .

واكمال الدين في الآية المذكورة يراد منه ـ كما قال بعض المفسرين ـ إقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه ، حتى حجّه المسلمون لا يخالطهم المشركون ، يؤيد هذا ما روي عن ابن عباس قال : كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً ، فلما نزلت سورة براءة ، نفي المشركون عن البيت ، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك تمام النعمة والله تعالى أعلم .

رابعاً : أسرار تنجيم القرآن الكريم :

لتنجيم القرآن ـ أي لنزوله مفرقاً على دفعات ، وفي هذه المدة الطويلة التي أشرنا إليها ـ فوائد وحكم كثيرة ، بعضها يتصل بشخص النبي ﷺ ، وبعضها الآخر يتصل بالمجتمع الإسلامي الوليد الذي كانت تنزل عليه الآيات . . . وبعض هذه الحكم يتصل بالنص القرآني نفسه ، ونجمل هنا القول في هذه الحكم أو الأسرار بما يلي :

١ ـ **تثبيت فؤاد النبي ﷺ** ، وإمداده بأسباب القوة والمجابة أمام حملات المشركين ودسائس المنافقين ، فتجديد الوحي يوماً بعد يوم ، وحالاً بعد حال يمثل نوعاً من أنواع الرعاية الإلهية التي تمده بأسباب الثبات والمضي فيما اختاره الله له ، ولهذا فإن المشركين عندما اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، كما هي الحال في الكتب السابقة ، رد عليهم سبحانه بما في هذا التنجيم من حكمة فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٢ـ٣٣] .

كم هي الشدائد التي عرضت للرسول الكريم ، والتي حملتها الأيام المتلاحقة في أوضاع ومناسبات شتى . . والوحي الإلهي يهوّن من تلك الشدائد ، ويرسم لها أجلاً وقدراً مقدوراً : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : ١٣] وقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر : ٤٥] وقوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] وقوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾ [الطور : ٤٨] وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ ﴾ [فاطر : ٨] .

الآيات التي تعزّي الرسول الكريم والتي تأمره بالصبر والمصابرة كثيرة في كتاب الله ، ولكن يبقى مبدأ تجديد اتصال الوحي به ، ومتابعة نزوله ، يحمل معنى تثبيت فؤاده بإطلاق ، كما أشارت إلى ذلك الآية السابقة في سورة الفرقان .

وتحمل الآية الثانية السابقة : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ . . . ﴾ الإشارة إلى أن من أهم

صور هذا التثبيت : الرد على مزاعم المشركين وشبههم واعتراضاتهم ، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ . . .﴾ أي بحجة ولا شبهة ، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي : ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين ، وأوضح وأفصح من مقالتهم.

وقال ابن عباس في تفسير ﴿المثل﴾ ما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي : إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم ، قال : « وما هذا إلا اعتناء كبير وشرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله ، عز وجل ، بالقرآن صباحاً ومساءً ، وليلاً ونهاراً ، وسفراً وحضراً »[1].

٢ـ تسهيل حفظه على الرسول والمؤمنين :

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ، سجلُّها ذاكرة حافظة ، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدون ، ثم تحفظ وتفهم ، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة : ٢] وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف : ١٥٧].

فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة ، وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته ، فكان نزوله مفرقاً خير عون لها على حفظه في صدورها وفهم آياته ، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة ، وتدبروا معانيها ، ووقفوا عند أحكامها.

وروي عن ابن مسعود أنه قال : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهنَّ »[2].

٣ـ مسايرة الحوادث والتدرج في التشريع :

من الأمور المهمة في هذا النزول التدريجي ، هو إحكام الأمر ، وإبرام العقد ، وهذا الإحكام وذلك الإبرام يتمثل بعملية صياغة النفوس في إطار جديد ، فهي على قرب عهد من الجاهلية بأعرافها ومفاهيمها وأخطائها ، والنقلة الفورية ليست خطوة

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٣/ ٣١٧ .

(٢) الحاكم النيسابوري ، المستدرك على الصحيحين في الحديث ، ١/ ٥٥٧ .

عملية في التغيير الاجتماعي الذي أرادته رسالة القرآن ، فمن عزم الأمور ـ إذن ـ أن تستجيب النفوس لهذا التغيير الجذري ، ولكن لا على أساس المفاجأة الخطرة ، التي قد تولد ردة فعل مضادة ، تطوح بكل شيء ، بل تقليص القيم القديمة شيئاً فشيئاً ، وتصنييعها جزءاً فجزءاً ، لتتلاشى في نهاية المطاف وتختفي عن صرح الاجتماع ، وخير دليل على ذلك مسألة تحريم الخمرة ، إذ ارتبطت بالعرب أدبياً واجتماعياً ونفسياً واقتصادياً ، وهي جوانب متعددة ، أباحت هذا الإدمان المستحكم عند العرب ، فلو حرمت دفعة واحدة ، لكفر بهذا التحريم ، ولضاعت فرصة التغيير الاجتماعي ، ولكن الوحي تلبث وترصد وتأنى ، فجاء بالأمر في خطوات متعاقبة شملت بيان المنافع والمضار والمآثم ، وتدرجت إلى النهي عن اقتراب الصلاة وأنتم سكارى وانتهت إلى التحريم النهائي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة : ٩٠][1] .

٤ـ ومن حِكَمْ هذا التنجيم ، بصورة عامة ، رسم صورة المجتمع الآخر ، أو الفئات الثانية من منافقين ومشركين ، وفضح أساليبهم ونواياهم ، ومفاجئتهم بحقيقة ما يقولون ويبينون ويمكرون ، قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ٦٤] .

٥ـ وثمة حكمة أخرى تتعلق بالموضوع ، فحينما اشتد الأذى بالمسلمين ، كانت قصص الغابرين إيذاناً بحرب نفسية ، فما هم عنها ببعيد ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾ [النجم : ٥٠ـ٥١] وكانت أحاديث الأنبياء مع أممهم ، واستقراء أحوالهم في العذاب ، نذيراً بما قد يصيب العرب نتيجة التكذيب ، والأمور تقاس بأضرابها ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : ١٨ـ٢٠] وهكذا الحال في كل من قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ [القمر : ٢٣] ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴾ [القمر : ٣٣] ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر : ٤١] .

وهذه مؤشرات إنذارية في آيات من سورة واحدة ، فكيف بك في السور المكية كافة .

وقد ذكرت قريش بعذاب الاستئصال في الفترة المكية ، وكان ذلك مجالاً رحباً من مجالات الوحي في هذه الحقبة العصبية ، فتاب من تاب إلى رشد ، وتجبر من تجبر في ضلال ، وأمثلة عددية متوافرة ، ومن نماذجه قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا

---

(١) د. عدنان محمد زرزور ، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ٨٩ .

مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة : ٢٦] .

وهكذا الإشارة إلى مجموعة الأمم المكذبة ، وقد مُزِّقوا كل ممزق كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۖ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٤] وما قصة نوح مع قومه ، وموسى مع آل فرعون ، وصالح وشعيب وهود إلا مؤشرات فيما سبق .

٦ـ **وأخيراً** ، هنالك ملحظ جدير بلأهمية في الوحي التدريجي ، يعود إلى التنزيل نفسه ، ليحكم فيه على ناحيتين :

أـ اعجازه واثبات مصدره :

لم يكن هذا القرآن من كلام البشر ، وإنما هو من كلام الله وحده ، وذلك أن هذه المراحل التي مرّ فيها ، لم يحصل فيها تفاوت في الاسلوب البياني ، فهو في الأول نفسه في الوسط والآخر ، متسق اتساقاً معجزاً ، منسق الآيات والسور ، محكم السرد ، دقيق السبك ، قوي الاسلوب ، متين العبارة ، ومع كثرة الأحداث وتعدد المسئوليات في بيان الأحكام ، وتدارك النوازل ، واستيعاب المشكلات ، لم يبد فيه ـ ولو مرة واحدة ـ أي اختلاف وتناقض ، ولو كان من كلام البشر لحصل فيه التفاوت والتناقض معاً[1] ، وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

ب ـ إن قليل هذا التنزيل وكثيره ، هو الدليل المتعاقب ، مرة بعد مرة ، على نبوة محمد ﷺ لأن مراعاة المناسبة ، والعقل في الأمر الجلل ، والتحدث عن الغيب المطلق ، كل ذلك بتحديد قاطع ، وحجة لا تقبل جدلاً ، لا يمكن أن يكون إلا من قبل الله تعالى ، لأن النبي أمي يفقد أدنى ما يمكن أن يتمتع به غيره من الناس الاعتياديين في القراءة والكتابة ، فكيف إذن بمسائل التشريع ، وأخبار الغيب ، وقضايا الساعة ، ومختلف الأحكام ، ولم يسبق له أن مارس قبل بعثته أي نوع من أنواع الثقافة والمعرفة ، التي تتناسب مع هذا العطاء المتواصل من الوحي ، وفي هذه القضية الخارجة عن مقدرة النبي ﷺ تأكيد لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ـ٤٧] .

---

(١) د. عدنان محمد زرزور ، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ١٠٢ .

الفصل الرابع

جمع القرآن وتدوينه

أولاً ـ جمع القرآن وترتيبه في عهد النبي ﷺ

أ ـ ترتيب القرآن في عهد النبي ﷺ

ب ـ جمع القرآن وكتابته في عهد النبي ﷺ

ثانياً ـ جمع القرآن في عهد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه

ثالثاً ـ نسخ المصاحف في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه

رابعاً ـ قاعدة عثمان في الجمع ومزايا المصاحف العثمانية

الفصل الرابع

جمع القرآن وتدوينه

لا حاجة بنا إلى القول بأن القرآن الكريم قد وصل إلينا كما نزل ، وقد حفظ بين الدفتين كما أوحي ، فالحديث عن سلامة القرآن وصيانته من البديهيات ، والاعتقاد بخلوه من الزيادة والنقصان من الضروريات .

والقرآن في منأى عن التحريف في نصوصه وآياته ، إذ لم يضف إليها ما ليس منها ، ولم يحذف ما هو منها ، فالموجود بين أيدينا هو النص القرآني الكامل في ضوء ما أسلفناه من وحي القرآن ، ونزول القرآن . وكل الدلائل التاريخية لجمع القرآن التي سنتحدث عنها في هذا الفصل ، وقراءات القرآن ، وشكل القرآن ، تثبت جميعاً على ضبطه كما أنزل ، زيادة على العناية الإلهية التي رافقت هذه العوامل وصاحبت هذا النص .

إن الدلائل العلمية تؤكد حقيقة صيانة القرآن كياناً متماسكاً مستقلاً لم تصل إليه يد التحريف ، ولم تستهدفه نبال العوادي ، وليس هذا أمراً اعتباطياً تحكمت فيه الظروف أو الصدف ، بل هو أمر حيوي قصدت إليه إرادة الغيب بإشاءة الله تعالى ، وتأسيساً على ذلك فلا يغير القرآن غرض طارىء ، ولا عدوان مباغت .

وحديثاً في هذا الفصل سيتركز على الموضوعات الآتية :

١ـ جمع القرآن وترتيبه في زمن النبي ﷺ .

٢ـ جمعه في مصحف واحد أيام الخليفة أبي بكر رضي الله عنه .

٣ـ نسخ المصاحف وتوحيدها على لهجة واحدة على عهد الخليفة عثمان ، رضي الله عنه .

أولاً - جمع القرآن وترتيبه في عهد النبي :

أ - ترتيب القرآن في عهد النبي ﷺ :

استغرق نزول القرآن الكريم بين عشرين وثلاثة وعشرين عاماً ، هي جملة العمر الذي تكامل فيه هذا الكتاب العظيم نزولاً وترتيباً بين سوره وآياته . روى البخاري عن عائشة وابن عباس ، رضي الله عنهما ، أنهما قالا : « لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن وبالمدينة عشراً ».

فكيف تم ترتيبه وتنسيقه بهذا الشكل ، وهل كان ثمة من يكتب كل ما ينزل عنه في عهده ﷺ ؟.

أما الترتيب والتنسيق فإن الأحاديث الواردة في هذا الشأن تتفق على أن ترتيب الآيات إلى جانب بعضها ، حسبما عليه المصحف الآن ، إنما هو ترتيب توقيفي لم يجتهد فيه رَسُول الله ﷺ ، ولا أحد من الصحابة في عهده ، أو من بعده ، وإنما كان يتلقى ترتيبها إلى جانب بعضها وحياً من عند الله تعالى بوساطة جبريل عليه السلام.

روى أحمد بإسناده عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت جالساً عند رَسُول الله ﷺ إذ شخّص ببصره ثم صوبه ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل : ٩٠] ».

وروى القرطبي بسنده عن ابن عباس قال : « آخر ما نزل من القرآن ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٨١] فقال جبريل : « يا محمد ضعها في رأس ثمانين ومئتين من البقرة ».

وبناءً على هذه الأحاديث وأمثالها تم إجماع العلماء والمؤرخين والباحثين ، على أن ترتيب آيات القرآن عمل توقيفي من قبل الله عز وجل.

وما يقال عن ترتيب الآيات ، هو الذي يقال أيضاً عن ترتيب السور ، ووضع البسملة في الأوائل.

وروى القرطبي عن ابن وهب قال : سمعت سليمان بن بلال يقول : سمعت ربيعة يسأل : لِمَ قُدِّمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ، وإنما نزلتا في المدينة ؟ فقال ربيعة : قُدِّمَتا وأُلِّف القرآن على علم ممن أَلَّفَهُ ».

وبهذا يتضح أن أصح الأقوال والروايات تثبت أن ترتيب الآيات ضمن السورة

الواحدة ، وترتيب السور في المصحف توقيفي من الله جل جلاله.

ب ـ جمع القرآن وكتابته في عهد النبي ﷺ :

جمع القرآن الكريم في عهدين : عهد النبوة ، وعهد الخلفاء الراشدين ، وقد كان لكل جمع خصائصه ومزاياه.

وكلمة (جمع) تطلق أحياناً ويراد منها (الحفظ والاستظهار) في صدور الرجال ، وتطلق تارة ويراد منها (الكتابة والتدوين ، والجمع في مصحف واحد) . وقد كان لجمع القرآن في عصر النبوة المعنيان معاً :

الأول ـ الجمع في الصدور ، عن طريق الحفظ والاستظهار.

الثاني ـ الجمع في السطور ، عن طريق الكتابة والنقش.

وسنتحدث عن كلا الجمعين بشيء من التفصيل ، ليتبين لنا مدى العناية الفائقة بالقرآن العظيم وكتابته وتدوينه.

أ ـ الحفظ والجمع في الصدور : :

١ ـ كان سيد الحفاظ وأولهم الرسول ﷺ الذي فرّق الله عليه القرآن ليقرأه على الناس (على مُكث) والذي تكفل له بحفظه وجمعه في صدره ، فقال تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦ـ١٧] وقد كان سبيل حفظه ممهداً أمام النبي ﷺ وأمام الصحابة كذلك ، واعتمادهم في الأصل إنما هو على الذاكرة دون الكتابة ، بوصفهم أمة أمية لهم كل خصائص الفطرة النقية ، والذكاء الأصيل ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢].

هذا إلى جانب ما عرف عنهم ـ في الصحراء ـ من صفاء الذهن وجودة القريحة ، وكان العربي وقتذاك يحفظ الآلاف من الأشعار ، ويعرف الأحساب والأنساب ، فيستظهرها عن ظهر قلب ، ويعرف التواريخ ، وقلّ أن نجد فيهم من لا يَعُدُّ لك الحسب والنسب ، أو من لا يحفظ المعلقات ، والأخبار ، والروايات.

ثم جاء القرآن فبهرهم بقوة بيانه ، وروعة أحكامه ، وجلال سلطانه ، فأخذ عليهم مشاعرهم ، واستحوذ على عقولهم وأفكارهم ، حتى صرف هممهم إلى الكتاب المجيد ، يحفظونه ويستظهرونه ، وتركوا الشعر لأنهم وجدوا في القرآن روح الحياة ، وروعة الأدب ، وقمة البلاغة.

أما النبي ﷺ فقد بلغ من حرصه الشديد على حفظ القرآن أنه كان يسابق الوحي في تلاوته ، لئلا يفوته منه شيء ، وأنه كان يحيي الليل بتلاوة آياته في الصلاة ، عبادةً وتلاوةً وتدبراً لمعانيه ، حتى تفطرت قدماه من كثرة القيام امتثالاً لأمر الله العلي الكبير ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : ١ـ٤] ، لذلك فلا عجب أن يكون الرسول ﷺ سيد الحفاظ ، وأن يجمع القرآن في قلبه ، ويكون مرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن الكريم .

ومما يزيد الطمأنينة في التكفل الإلهي للرسول ﷺ بحفظ القرآن وجمعه في صدره حتى لا يضيع منه شيء ، وذلك بأن يقرأه النبي على جبريل في كل عام مرة .

أخرج البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون في شهر رمضان ، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رَسُول الله ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة »[1] .

وأخرج البخاري أيضاً من حديث أبي هريرة قال : « كان جبريل يعرض على النبي القرآن كل عام مرة ، فعرض عليه مرتين في العام الذي قُبِضَ ، وكان يعتكف كل عام عشراً ، فاعتكف عشرين في العام الذي قُبضَ »[2] .

٢ـ ثم يأتي دور الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا يتسابقون في حفظ القرآن واستظهاره ومدارسته ، يهجرون من أجل تلاوته في الأسحار نومهم وراحتهم ، حتى ليمر الشخص ببيوت الصحابة في غسق الدجى يسمع فيه دوياً كدوي النحل بالقرآن ، فكان شغفهم بالقرآن عظيماً جداً .

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رَسُول الله ﷺ : « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن ، حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار » . وأقل ما يقال في هذا الشغف الهائل أنه ـ فيما وراء التلقي للفهم والعمل والتطبيق ـ من أجل قراءة القرآن في النوافل والفرائض ، والتقرب إلى الله تعالى بتلاوته ، إلى جانب أن النبي ﷺ كان يحثهم على العناية بالتنزيل ، ويبعث إلى من كان منهم بعيداً من يقرئهم

---

(١) البخاري ، الجامع الصحيح ، ٦/ ١٠١ـ١٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٦/ ١٠٢ .

ويعلمهم ، كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته ، عليه السلام ، يعلمانهم الإسلام ويقرئانهم القرآن ، وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد الهجرة للتحفيظ والإقراء.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رَسُول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا » وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال لي رَسُول الله ﷺ : « اقرأ القرآن في شهر . قلت : إني أجد قوة . قال : فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك »[1].

وكانت النتيجة لكل هذا أن عدد الحفاظ من الصحابة كان كثيراً ، ويكفي أن نعلم أنه قتل منهم يوم بئر معونة ويوم اليمامة ، أربعون ومئة ، قال القرطبي : قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء ، وقتل في عهد رَسُول الله ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد.

غير أن الذين اشتهروا من الصحابة بحفظ القرآن : الخلفاء الأربعة ، وطلحة وسعد ، وحذيفة ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعمرو بن العاص ، وابن الزبير ، ومعاوية ، وعائشة ، وحفصة ، كما حفظه من الأنصار في حياة النبي ﷺ : أُبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأنس بن مالك ، وكثيرون غيرهم . ويمكن القول أن حفظهم للقرآن بهذه الأعداد الكبيرة يمثل لوناً من ألوان « التوثيق » إلى جانب أن بعضهم ربما قرأ أو عرض ما يحفظه على رَسُول الله ﷺ.

أخرج البخاري من حديث عبد الله بن مسعود ـ وقد جعله النبي ﷺ واحداً من أربعة أمر بأن يؤخذ عنهم القرآن[2] قال : قال لي النبي ﷺ : « اقرأ عليَّ ، قلت : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ قال : إني أحب ـ وفي رواية : أشتهي ـ أن أسمعه من غيري ، قال : فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] قال لي : كُفَّ أو أمسك . فالتفت

---

(١) البخاري ، الجامع الصحيح ، ٦/ ١١٤ ، وانظر فيه كذلك الرواية المطولة ، ص١١٣ ، وراجع : ابن الجزري ، جامع الأصول ، ٢/ ٤٧١ـ٤٧٢ .

(٢) البخاري ، الجامع الصحيح ، ٦/ ١٠٢ ، وفيه : « قال النبي ﷺ خذوا القرآن عن أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم : ومعاذ ، وأبيّ بن كعب ، وينظر : ابن الأثير الجزري ، جامع الأصول ، ٢/ ٥٠٧ .

إليه فإذا عيناه تذرفان ![1].

ب ـ الكتابة والتدوين :

إذا انتقلنا إلى الكتابة والتدوين ، نجد أن النبي ﷺ قد اتخذ كتّاباً للوحي ، أمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن ، منهم الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت ، وأُبيّ بن كعب ، وثابت بن قيس ، وغيرهم.

أما طريقة الكتابة فقد كانوا يكتبون فيما يسهل عليهم من العُسُب واللخاف والرِّقاع والأكتاف والأقتاب وقطع الأديم[2] ، وهذه الأدوات تُعَدّالبدائية في الكتابة ، فكان العرب يكتبون على ما يقع تحت أيديهم مما يصلح للكتابة.

روي عن زيد بن ثابت أنه قال : « كنا عند رَسُول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع »[3] وقال بعد أن أمر بجمع القرآن : « فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف وصدور الرجال »[4] . ودلالة التأليف ، تعني الجمع والتدوين ، وضم شيء إلى شيء ليصح أن يطلق عليه اسم التأليف.

ولا دليل على ادعاء الزركشي : بأن بعض القرآن جمع بحضرة النبي[5] . فَلِمَ لا يكون كل القرآن جمع في حضرةالنبي ﷺ علماً بأنه قد سبقه من صرح بجمع القرآن كله لا بعضه في عهد النبي ﷺ بما نصه : « إنه لم يكن يجمع القرآن كله إلا نفر يسير من أصحاب الرسول ﷺ »[6] .

ولا ريب ـ بعد هذا كله ـ أن هناك بعض المصاحف المتداولة عند بعض الصحابة في عهد الرسول ﷺ ، والأخبار مجمعة على صحة وجودها ، وعلى تعدد مصاحف

---

(١) البخاري ، الجامع الصحيح ، ٦/١١٣ ، ١١٤ .

(٢) العُسُب : بضم العين والسين ، جمع عسيب ، وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض ، واللخاف : بكسر اللام ، جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء ، وهو الحجر ، الأبيض الرقيق أو صفائح الحجارة ، والرقاع : جمع رقعة ، وقد تكون من جلد أو ورق أو غيرها . والأكتاف : جمع كتف ، وهو عظم البعير أو الشاة يكتبون عليه بعد جفافه . والأقتاب : جمع قتب ، بفتحتين ـ وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .

(٣) أبو شامة ، المرشد الوجيز ، ٤٤ .

(٤) البخاري ، الجامع الصحيح ، ٦/٩٨ .

(٥) ينظر : الزركشي ، البرهان ، ١/٢٣٧ .

(٦) مقدمتان في علوم القرآن ، ٢٥ .

الصحابة أيضاً ، إذ لو لم يكن الأمر هناك جمع بالمعنى المتبادر إليه ، لما كانت تلك المصاحف أصلاً ، إن وجودها نفسه هو دليل الجمع ، إذ لم يصدر منع من النبي عن جمعه ، بل هاك رواية عنه ﷺ تقول : « لا تكتبوا عني سوى القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه »[1].

وجمع هؤلاء الصحابة للقرآن هو الجمع الذي نقول به ، لا الحفظ ، وإلا فما معنى تسميتها ، بالمصاحف ؟ وما معنى اختلاف هذه المصاحف فيما تدعي الروايات ؟.

لقد أورد ابن أبي داود قائمة طويلة بأسماء مصاحف الصحابة ، وعقب عليها بما فيها من الاختلاف ، هذا الاختلاف الذي يعود في نظرنا إلى التأويل لا إلى التنزيل ، أو إلى عدم الضبط في أسوأ الاحتمالات ، وقد عقد لذلك باباً سماه « باب اختلاف مصاحف الصحابة »[2].

وقد عدد ابن أبي داود منها : مصحف عمر بن الخطاب ، مصحف علي بن أبي طالب ، مصحف أُبيّ بن كعب ، مصحف عبد الله بن مسعود ، مصحف عبد الله بن عباس ، مصحف عبد الله بن الزبير ، مصحف عبد الله بن عمرو بن العاص ، مصحف عائشة زوج النبي ﷺ مصحف حفصة زوج النبي ﷺ ، ومصحف أم سلمة زوج النبي ﷺ[3].

قال الآمدي (ت ٦١٧هـ) في كتابه (الأفكار والأبكار) : « إن المصاحف المشهورة في زمن الصحابة كانت مقروءة عليه ﷺ ومعروضة »[4].

فالآمدي يجيبنا على سؤال دقيق هو : متى كتبت هذه المصاحف ؟ ومتى جمعت ؟ وكيف أقرت ؟ والجواب أنها كتبت في عهد النبي ، وقرأت عليه ، بل هي معروضة عليه للضبط والدقة والإتقان.

ومن الروايات التي تنطق بوجود جمعي له ، وبقراءة القرآن كله وختمه ما يلي :

١ـ « عن عبد الله بن عمرو ، قال : قلت : يا رسول الله ، في كم أقرأ القرآن ؟ قال اختمه في شهر ، قلت إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : اختمه في عشرين ، قلت : إني

---

(١) الخطيب البغدادي ، تقييد العلم ، ٢٩ .
(٢) ابن أبي داود ، كتاب المصاحف ، ٥٠ـ٨٨ .
(٣) المصدر نفسه والصفحة .
(٤) الزنجاني ، تاريخ القرآن ، ٣٩ .

أطيق أفضل من ذلك ، قال : اختمه في خمس عشرة ، قلت : إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : اختمه في عشر ، قلت : إني أطيق أفضل من ذلك ، قال اختمه في خمس ، قلت إني أطيق أفضل من ذلك فما رخص لي »[1] .

وقد روي في ذلك غير هذا الحديث ، أن النبي قال له أول مرة ، اقرأ القرآن في أربعين[2] .

٢ـ وروي عنه ﷺ قوله : « لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث »[3] .

فأي قرآن يشير إليه النبي إن لم يكن مجموعاً ، ومتداولاً بما تتيسر قراءته عند المسلمين ؟ .

ثانياً ـ جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه:

بعد أن تولى الخليفة أبو بكر رضي الله عنه الخلافة ، واجهته أخطار جسيمة ، وشدائد عظيمة ، منها حروب الردة التي وقعت بين المسلمين وغيرهم من القبائل المرتدة ، وكان أعنفها تلك المعارك التي قامت بين المسلمين وأتباع مُسيْلمة الكذاب في معركة اليمامة المشهورة التي استشهد فيها من القراء ، وحفظة القرآن ما يزيد عن سبعين رجلاً . وقد هالَ ذلك المسلمين ، وعزّ الأمر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فدخل على أبي بكر فوجده في حزن وألم ، فأشار عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ ، فتردد أبو بكر أول مرة ، ثم رأى أن يأخذ بإشارة عمر بعد أن تبين له وجه المصلحة ، وشرح الله صدره لذلك العلم الجليل ، فأرسل إلى زيد بن ثابت وعرض عليه الأمر ، وطلب منه أن يقوم بجمع القرآن في مصحف واحد ، ولكن زيداً تردد في بادىء الأمر ، ثم شرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر .

وقد روى البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع :

عن زيد بن ثابت كاتب الوحي أنه قال : أرسل إليّ أبو بكر عند مقتل أهل اليمامة[4] فإذا عمر جالس ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ، ٢٧ـ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢٨ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

(٤) أي بعد مقتل من قتل في وقعة اليمامة ، وهي الموقعة التي دارت بين المسلمين والمرتدين ، والتي استشهد فيها من القرّاء سبعون رجلاً .

استحرّ[1] يوم اليمامة بقرّاء القرآن ، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقرّاء في كل المواطن ، فيذهب كثير من القراء ، وإني أرى أن تمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رَسُول الله ﷺ ، قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ، لا نتَّهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرَسُول الله ﷺ فتتبع القرآن واجمعه . فقال زيد : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي ممّا أمرني به من جمع القرآن ، فقلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رَسُول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة : ١٢٨] حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما »[2].

وقد روي أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : « اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه »[3].

وقال ابن حجر : وكأن المراد بالشاهدين : الحفظ والكتابة . وقال السخاوي : المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رَسُول الله ﷺ[4].

وبهذا فقد كان أبو بكر أول من جمع القرآن في مصحف ، وإن كانت مصاحف فردية عند بعض الصحابة كمصحف علي بن أبي طالب.

هذا الجمع العلني والإعلامي ، في مجتمع فضل وعلم ودين ، هو الذي قال فيه علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله »[5].

ويتلخص منهج الجمع ، كما رسم لزيد وأمر بتنفيذه في وجوب الاعتماد على

---

(١) بمعنى اشتد .
(٢) البخاري ، الجامع الصحيح ، ٦/٩٨ـ٩٩ .
(٣) السيوطي ، الإتقان ، ١/١٦٧ .
(٤) المصدر نفسه والصفحة .
(٥) أخرجه ابن أبي داود في « المصاحف » بإسناد حسن .

مصدرين : أولهما : ما كتب بين يدي النبي ﷺ ، وثانيهما : ما كان محفوظاً في صدور الرجال.

ونستطيع أن نلخص مزايا مصحف أبي بكر بالنقاط التالية :

١ـ التحري الدقيق التام ، والتثبت الكامل.

٢ـ لم يسجل في المصحف إلا ما ثبت عدم نسخ تلاوته.

٣ـ إجماع الأمة عليه ، وتواتر ما سجل فيه من الآيات القرآنية.

٤ـ طريقة كتابته اشتملت على الأحرف السبعة.

ولقد حفظ أبو بكر صحف القرآن عنده ، ثم آلت إلى سيدنا عمر رضي الله عنه من بعده وبقيت عنده حتى وفاته ، ثم انتقلت إلى ابنته حفصة زوجة الرسول ﷺ ، ولم توضع عند عثمان لأن عمر رضي الله عنه جعل أمر الخلافة شورى من بعده ، ولم يكن عثمان قد اختير للخلافة بعد ، ولذلك فمن الطبيعي ألا تسلم إليه الصحف . يضاف إلى ذلك أن حفصة ، رضوان الله عليها ، هي زوجة النبي ﷺ وأم المؤمنين ، وكانت متمكنة من القراءة والكتابة ، فضلاً عن حفظها للقرآن الكريم عن ظهر قلب ، فبقيت الصحف عندها إلى أن طلبها منها الخليفة عثمان بن عفان ، كما سنرى ذلك في الفقرة التالية.

أما تسمية القرآن « بالمصحف » :

فقد نشأت على عهد أبي بكر ، فقد روي أنه لما جمع زيد وعمر القرآن ، وكتباه على الورق ، قال أبو بكر : التمسوا له اسماً ، فقال بعضهم : « السِّفْر » قال : ذلك اسم تسميه اليهود ، فكرهوا ذلك . وقال بعضهم : « المصحف » فإن الحبشة يسمون مثله « المصحف » فاجتمع رأيهم على أن يسموه « المصحف »[1].

ثالثاً ـ نسخ المصاحف على عهد عثمان ـ رضي الله عنه :

كان الجمع الذي تم في عهد الصدّيق ، إذن ، جمعاً عاماً ، أو جمعاً « رسمياً » قام به الخليفة ، وشارك فيه جمهور الصحابة أو جماعة المسلمين : الحافظ بحفظه والكاتب بكتابته . إلاّ أن هذا الجمع لم يرد له أبو بكر ، رضي الله عنه ، أن يكون « قاضياً » على الصحف الخاصة التي جمع فيها بعض الصحابة القرآن لأنفسهم كما فعل عبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري ، وأُبيّ بن كعب ، وعلي بن أبي طالب ، وكان غالب

---

(١) صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ٨٧ نقلاً عن الإتقان للسيوطي ، ١/ ٨٩ .

هذا الجمع يتمثل في تسجيلهم لما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ من القرآن ، لأن همّ أبي بكر وعمر كان مصروفاً لمبدأ الجمع الموثق الذي يتم على ملأ من الحفاظ وعامة المسلمين.

وجمع القرآن في عهد عثمان كان له سبب آخر غير السبب الذي حدث في عهد أبي بكر ، فقد اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان ، وتفرق المسلمون في الأقطار والأمصار ، واشتهر في كل بلد من البلاد الإسلامية قراءة الصحابي الذي علمهم القرآن ، فأهل الشام كانوا يقرأون بقراءة (أبيّ بن كعب) وأهل الكوفة كانوا يقرأون بقراءة (عبد الله بن مسعود) ، وغيرهم كان يقرأ بقراءة (أبو موسى الأشعري) ، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ، ووجوه القراءات ، حتى كاد الأمر يصل إلى النزاع والشقاق بينهم ، وكاد بعضهم يكفّر بعضاً بسبب اختلاف القراءة[1].

يضاف إلى هذا أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار ، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها حتى يتحاكموا إليها حينما يختلفون ، إنما كان كل صحابي في إقليم ، يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن ، ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد.

وباختصار : فإن تعدد المصاحف بجوار مصحف أبي بكر ، وانتشار القرّاء في الأمصار تسبب في تعدد القراءات واختلاف القرّاء ، فكانت هذه الحلقة الثالثة أو المرحلة الأخيرة من مراحل جمع القرآن الكريم ، أو من مراحل توثيقه ونشره التي قام بها الخليفة عثمان ، رضي الله عنه.

فقد أخرج ابن أشته قال : « اختلفوا في القراءة على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون ، فبلغ ذلك عثمان بن عفان ، فقال : عندي تكذبون به وتلحنون فيه ، فمن نأى عني كان أشد تكذيباً ، وأكثر لحناً ، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً ، فاجتمعوا فكتبوا »[2].

هذا فيما شاهد عثمان في المدينة المنورة من الاختلاف في القراءات والوجوه واللغات ، فاقتصر من سائرها على لغة قريش ، لأن القرآن نزل بلغتهم.

---

(١) ينظر : الزركشي ، البرهان ، ١/ ١٣٩ والسيوطي ، الإتقان ، ١/ ١٠٢ـ١٠٣ .

(٢) السيوطي ، الإتقان ، ١/ ١٧٠ .

وهناك رواية أخرى أكثر شيوعاً نقلها البخاري تؤكد على ما أقدم عليه عثمان من توحيد المصحف ، وحسم هذا الاختلاف :

عن أنس بن مالك أنه قال : « إن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ! فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق »[1].

وكان هذا الأمر غيرة من حذيفة على القرآن ، واستجابة من عثمان لصيانة القرآن . ولهذا فإن الواجب الآن ، بعد الاختلاف الذي أشار إليه حذيفة ، يقتضي إعطاء مصحف أبي بكر فرصة النشر والتعميم على الأقاليم الإسلامية ، وجعله وثيقة للناس كافة ، وهذا ما فعله عثمان بن عفان كما تدل على ذلك الروايات السابقة ، وكما أقره عليه الصحابة ، رضوان الله عليهم ، عندما قالوا له : نِعْمَ ما رأيت[2].

وسأل عثمان : أي الناس أفصح ؟ قالوا : سعيد بن العاص ، قال : أي الناس أكتب ؟ قالوا : زيد بن ثابت ، قال : فليكتب زيد ، وليملِ سعيد ، فكتب مصاحف فقسمها في الأمصار[3].

---

(١) البخاري ، الجامع الصحيح ، ٦/٩٩ قال القرطبي معقباً على هذه الرواية : وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلّة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك فاتفقوا على جمعه بما صح ونبت في القراءات المشهورة عن النبي ﷺ واطّراح ما سواها ، واستصوبوا رأيه وكان رأياً سديداً موفقاً ، رحمة الله عليه وعليهم أجمعين ، [القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١/٥٢] .

(٢) ينظر : مقدمتان في علوم القرآن ، ٤٤ والسيوطي ، الإتقان ، ١/١٠٣ .

(٣) الطبري ، جامع البيان ، ١/٦٢ وابن أبي داود ، كتاب المصاحف ، ٢٤ وأبو شامة ، المرشد =

ويستدل في كثيرٍ من الروايات أن هذا الترتيب والجمع على قراءة واحدة وفي مصحف واحد كان على ملأ من أصحاب رَسُول الله ﷺ ، وبمشاورة من أهل القرآن[1] .

وأخيراً ، فإن عثمان ، رضي الله عنه ، كلف اللجنة بنسخ عدد من المصاحف بعث بها إلى عدد من الأمصار في الدولة الإسلامية ، قال بعض العلماء إنها سبع نسخ ، فبعث واحداً إلى مكة ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وإلى اليمن ، وإلى البحرين ، وحبس بالمدينة واحداً[2] .

وقيل عددها أربعة : العراقي ، والشامي ، والمصري ، والمصحف الإمام ، وقيل : غير ذلك .

وقد استهدف عثمان ، رضي الله عنه ، من عمله في نشر القرآن وتعميمه أمرين أساسيين :

الأول : منع التماري في القرآن والشجار بين المسلمين بشأن القراءات المختلفة ، لأن المصاحف العثمانية أضفت الصفة الشرعية على القراءات المختلفة التي كانت تدخل في إطار النص المدون ، ولها أصل نبوي مجمع عليه .

الثاني : حماية النص القرآني ذاته من أي تحريف ، نتيجة إدخال بعض العبارات المختلف عليها نوعاً ما ، أو أي شروح يكون الأفراد قد أضافوها إلى مصاحفهم بحسن نية[3] .

ومن هنا يمكن لنا أن نتبين قاعدة اللجنة العثمانية في جمع القرآن على النحو التالي :

رابعاً ـ قاعدة عثمان في الجمع ومزايا المصاحف العثمانية:

١ ـ لم تكتب اللجنة الرباعية في المصحف إلا ما تحققت أنه قرآن ، وتيقنت أنه قد استقر في العرضة الأخيرة أي في آخر مرة عرض فيها الرسول الكريم ﷺ القرآن كاملاً أمام جبريل ، وما تثبتت اللجنة صحته عن النبي مما لم ينسخ .

= الوجيز ، ٥٨ .

(١) ينظر ، ابن أبي داود ، كتاب المصاحف ، ١٢ وأبو شامة ، المرشد الوجيز ، ٦٤ .

(٢) ينظر : ابن أبي داود ، كتاب المصاحف ، ٣٤ .

(٣) ينظر : د . محمد عبد الله دراز . مدخل إلى القرآن الكريم ، ٣ .

٢ـ كتبت اللجنة مصاحف متعددة ، لأن عثمان قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار المسلمين المتعددة ، وكانت تلك النسخ مشتملة على الأحرف السبعة وخالية من النقط والشكل .

٣ـ كانت هذه المصاحف خالية من الإعجام والنقط والشكل ، مما فسح المجال لقراءة القرآن بأي من الحروف السبعة التي نزل عليها ، وبذلك لم يسقط عثمان رضي الله عنه شيئاً من قراءات القرآن ، ولم يمنع أحداً من القراءة بأي حرف شاء ما دامت هذه الحروف كلها منقولة بالتواتر عن النبي ﷺ ورسول الله يقول : « فأيّ ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا » .

٤ـ ومما يتعلق بالفقرة أعلاه ، إن عدم وجود النقط والشكل جعل رسم بعض الكلمات يقرأ بأكثر من وجه نحو : ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ من قوله تعالى : ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات : ٦] فإنها تصلح أن تقرأ « فتثبتوا » وهي قراءة أخرى.

وكذلك كلمة ﴿نُنشِزُهَا﴾ من قوله تعالى : ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة : ٢٥٩] فإن تجردها من النقط والشكل يجعلها صالحة لأن تقرأ « ننشرها » وهي قراءة معروفة أيضاً.

٥ـ الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة من خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة ، وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية . فقراءة ﴿وصّى﴾ بالتضعيف ، و﴿أوصى﴾ بالهمز ، وهما قراءتان في قوله تعالى : ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

وقراءة ﴿تحتها الأنهار﴾ ، وقراءة ﴿من تحتها الأنهار﴾ بزيادة ﴿من﴾ في قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة : ١٠٠] وهما قراءتان.

٦ـ كانت اللجنة تتحاشى أن تكتب اللفظ الواحد بمصحف واحد برسمين : أحدهما في الأصل ، والآخر في الحاشية ، لئلا يتوهم أن الثاني تصحيح للأول ، وذلك قد يعني ـ أيضاً ـ ترجيح لقراءة على قراءة .

٧ـ إن اللجنة الرباعية باتخاذها صحف حفصة أساساً لنسخ المصاحف ، إنما استندت إلى أصل أبي بكر .

٨ـ كانت كتابة اللجنة الرباعية للمصاحف وفقاً للهجة قريش أصلاً ، فالقرآن نزل

بلغتها ، وأمر عثمان أن يكتب بها عند حدوث خلاف بين أعضاء اللجنة الذي كان ثلاثة منهم من قريش وزيد بن ثابت من الأنصار .

وحينما تم إقرار المصحف الإمام ، واستنسخت المصاحف في ضوئه ، وسُيِّرت إلى الآفاق ـ وكان ذلك في سنة خمسة وعشرين من الهجرة النبوية ـ أنِس عثمان بصنيعه هذا ، وعمد إلى توثيقه وتفرده بصيغتين :

الأولى : إرساله من يثق المسلمون بحفظه وإقرائه مع مصحف كل إقليم بما يوافق قراءته ، وكان ذلك موضع اهتمام منه في أشهر الأقاليم ، فكان زيد بن ثابت مقرىء المصحف المدني ، وعبد الله بن السائب مقرىء المصحف المكي ، والمغيرة بن شهاب مقرىء المصحف الشامي ، وأبو عبد الرحمن السلمي مقرىء المصحف الكوفي ، وعامر بن عبد القيس مقرىء المصحف البصري[1] .

الثانية : أمره بما سواه في القرآن في كل صحيفة ومصحف أن يحرق[2] .

وقد علق الدكتور طه حسين حول عمل الخليفة عثمان رضي الله عنه بما يلي :

« وليس من شك في أن ما أقدم عليه عثمان رضي الله عنه من توحيد المصحف وحسم هذا الاختلاف ، وحمل المسلمين على حرف واحد ، أو لغة واحدة يقرأون بها القرآن ، عمل فيه كثير من الجرأة ، ولكن فيه من النصح للمسلمين أكثر ما فيه من الجرأة ، فلو قد ترك عثمان الناس يقرأون القرآن قراءات مختلفة بلغات متباينة في ألفاظها ، فكان هذا مصدر فرقة لا شك فيها ، ولكان من المحقق أن هذه الفرقة حول الألفاظ ستؤدي إلى فرقة شر منها حول المعاني بعد أن كان الفتح ، وبعد أن استعرب الأعاجم ، وبعد أن أخذ الأعراب يقرأون القرآن »[3] .

ومهما يكن من رأي فإن مصاحف عثمان كانت الأساسية لاستنساخ آلاف المصاحف في الديار المترامية الأطراف ، موحدة معظمة مؤصلة ، اشتملت على القرآن بجزئياته وحيثياته كافة ، دون زيادة أو نقصان ، أو تغيير أو تحريف ، بل هي من الوثوق بكونها عين القرآن الذي أنزل على الرسول الأعظم ﷺ بجميع خصوصياته في التنزيل

---

(١) ينظر : الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١/ ٣٩٦ وما بعدها .

(٢) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ١/ ١٦٩ .

(٣) طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ١/ ١٨٢ وما بعدها .

والترتيب والتوقيف.

وليس أدل على ذلك من شهادة أعلام المستشرقين في تأكيد هذه الحقيقة العلمية.

قال السير وليم موير : « إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف . ولقد حفظ بعناية شديد بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر ، بل نستطيع أن نقول أنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة »[1].

ولقد كان الأستاذ لوبلوا موضوعياً حينما أكد بقوله : « أن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر »[2].

ولا يفوتنا أن نذكر بعض التعليقات حول ما أمر به الخليفة عثمان ، رضي الله عنه ، من إحراق المصاحف التي تخالف مصحفه ، حيث كان العمل مدعاة للنقد حيناً ، ومجالاً للتشهير به حيناً آخر ، فقال أحد العلماء : « ولكن الأمر الذي انتقد عليه هو إحراقه لبقية المصاحف ، وأمره أهالي الأمصار بإحراق ما عندهم من المصاحف ، وقد اعترض على عثمان في ذلك جماعة من المسلمين ، حتى سموه بحرّاق المصاحف »[3].

وقد عقّب على ذلك الدكتور طه حسين بقوله : « وربما تحرج بعض المسلمين من تحريق ما حرّق عثمان من المصحف ، ولم يقبلوا اعتذاره بحسم الفتنة وقطع الخلاف ، ولو قد كانت الحضارة تقدمت بالمسلمين شيئاً لكان من الممكن أن يحتفظ عثمان بهذه الصحف التي أحرقها على أنها نصوص محفوظة لا تتاح للعامة ، بل لا تكاد تتاح للخاصة ، وإنما هي صحف تحفظ ضناً بها على الضياع ، ولكن المسلمين لم يكونوا قد بلغوا في ذلك العصر من الحضارة ما يتيح لهم تنظيم المكتبات وحفظ المحفوظات ، وإذا لم يكن على عثمان جناح فيما فعل لا من جهة الدين ولا من جهة السياسة ، فقد يكون لنا أن نأسى لتحريق تلك الصحف ، لأنه إن لم يكن قد أضاع على المسلمين شيئاً من دينهم ، فقد أضاع على العلماء والباحثين كثيراً من العلم بلغات العرب ولهجاتها ، على أن الأمر أعظم خطراً وأرفع شأناً من علم العلماء ، وبحث الباحثين عن اللغات

---

(١) د . محمد عبد الله دراز ، مدخل إلى القرآن الكريم ، ٤٠ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٣) الخوئي ، البيان ، ٢٥٨ .

واللهجات »[1].

ومهما يكن من رأي حول هذا الموضوع ، فإن من المقطوع به أن المصحف العثماني هو النص القرآني الوحيد الذي عليه عمل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهو الكتاب المقدس الوحيد الذي أحيط بعناية ورعاية خاصة ، حتى نقل بالتواتر القطعي جيلاً بعد جيل.

ويبدو أن بعض نُسَخ المصحف العثماني ، قد كانت معروفة في القرن الثامن الهجري ، فالحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) يقول :

« أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد كان قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق في حدود سنة (٥١٨هـ) ، وقد رأيته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي ، بحبر محكم ، في رق أظنه من جلود الإبل »[2].

وننتهي إلى القول : إن القرآن الكريم منذ نزوله على الرسول الكريم ﷺ إلى وصوله إلينا اليوم كان سلسلة من التدوين الكتابي الدقيق ، والتلقي الشفهي السليم ، ما فيه حلقة مفقودة ، أو ثغرة ينفذ منها شك أو اختلاف يبعث على ريبة ، وصدق الله العظيم إذ قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

O O O

---

(١) طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ١/ ١٨٣ وما بعدها .

(٢) ابن كثير ، فضائل القران ، ٤٩ طبعة المنار ، القاهرة ١٣٤٨هـ .

الفصل الخامس

علم المكي والمدني

أولاً ـ أهمية علم المكي والمدني
ثانياً ـ الفرق بين المكي والمدني
ثالثاً ـ عناية العلماء بالمكي والمدني واهتمامهم به
رابعاً ـ معرفة المكي والمدني
خامساً ـ الفائدة من دراسة علم المكي والمدني
سادساً ـ ضوابط ومميزات المكي والمدني

الفصل الخامس
علم المكي والمدني

أولاً - أهمية علم المكي والمدني:

يكتسب موضوع علم المكي والمدني أهمية كبيرة في تاريخ التشريع الإسلامي ، وتبرز أهميته كلما تعمقنا في فهم أسرار التشريع وتقصّي المصلحة من ورائه ، والحكمة منه .

إن معرفة المكي والمدني في القرآن الكريم يعد ضابطاً مهماً ، وعماداً قوياً يستند إليه الباحث في معرفة أسلوب الدعوة ، وألوان الخطاب ، والتدرج في الأحكام والتكاليف .

فقد اهتم أعلام الهدى من الصحابة والتابعين ، رضوان الله عليهم ، ومن جاء بعدهم يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطاً يحدد الزمان والمكان .

هذا الاستقصاء في تحري أماكن نزول الآيات ، ومعرفة أسباب نزولها قد يبدو لبعض الغافلين أنه أمر غير ذي بال ، ولكنه في نفوس الرواة والعلماء المهتمين بالدراسات القرآنية يعني صدق الرواية ، وإحاطة القرآن بسياج من العناية لم يظفر بأقل منها أي كتاب آخر في هذا الوجود في مشارق الأرض ومغاربها ، منذ أن خُطَّ أول سفر في هذه الحياة إلى يومنا هذا .

ومما روي في ذلك ما قاله ابن مسعود ، رضي الله عنه ، أنه قال : « والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[1] .

وجاء في كتاب (الإتقان) للسيوطي : « أن رجلاً سأل عكرمة رضي الله عنه عن آية من القرآن فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل وأشار إلى سَلْع[2] »[3] .

---

(١) البخاري ، الجامع الصحيح ، ٦/ ١٠٢ .

(٢) سَلْع : جبل قرب المدينة المنورة .

(٣) السيوطي ، الإتقان ، ١/ ٩ .

ثانياً ـ الفرق بين المكي والمدني:

وكان نتيجة التدرج في النزول أن استوعب نزول القرآن الكريم حياة النبي ﷺ في الرسالة وكانت رسالته قد اتخذت مرحلتين :

١ـ مرحلة الفترة المكية قبل الهجرة.

٢ـ مرحلة الفترة المدنية بعد الهجرة.

وفي هذا الضوء اقتضى أن ينقسم القرآن الكريم إلى مرحلتين تبعاً لمرحلتي الرسالة ، لاستمراره بالنزول فيهما ، وهما المرحلة المكية ، والمرحلة المدنية ، وهذا التقسيم روعي فيه النظر إلى الزمان والمكان.

وللباحثين فيه ثلاثة آراء اصطلاحية ، كل رأي بني على اعتبار خاص :

١ـ إن المكي ما نزل بمكة ، والمدني ما نزل بالمدينة.

٢ـ إن المكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة.

٣ـ إن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة[1].

ولكل من هذه الاصطلاحات مبررها التاريخي ، **فالقول الأول** ينظر إلى مكان النزول دون الالتفات إلى حدث الهجرة ، فالمكي ما نزل في مكة وإن كان بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة لا خارج حدودها ، فالمكان جزء من التاريخ في عملية التحديد.

والقول الثاني ، وهو المشهور ، ينظر إلى الزمان من خلال حدث الهجرة ، والزمان جزء من التاريخ ، إن لم يكن التاريخ بعينه ، فما نزل قبل الهجرة فمكي ،وما نزل بعد الهجرة فمدني.

والقول الثالث ، ينظر إلى الأشخاص ، فما وقع خطاباً لأهل مكة فهو مكي بحكم من نزل بين ظهرانيهم ، وما وقع خطاباً لأهل المدينة فهو مدني بلمح من نزل فيهم ، والأشخاص عنصر التاريخ ومادته الأولى.

إلا أن المشهور بين العلماء والمفسرين ، هو الرأي الثاني لاعتبار الهجرة التي هي الحدث الفاصل في تاريخ الرسالة الإسلامية ، فالمكي ما نزل قبلها ، وإن خوطب

---

(١) المصدر نفسه .

به أهل المدينة ، وإن نزل حواليها كالمنزل بمنى وعرفات والجحفة مثلاً ، أو خارجها كالمنزل في الطائف أو بيت المقدس ، بل وإن كان حكمه مدنياً.

والمدني ما نزل بعد الهجرة ، وإن خوطب به أهل مكة ، وإن نزل حواليها كالمنزل ببدر وأُحد وسلع مثلاً ، أو خارجها كالمنزل في الحديبية أو في مكة في حجة الوداع ، بل وإن كان حكمه مكياً.

ثالثاً ـ عناية العلماء بالمكي والمدني واهتمامهم به:

الحق أن علماءنا القدامى قد عنوا في هذا الجانب عناية فائقة ، تتناسب مع جلال القرآن وعظمته واعتبروا علم نزول القرآن زمانياً ومكانياً من أشرف علوم القرآن ، حتى ذهبوا إلى أن من لم يعرف مواطن النزول وأماكنه وأزمنته ، ويميز بينها ، لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله.

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦ هـ) :

« من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً . وانتهاءً ، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي ، وما نزل بمكة من أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة من أهل مكة ، ثم ما يشْبه نزول المكي في المدني ، وما يشبه نزول المدني في المكي ، ثم ما نزل بالجحفة ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالحديبية ، ثم ما نزل ليلاً ، وما نزل نهاراً ، وما نزل مشيعاً ، وما نزل مفرداً ، ثم الآيات المدنيات في السور المكية ، والآيات المكية في السور المدنية ، ثم ما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، ثم ما نزل مفسراً ، وما نزل مرموزاً ، ثم ما اختلفوا فيه فقال بعضهم : مكي ، وقال بعضهم : مدني . هذه خمسة وعشرون وجهاً ، من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله »[1].

والحق أن ابن حبيب النيسابوري قد نبّه إلى جزئيات وحيثيات مهمة ، مضافاً إلى تقسيمه المكي ، ومثله المدني ، إلى مراحل : أولية ، ووسطية ، ونهائية ، وهي تقديرات تعنى بالتاريخ الدقيق لنزول سور القرآن وآياته ، وكأنه بهذا قد فتح الطريق أمام المستشرقين للخوض في هذه التفصيلات في محاولة لترتيب القرآن زمنياً ، ووصف كل

---

(١) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ١/ ١٩٢ .

ما يتعلق بمراحل نزول الوحي القرآني وقد علقوا على ذلك أهمية كبرى ، وكان المستشرق الألماني الأستاذ تيودور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠م) من أبرز المقتنعين في هذا المنهج وضرورة استقصائه ، وقد أخضع في ضوئه الحوادث الهامشية في الحروب والمغازي والمراسلات والوقائع لاستنتاجاته العلمية.

وقد سلك في كشف تاريخ السور مسلكاً قويماً يهدي إلى الحق أحياناً ، فإنه جعل الحروب والغزوات الحادثة في زمن النبي ﷺ وعلم تاريخها كحرب بدر والخندق وصلح الحديبية وأشباهها من المدارك لفهم تاريخ ما نزل من القرآن ، وجعل اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابي ، دليلاً آخر لتاريخ آياته ، وهو يرتاب في بحثه التحليلي في الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين في تاريخ القرآن ، وفي عين الحال يأخذ من مجموعها ما يضيء فكره ، ويرشده إلى تاريخ السور والآيات ونظمها أحياناً[١].

وقدظهرت في أوربا في منتصف القرن التاسع عشر محاولات لترتيب سور القرآن ، ورداسة مراحله التاريخية ، منها محاولة (وليم موير) الذي قسّم المراحل القرآنية إلى ست : خمس منها في مكة ، وسادستها في المدينة . ومنها محاولة (ويل) التي بدأها سنة (١٨٤٤م) ، ولم تتخذ صورتها النهائية إلا سنة (١٨٧٢م) ، وقسّم في ضوئها المراحل القرآنية إلى أربع : ثلاث في مكة ، ورابعة في المدينة ، فتابعه على ذلك (نولدكه) و(شفالي) ، وتأثر بذلك كل من : (بِل) و(بلاشير)[٢].

إلا أن هؤلاء جميعاً قد رفضوا الأثر والروايات في تاريخ النزول مما خالفوا به مصدرا رئيسياً من مصادر التعيين في ترتيب النزول ، وذلك عن طريق الجمع بين الروايات وغربلتها ، والأخذ بأوثقها.

وقد أورد ابن حجر عن الإمام علي رضي الله عنه : أنه جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي ﷺ وخرّجه ابن أبي داود[٣].

وقد أثبت في « كتاب المباني لنظم المعاني » جدولاً لهذا الترتيب الزمني[٤].

إلا أنه يختلف عن ترتيبه فيما ورد بأصل النسخة المطبوعة في ليبسك (١٨٧١ - ١٨٧٢م) ولما أثبته الزنجاني في تقسيمه لجمع الإمام علي للمصحف في سبعة

---

(١) ينظر : د . محمد حسين الصغير ، المستشرقون والدراسات القرآنية ، ٨٨ وما بعدها .

(٢) ينظر : صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ١٧٦ وانظر مصادره .

(٣) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ١/ ٢٠٢ والزنجاني ، تاريخ القرآن ، ٤٨ .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن ، ١٤ .

أجزاء[1] . وبذلك يكون الإمام علي أول من حقق في تثبيت نزول القرآن تدريجياً.

رابعاً ـ معرفة المكي والمدني:

اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسين : المنهج السماعي النقلي ، والمنهج القياسي الاجتهادي . وسنوضح هذين المنهجين بالتفصيل :

١ ـ المنهج السماعي النقلي : الذي يعتمد على الرواية الصحيحة الثابتة المرفوعة إلى النبي ﷺ أو الصحابة ، رضوان الله عليهم ، الذين شاهدوا قرائن الأحوال وتتبعوا مسيرة الوحي من بدايته إلى نهايته ، وقد كان جزء من ذلك متوافراً فيما نلمسه من روايات وآثار في كتب التفسير وعلوم القرآن ، يوردها الأثبات ويتناقلها الثقات ، وإن كان بعضها لا يخلو من تضارب.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني في (الانتصار) : « إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين ، ولم يرد عن رَسُول الله ﷺ في ذلك قول ؛ لأنه لم يأمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول »[2].

٢ ـ المنهج القياسي الاجتهادي : القائم على الاستنباط الاجتهادي القائم على أساس إعمال الفكر ، ودراسة الأحداث ، ومعرفة أسباب النزول ، والمقارنة بين الآيات نفسها ، واعتبار القرائن الحالية والمقالية ، والسياق والنظم ، ووحدة السورة الموضوعية ، وما ماثل ذلك أدلة تقريبية على ذلك ، ولا سيما فيما لا نص عليه ، فتعيين معرفته عن طريق الأدلة والبراهين والمرجحات ، فيؤخذ بأقواها حجة ، وأبرمها دليلاً ، وهذا ما نشاهده في شأن الآيات والسور المختلف بنزولها الزماني أو المكاني.

خامساً ـ الفائدة من دراسة علم المكي والمدني:

لدراسة علم المكي والمدني فوائد كثيرة أهمها :

١ ـ الاستعانة به في تفسير القرآن :

فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيراً صحيحاً ، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند

---

(١) ينظر : الزنجاني ، تاريخ القرآن ، ٦٩ وما بعدها .

(٢) الزركشي ، البرهان ، ١/ ١٩١ .

تعارض المعنى في آيتين أن يميز بين الناسخ والمنسوخ ، ليصار إلى الأخذ بالناسخ الذي هو متأخر رتبة ، وإطراح المنسوخ الذي هو متقدم في الرتبة . ولا سيما في مجال الأحكام والتشريع ، ولن تتيسر هذه المعرفة إلا بإتقان تاريخ نزول الآيات ومواطنها.

إن وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن اقتضته ضرورة أخذ الناس بالتدرج في الأحكام الشرعية ، كالآيات التي نزلت متدرجة في تحريم الخمر ، وكالآيات التي نزلت في عقوبة الزنا.

وليس معنى نسخ الحكم في آية من آيات القرآن أن قرآنيتها قد سقطت بذلك ، بل تظل قرآناً يتلى ويتعبد به ، وهي من كلام الله ، ولكن يبطل العمل بها لمكان الآية التي نسختها.

٢ـ تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله ، فإن لكل مقام مقالاً ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة ، وخصائص أسلوب المكي في القرآن ، كذلك المدني منه تعطي الدارس منهجاً لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب ، ويمتلك عليه لبه ومشاعره ، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة ، إذ أن لكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها ، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم ، ويبدو هذا واضحاً جلياً بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

٣ـ الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية :

فإن تتابع الوحي على رَسُول الله ﷺ ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهدين المكي والمدني ، منذ بدء الوحي حتى آخر آية نزلت ، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالاً للشك فيما روي عن أهل السير موافقاً له ، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

٤ـ وفائدة أخرى لا تقل أهمية عما سبقها ، هي أن هذه المعرفة تبصرنا بمعنى الآية القرآنية ، وتبعدنا عن الخطأ في تفسيرها ، ذلك أن من قرأ سورة الكافرون ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون : ١/ ٦] ولم يعلم زمن نزولها ، وهل هي مكية أو مدنية ؟ فإنه يحار في معناها ، وقد يستخرج منها أن المسلمين لا يكلفون في الجهاد ، وإنما عليهم أن يقولوا للآخرين : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ

دِينِ﴾ لكنه إذا علم أن هذه السورة إنما نزلت في مكة ، حين قال بعض صناديد الشرك لرسول الله ﷺ : « تعالَ يا محمد نعبد إلهك يوماً . وتعبد آلهتنا يوماً » أدرك أن هذه السورة علاج للمرحلة التي كان فيها الرسول في مكة ، وليست دليلاً على عدم مشروعية الجهاد كما نزلت بذلك الآيات الأخرى في المدينة[1] .

سادساً ـ ضوابط ومميزات المكي والمدني:

استقرأ العلماء المهتمون بالدراسات القرآنية السور المكية والسور المدنية ، واستنبطوا علامات وأمارات وخصائص ، تتميز بها كل من السور المكية والمدنية ، ففرقوا بينها على أساس هذا الفهم ، والنظر في ذلك كضوابط قابلة للانطباق في أكثر تجاربها ، إلا أنها ليست حتمية ، ولكنها أمارات غالبة ، لتوافر استثناءات في بعضها .

فمن ضوابط معرفة السور المكية ومميزاتها الموضوعية أوردوا ما يلي :

١ـ كل سورة فيها لفظ « كلا » فهي مكية .

٢ـ كل سورة فيها « يا أيها الناس » فهي مكية ، والقاعدة ليست عامة ، فهناك عدد سور مدنية فيها « يا أيها الناس » .

٣ـ كل سورة فيها سجدة فهي مكية .

٤ـ كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة .

٥ـ كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة .

٦ـ كل سورة فيها حروف التهجي مثل : ﴿ألم﴾ و﴿الر﴾ و﴿حم﴾ ونحو ذلك فهي مكية ، سوى الزهراوين وهما : البقرة وآل عمران ، وفي سورة الرعد خلاف[2] .

هذا من ناحية الضوابط ، **أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب ، فيمكن إجمالها فيما يأتي :**

١ـ الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث والجزاء ، وذكر القيامة وأهوالها ، والنار وعذابها ، والجنة ونعيمها ، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية .

---

(١) البوطي ، من روائع القرآن ، ٨٥ .

(٢) قارن بين هذه الأقوال وتفصيلها في كل من : الزركشي ، البرهان ، ١/١٨٨ وما بعدها ، والسيوطي ، الإتقان ، ١/٤٧ وما بعدها .

٢ـ وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع ، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء ، وأكل أموال اليتامى ظلماً ، ووأد البنات ، وما كانوا عليه من سوء العادات والتقاليد.

٣ـ ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم ، وتسلية لرسول الله ﷺ حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم.

٤ـ قصر الفواصل مع قوة الألفاظ ، وإيجاز العبارة ، بما يصخ الآذان ، ويشتد وقوعه على المسامع ، ويصعق القلوب ، ويؤكد المعنى بكثرة القسم.

وباختصار نقول :

فحيث كان القول في جاهلية تُعمي وتُصم ، يعبدون الأوثان ، ويشركون بالله ، وينكرون الوحي ، ويكذّبون بيوم الدين ، وكانوا يقولون : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٢] ، ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية : ٢٤] ، وهم ألدّاءُ في الخصومة ، أهل مماراة ولجاجة في القول ـ عن فصاحة وبيان ـ نزل الوحي المكي قوارع زاجرة ، وشبهاً منذرة ، وحججاً قاطعة ، ويحطم وثنيتهم في العقيدة ، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية والربوبية ، ويهتك أستار فسادهم ، ويقيم دلائل النبوة ، ويضرب الأمثلة للحياة الآخرة ، وما فيها من جنة ونار ، ويتحداهم على فصاحتهم بأن يأتوا بمثل القرآن ، ويسوق إليهم قصص المكذبين والغابرين عبرة وذكرى ، فتجد في مكي القرآن ألفاظاً شديدة القرع على المسامع ، تقذف حروفها شرر الوعيد ، وألسنة العذاب ، فـ ﴿كلا﴾ الرادعة الزاجرة ، والصاخّة ، والقارعة ، والغاشية ، والواقعة ، وألفاظ التهجي في فواتح السور ، وآيات التحدث في ثناياها ، ومصير الأمم السابقة كقوله : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] ، وإقامة الأدلة الكونية ، والمجادلة العقلية ، كل هذا نجده في سياق الآيات المكية.

ومن ضوابط معرفة السور المدنية ومميزاتها الموضوعية أوردوا ما يلي :

١ـ كل سورة فيها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهي مدنية ، وهناك استثناء لسورة الحج.

٢ـ كل سورة فيها تفاصيل الفرائض والسنن والحدود والأحكام والقوانين فهي مدنية.

٣ـ كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ، سوى العنكبوت.

٤ـ كل سورة فيها إذن بالجهاد ، أو ذكر له ، وبيان لأحكامه ، فهي مدنية.

٥ـ كل سورة فيها محاججة لأهل الكتاب ، ومجادلة لهم ، فهي مدنية[1].

هذا من ناحية الضوابط ، **أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يلي :**

١ـ بيان العبادات أو المعاملات ، والحدود ، ونظام الأسرة ، والمواريث ، وفضيلة الجهاد ، والصلات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية في السلم والحرب ، وقواعد الحكم ، ومسائل التشريع.

٢ـ مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم.

٣ـ الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسيتهم ، وإزاحة الستار عن خباياهم ، وبيان خطرهم على الدين.

٤ـ طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها.

وباختصار نقول :

فحينما تكونت الجماعة المؤمنة ، وامتحنت في عقيدتها بأذى المشركين ، فصبرت ، وهاجرت بدينها ، مؤثرة ما عند الله على متع الحياة أصبحت الآيات المدنية طويلة المقاطع ، تتناول أحكام الإسلام وحدوده ، وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، وتفصل أصول التشريع وتضع قواعد المجتمع ، وتحدد روابط الأسرة ، وصلات الأفراد ، وعلاقة الأمم ، كما تفضح المنافقين أو تكشف عن دخيلتهم ، وهذا هو الطابع العام للآيات المدنية.

والحق أن هذه الضوابط للسور المكية والمدنية يمكن اعتبارها ضوابط استقرائية للأعم الأغلب فيما وقف عليه العلماء من كتاب الله ، وقد يضاف إليها بعض الضوابط الأخرى ناظرة في الأسلوب أو العرض أو الموضوع ، أو القصر أو الطول ، أو الشدة أو

---

(١) قارن بين هذه الأقوال وتفصيلها في كل من : الزركشي ، البرهان ، ١/١٨٨ وما بعدها ، والسيوطي ، الإتقان ، ١/٤٧ وما بعدها وصبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ١٨٣ .

اللين ، يستضاء بها ويسترشد إلى تمييز المكي من المدني وبالعكس.

وسواء أكانت هذه الضوابط نقلية أم اجتهادية فإن لها استثناءات في حدود ، وتماثلاً بين القسيمين في بعض الوجوه ، وعليه فلا طريق لنا إلى القطع بالمكي أو المدني ، إلا الرواية الصحيحة الثابتة ، أو الأحداث التاريخية المتناولة لها سورة ما ، وتقتضي التعيين الزماني أو التمديد المكاني ، أو معرفة أسباب النزول بأشخاصه وأماكنه ووقائعه ، لا دواعيه ومماثلاته ولوازمه ، وبذلك يكون التدوين التاريخي لقسيمي القرآن مكيه ومدنيه ، أمثل ترتيباً وأكثر صحة.

على أن تلك الضوابط ـ ولا ننكر أهميتها ـ تشير إلى أن خصائص قيّمة في مسيرة الوحي القرآني من الإجمال إلى التفصيل ، ومن العموميات إلى الجزيئات ، ومن الإشارة إلى التصريح ، وهي بالأخير تنبه إلى الإيمان بالمرحلية الزمانية والمكانية في التشريع والقوانين والأنظمة ، وتبرهن على تطور أساليب الرسالة ومقتضياتها.

وبديهي أن النزول إما أن يكون ابتدائياً ، أو على أثر سؤال أو حادث أو استفتاء ، فما كان منه ابتدائياً فيمكن اعتباره الأصل الأولي في الدين ، والأساس في أركان التشريع العامة ، وحجر الزاوية في تنظيم العالم من قبل الله تفضلاً منه ورحمة ، وما جاء عقب واقعه فإما أن يكون حكماً جديداً لاعهد لهم من ذي قبل ، وفيه تتجلى حكمة التشريع وبواعث الحكم ، وعنه نشأ علم أسباب النزول ، والعلم بالسبب يورث العلم بالمسبب أو استفيد منه إنسانية القرآن ، وعالمية دعوته ، وشمولية أحكامه ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويعرف به الناسخ من المنسوخ في بعض الحالات ، وفيه تعيين تاريخي للأحداث ، وتقديم عام للمشكلات ، وطريقه الأمثل هو النقل الصحيح القطعي.

قال الواحدي : « لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها »[1].

ويجب الحذر والتحرز تجاه أسباب النزول ، فلا تؤخذ على علاتها ، بل يجب عرضها على القرآن نفسه ، فما وافق القرآن أخذ به ، وما عارض القرآن طرح ، فهناك التناقض الكثير في بعض الروايات ، وهناك النقيض الخرافي في جانب منه ، وهناك

---

(١) السيوطي ، الإتقان ، ١/ ٨٩ .

الإسرائيليات المطولة التي لا يحتملها النص القرآني ، بل وهناك ما لا يوحي بالسبب فيسمى سبباً ، وقد يطلق في هذا الضوء السبب اللازم والمتعلق وهو غير السبب ، وقد يطلق السبب على ما يعتبر في باب الجري وقبيل الانطباق وليسا من الأسباب.

ولو سلمت أسباب النزول من هذه الثغرات ، لكانت خير منار لتتبع كثير من تأريخية النزول على أتم وجه ، وأفضل سبيل للكشف عن كثير من الحالات النفسية ، والقابليات العقلية التي عليها القوم.

إن هذا الجانب غني ببحوث القدامى ، فقد أفاض به كل من الواحدي والزركشي والسيوطي وأضرابهم ، ونقلوا فيه آراء السلف ، ولسنا بحاجة إلى نقدها ولا إلى سردها[1] . والحق أن تعيين أسباب النزول يعين كثيراً على معرفة المكي من المدني في وجه من الوجوه لارتباطه بالأحداث والتاريخ والأشخاص ولكن أغلب ذلك في الآيات لا في السور ، والروايات فيه متضاربة ومتعارضة.

وتأريخية النزول تقتضي أن نعطي تقسيماً للسور المكية والسور المدنية ، وقد سبق أن أفضنا أن لا سبيل لذلك إلا الرواية الثابتة ، وأنّى لنا ذلك ، فهناك اختلاف كثير في النقول بهذا الجانب ، وذكر جميع التفصيلات تطويل بغير طائل ، ولكننا سنلقي بالمسؤولية على الزركشي فنثبت ما أثبته.

قال الزركشي[2] :

« **أول ما نزل من القرآن بمكة** : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ ، ثم ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾ ، ثم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ثم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ ، ثم ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ ، ثم ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، ثم ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ، ثم ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ، ثم ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ ، ثم ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ، ثم ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ ، ثم ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ ، ثم ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ﴾ ، ثم ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ ، ثم ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ ، ثم ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى ﴾ ، ثم (سورة الفيل) ثم (الفلق) ، ثم (الناس) ، ثم ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، ثم سورة (الفيل)، ثم (الفلق)، ثم ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، ثم ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ، ثم ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ ، ثم ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ، ثم ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ ، ثم ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ ، ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ ، ثم ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ ، ثم

---

(١) ينظر : تفصيل ذلك في كل من : الواحدي ، أسباب النزول والزركشي ، البرهان ، ١/ ٢٢ـ٢٣ والسيوطي ، الإتقان ، ١/ ٨٢ـ٩٨ .

(٢) الزركشي ، البرهان ، ١/ ١٩٣ وما بعدها .

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ ، ثم ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ، ثم (الهمزة) ، ثم (المرسلات) ، ثم ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ ، ثم ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ ، ثم ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ ، ثم ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ ، ثم ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ ، ثم (الأعراف) ، ثم (الجن) ، ثم (يس) ، ثم (الفرقان) ، ثم (الملائكة) ، ثم (مريم) ، ثم (طه) ، ثم (الواقعة) ، ثم (الشعراء) ، ثم (النمل) ، ثم (القصص) ، ثم (الأنعام) ، ثم (الصافات) ، ثم (لقمان) ، ثم (سبأ) ، ثم (الزمر) ، ثم (حم . المؤمن) ، ثم (حم . السجدة) ، ثم (حم . عسق) ، ثم (حم . الزخرف) ، ثم (حم . الدخان) ، ثم (حم . الجاثية) ، ثم (حم . الأحقاف) ، ثم (والذاريات) ، ثم (الغاشية) ، ثم (الكهف) ، ثم (النحل) ، ثم (نوح) ، ثم (والطور) ، ثم (الملك) ، ثم ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ ، ثم ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ ، ثم ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ، ثم ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ ، ثم ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ ، ثم ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ ، ثم (الروم) .

واختلفوا في آخر ما نزل بمكة ، فقال ابن عباس : (العنكبوت) . وقال الضحاك وعطاء : (المؤمنون) ، وقال مجاهد : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة ، وعليه استقرت الرواية من الثقات وهي خمس وثمانون سورة .

ثم ذكر ترتيب ما نزل بالمدينة ، وهو تسع وعشرون سورة :

فأول ما نزل فيها : سورة (البقرة) ، ثم (الأنفال) ، ثم (آل عمران) ، ثم (الأحزاب) ، ثم (الممتحنة) ، ثم (النساء) ، ثم ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ ، ثم (الحديد) ، ثم (محمد) ، ثم (الرعد) ، ثم ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ ، ثم (الطلاق) ، ثم ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ ، ثم (الحشر) ، ثم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ ، ثم (النور) ، ثم (الحج) ، ثم (المنافقون) ، ثم (المجادلة) ، ثم (الحجرات) ، ثم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ ، ثم (الصف) ، ثم (الجمعة) ، ثم (التغابن) ، ثم (الفتح) ، ثم (التوبة) ، ثم (المائدة) .

ومنهم من يقدم المائدة على التوبة .

فهذا ترتيب ما نزل بالمدينة . **وأما ما اختلفوا فيه** : ففاتحة الكتاب ، فقال ابن عباس والضحاك ومقاتل وعطاء : إنها مكية ، وقال مجاهد : إنها مدنية[1] .

---

(١) الحق أن فاتحة الكتاب مكية لأمرين : الأول : ذكرها في سورة الحجر ، (ولقد آتيناك سبعاً من =

واختلفوا في ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فقال ابن عباس : مدنية ، وقال عطاء : هي آخر ما نزل بمكة.

فجميع ما نزل بمكة خمس وثمانون سورة ، وجميع ما نزل بالمدينة تسع وعشرون سورة على اختلاف الروايات[١].

وهناك بعض السور المكية وفيها آيات مدنية ، وبالعكس ، وقد عنيت من قبل الباحثين[٢].

ولعل من المفيد حقاً أن نضع جدولاً بحسب ترتيب السور القرآنية في المصحف الشريف ، نشير فيه إلى رقم السورة من المصحف ، ثم نذكر اسمها المشهور ، ثم نكتب عدد آياتها ، ثم نشير إلى مكان النزول ، ثم نتتبع تاريخ النزول ، معتمدين بذلك على ترتيب المصحف الإمام ، ومحققين في المعلومات المدونة على أوثق المصادر وأثبتها ، ومن ثم نعقب في الهامش بالآيات المستثناة من السور مكية ومدنية ، اعتماداً على الروايات القائلة بذلك[٣].

وإليك هذا الترتيب في سور القرآن العددي والمكاني والزماني وكما يأتي :

(ترتيب سور القرآن العددي والمكاني والزماني)

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
١	الفاتحة	٧	مكية	نزلت بعد المدثر[٤]
٢	البقرة	٢٨٦	مدنية	أول سورة مدنية[٥]
٣	آل عمران	٢٠٠	مدنية	نزلت بعد الأنفال

= المثاني والقرآن العظيم) والسبع المثاني هي الفاتحة ، لأنها تثنى في الصلاة ، وسورة الحجر مكية ، والثاني : أن الصلاة شُرّعت في مكة (ولا صلاة إلا بفاتحة الكتاب) ، مضافاً إلى أن هناك قولاً أنها أول ما نزل من الوحي [ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ١/ ٧٠] .

(١) ينظر : تفصيل الاختلاف وقارن في كل من : المباني في نظم المعاني ، ٨ـ١٦ ، والسيوطي ، الإتقان ، ١/ ٢٥ـ٣٧ ، ٧٢ـ٧٤ والزنجاني ، تاريخ القرآن ، ٤٩ـ٦١ .

(٢) ينظر : الزركشي ، البرهان ، ١/ ١٩٩ .

(٣) يقارن ذلك في كل من : الطبري ، جامع البيان والطبرسي ، مجمع البيان ، والسيوطي ، الإتقان ، ١/ ٢٥ـ٣٧ ومقدمتان في علوم القرآن ، ٨ـ١٦ والزنجاني ، تاريخ القرآن ، ٤٩ والشرقاوي ، القرآن المجيد ، ٤٤ .

(٤) وقيل إنها مدنية عند مجاهد، وقيل أنزلت مرتين: مرة بمكة ومرة بالمدينة ، وكونها مكية هو الأشهر.

(٥) ما عدا الآية (٢٨١) فإنها نزلت بمنى في حجة الوداع ، وهذا لا يعارض مدنيتها .

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
٤	النساء	١٧٦	مدنية	نزلت بعد الممتحنة
٥	المائدة	١٢٠	مدنية	نزلت بعد الفتح(١)
٦	الأنعام	١٦٥	مكية	نزلت بعد الحجر(٢)
٧	الأعراف	٢٠٦	مكية	نزلت بعد ص(٣)
٨	الأنفال	٧٥	مدنية	نزلت بعد البقرة(٤)
٩	التوبة	١٢٩	مدنية	نزلت بعد المائدة(٥)
١٠	يونس	١٠٩	مكية	نزلت بعد الإسراء(٦)
١١	هود	١٢٣	مكية	نزلت بعد يونس(٧)
١٢	يوسف	١١١	مكية	نزلت بعد هود(٨)
١٣	الرعد	٤٣	مدنية	نزلت بعد محمد
١٤	إبراهيم	٥٢	مكية	نزلت بعد يوسف(٩)
١٥	الحجر	٩٩	مكية	نزلت بعد يوسف(١٠)
١٦	النحل	١٢٨	مكية	نزلت بعد الكهف(١١)
١٧	الإسراء	١١١	مكية	نزلت بعد القصص(١٢)
١٨	الكهف	١١٠	مكية	نزلت بعد الغاشية(١٣)

---

(١) ما عدا الآية (٣) فإنها نزلت بعرفات في حجة الوداع ، وهذا لا يعارض مدنيتها .

(٢) ما عدا الآيات ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ فإنها مدنية .

(٣) ما عدا الآيات ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، فإنها مدنية .

(٤) ما عدا الآيات : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، فإنها مكية .

(٥) ما عدا الآيتين ١٢٨ ، ١٢٩ ، فمكيتان .

(٦) ما عدا الآيتين ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ فإنها مدنية .

(٧) ما عدا الآيات : ١٢ ، ١٧ ، ١١٤ ، فإنها مدنية .

(٨) ما عدا الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ ، فإنها مدنية .

(٩) ما عدا الآيتين ٢٨ ، ٢٩ ، فمدنيتان .

(١٠) ما عدا اية (٨٧) فمدنية على رواية يضعفها الكثيرون .

(١١) ما عدا الآيات ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، فإنها مدنية .

(١٢) ما عدا الآيات : ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، فإنها مدنية .

(١٣) ما عدا الآيات : ٢٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، =

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
١٩	مريم	٩٨	مكية	نزلت بعد فاطر[١]
٢٠	طه	١٣٥	مكية	نزلت بعد مريم[٢]
٢١	الأنبياء	١١٢	مكية	نزلت بعد إبراهيم
٢٢	الحج	٧٨	مكية	نزلت بعد النور[٣]
٢٣	المؤمنون	١١٨	مكية	نزلت بعد الأنبياء
٢٤	النور	٦٤	مدنية	نزلت بعد الحشر
٢٥	الفرقان	٧٧	مكية	نزلت بعد يس[٤]
٢٦	الشعراء	٢٢٧	مكية	نزلت بعد الواقعة[٥]
٢٧	النمل	٩٣	مكية	نزلت بعد الشعراء
٢٨	القصص	٨٨	مكية	نزلت بعد النمل[٦]
٢٩	العنكبوت	٦٩	مكية	نزلت بعد الروم[٧]
٣٠	الروم	٦٦	مكية	نزلت بعد الانشقاق[٨]
٣١	لقمان	٣٤	مكية	نزلت بعد الصافات[٩]
٣٢	السجدة	٣٠	مكية	نزلت بعد المؤمنون[١٠]
٣٣	الأحزاب	٧٣	مدنية	نزلت بعد آل عمران
٣٤	سبأ	٥٤	مكية	نزلت بعد لقمان[١١]
٣٥	فاطر	٤٥	مكية	نزلت بعد الفرقان

= ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، فمدنية .

(١) ما عدا الآيتين ١٥٨ ، ٧١ ، فمدنيتان .

(٢) عدا الآيتين : ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان .

(٣) ما عدا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، فنزلت بين مكة والمدينة .

(٤) ما عدا الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، فإنها مدنية .

(٥) ما عدا الآيات ١٩٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، فإنها مدنية .

(٦) ما عدا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٨٥ ، فنزلت بالجحفة أثناء الهجرة .

(٧) ما عدا الآيات ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، فإنها مدنية .

(٨) عدا الآية (١٧) فإنها مدنية .

(٩) ما عدا الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، فإنها مدنية .

(١٠) ما عدا الآيات : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، فإنها مدنية .

(١١) ما عدا الآية (٦) فإنها مدنية .

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
٣٦	يس	٨٣	مكية	نزلت بعد الجن[١]
٣٧	الصافات	١٨٢	مكية	نزلت بعد الأنعام
٣٨	ص	٨٨	مكية	نزلت بعد القمر
٣٩	الزمر	٧٥	مكية	نزلت بعد سبأ[٢]
٤٠	المؤمن	٨٥	مكية	نزلت بعد الزمر[٣]
٤١	فصلت	٥٤	مكية	نزلت بعد غافر
٤٢	الشورى	٥٣	مكية	نزلت بعد فصلت[٤]
٤٣	الزخرف	٨٩	مكية	نزلت بعد الشورى[٥]
٤٤	الدخان	٥٩	مكية	نزلت بعد الزخرف
٤٥	الجاثية	٣٧	مكية	نزلت بعد الدخان[٦]
٤٦	الأحقاف	٣٥	مكية	نزلت بعد الجاثية[٧]
٤٧	محمد	٣٨	مدنية	نزلت بعد الحديد[٨]
٤٨	الفتح	٢٩	مدنية	نزلت بعد الجمعة[٩]
٤٩	الحجرات	١٨	مدنية	نزلت بعد المجادلة
٥٠	ق	٤٥	مكية	نزلت بعد المرسلات[١٠]
٥١	الذاريات	٦٠	مكية	نزلت بعد الأحقاف
٥٢	الطور	٤٩	مكية	نزلت بعد السجدة
٥٣	النجم	٦٢	مكية	نزلت بعد الإخلاص[١١]

---

(١) ما عدا الآية (٤٥) فإنها مدنية .

(٢) ما عدا الآيتين ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، فإنها مدنية .

(٣) ما عدا الآيتين ٥٦ ، ٥٧ ، فمدنيتان ، والسورة تسمى « غافر » أيضاً .

(٤) ما عدا الآيات : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، فإنها مدنية .

(٥) ما عدا الآية (٥٤) فإنها مدنية .

(٦) ما عدا الآية (١٤) فإنها مدنية .

(٧) ما عدا الآيات ، ١٠ ، ١٥ ، ٣٥ ، فإنها مدنية .

(٨) ما عدا الآية (١٣) فإنها نزلت في الطريق أثناء الهجرة .

(٩) نزلت هذه السورة في الطريق عند الانصراف من الحديبية .

(١٠) ما عدا الآية (٣٨) فإنها مدنية .

(١١) ما عدا الآية (٣٢) فمدنية .

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
٥٤	القمر	٥٥	مكية	نزلت بعد الطارق[١]
٥٥	الرحمن	٧٨	مدنية	نزلت بعد الرعد
٥٦	الواقعة	٩٦	مكية	نزلت بعد طه[٢]
٥٧	الحديد	٢٩	مدنية	نزلت بعد الزلزلة
٥٨	المجادلة	٢٢	مدنية	نزلت بعد المنافقون
٥٩	الحشر	٢٤	مدنية	نزلت بعد البينة
٦٠	الممتحنة	١٣	مدنية	نزلت بعد الأحزاب
٦١	الصف	١٤	مدنية	نزلت بعد التغابن
٦٢	الجمعة	١١	مدنية	نزلت بعد الصف
٦٣	المنافقون	١١	مدنية	نزلت بعد الحج
٦٤	التغابن	١٨	مدنية	نزلت بعد التحريم
٦٥	الطلاق	١٢	مدنية	نزلت بعد الإنسان
٦٦	التحريم	١٢	مدنية	نزلت بعد الحجرات
٦٧	الملك	٣٠	مكية	نزلت بعد الطور
٦٨	القلم	٥٢	مكية	نزلت بعد العلق[٣]
٦٩	الحاقة	٥٢	مكية	نزلت بعد الملك
٧٠	المعارج	٤٤	مكية	نزلت بعد الحاقة
٧١	نوح	٢٨	مكية	نزلت بعد النحل
٧٢	الجن	٢٨	مكية	نزلت بعد الأعراف
٧٣	المزمل	٢٠	مكية	نزلت بعد القلم[٤]
٧٤	المدثر	٥٦	مكية	نزلت بعد المزمل
٧٥	القيامة	٤٠	مكية	نزلت بعد القارعة
٧٦	الدهر	٣١	مدنية	نزلت بعد الرحمن

---

(١) ما عدا الايات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ فمدنية .

(٢) ما عدا الآيتين ٨١ ، ٨٢ ، فمدنيتان .

(٣) إلا من الآية (١٧) إلى (٣٣) ، ومن الآية ٤٨ ، إلى ٥٠ فإنها مدنية .

(٤) إلا الآيات : ١٠ ، ١١ ، ٢٠ فإنها مدنية .

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
٧٧	المرسلات	٥٠	مكية	نزلت بعد الهمزة[١]
٧٨	النبأ	٤٠	مكية	نزلت بعد المعارج
٧٩	النازعات	٤٦	مكية	نزلت بعد النبأ
٨٠	عبس	٤٢	مكية	نزلت بعد النجم
٨١	التكوير	٢٩	مكية	نزلت بعد المسد
٨٢	الانفطار	١٩	مكية	نزلت بعد النازعات
٨٣	المطففين	٣٦	مكية	نزلت بعد العنكبوت[٢]
٨٤	الانشقاق	٢٥	مكية	نزلت بعد الانفطار
٨٥	البروج	٢٢	مكية	نزلت بعد الشمس
٨٦	الطارق	١٧	مكية	نزلت بعد البلد
٨٧	الأعلى	١٩	مكية	نزلت بعد التكوير
٨٨	الغاشية	٢٦	مكية	نزلت بعد الذاريات
٨٩	الفجر	٣٠	مكية	نزلت بعد الليل
٩٠	البلد	٢٠	مكية	نزلت بعد ق
٩١	الشمس	١٥	مكية	نزلت بعد القدر
٩٢	الليل	٢١	مدنية	نزلت بعد الأعلى
٩٣	الضحى	١١	مكية	نزلت بعد الفجر
٩٤	الانشراح	٨	مكية	نزلت بعد الضحى
٩٥	التين	٨	مكية	نزلت بعد البروج
٩٦	العلق	١٩	مكية	أول ما نزل من القرآن
٩٧	القدر	٥	مكية	نزلت بعد عبس
٩٨	البينة	٨	مدنية	نزلت بعد الطلاق
٩٩	الزلزلة	٨	مدنية	نزلت بعد النساء
١٠٠	العاديات	١١	مكية	نزلت بعد العصر
١٠١	القارعة	١١	مكية	نزلت بعد قريش
١٠٢	التكاثر	٨	مكية	نزلت بعد الكوثر

---

(١) ما عدا الآية (٤٨) فإنها مدنية .

(٢) هي آخر سورة نزلت بمكة .

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
١٠٣	العصر	٣	مكية	نزلت بعد ألم نشرح
١٠٤	الهمزة	٩	مكية	نزلت بعد القيامة
١٠٥	الفيل	٥	مكية	نزلت بعد الكافرون
١٠٦	قريش	٤	مكية	نزلت بعد التين
١٠٧	الماعون	٧	مكية	نزلت بعد التكاثر[١]
١٠٨	الكوثر	٣	مكية	العاديات
١٠٩	الكافرون	٦	مكية	نزلت بعد الماعون
١١٠	النصر	٣	مدنية	آخر ما نزل من سور القرآن[٢]
١١١	المسد	٥	مكية	نزلت بعد الفاتحة
١١٢	الإخلاص	٤	مكية	نزلت بعد الناس
١١٣	الفلق	٥	مكية	نزلت بعد الفيل
١١٤	الناس	٦	مكية	نزلت بعد الفلق

○ ○ ○

(١) الآيات الثلاثة الأولى مكيات ، والبقية مدنية .

(٢) وقدنزلت بمنى في حجة الوداع .

الفصل السادس

الناسخ والمنسوخ

أولاً ـ معنى النسخ في اللغة والاصطلاح
ثانياً ـ أهمية علم الناسخ والمنسوخ وحكمته
ثالثاً ـ ما يقع فيه النسخ
رابعاً ـ شروط النسخ
خامساً ـ ما يعرف به النسخ
سادساً ـ أقسام النسخ
سابعاً ـ السور التي فيها الناسخ والمنسوخ والخالية منها
ثامناً ـ أداة النسخ : الكتاب والسنة

الفصل السادس

الناسخ والمنسوخ

تنزل التشريعات السماوية من الله تعالى على رسله لإصلاح الناس في العقيدة والعبادة والمعاملة ، وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية والربوبية ، فقد اتفقت دعوة الرسل جميعاً إليها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥].

أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق مع الأسس العامة التي تهدف إلى تهذيب النفس ، والمحافظة على سلامة المجتمع ، وربطه برباط التعاون والإخاء ، إلا أن مطالب كل أمة تختلف عن مطالب أمة أخرى ، وما يلائم قوماً في عصر قد لا يلائمهم في آخر ، ومسلك الدعوة في طور النشأة والتأسيس يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء ، فحكمة التشريع في هذه غيرها في تلك ، ولا شك أن المشرع سبحانه وتعالى يسع كل شيء رحمة وعلماً ، ولله الأمر والنهي ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] فلا غرابة في أن يُرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول والآخر[1].

أولاً ـ معنى النسخ في اللغة والاصطلاح:

معنى النسخ في اللغة : للنسخ في اللغة عدة تعريفات منها : « الإزالة والإبطال » ، فيقال : نسخت الشمسُ الظلَّ ، أي أزالته ، وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [الحج : ٥٢] ، ويأتي بمعنى « النقل » أي نقل الشيء من موضع إلى موضع آخر فيقال : نسخت الكتاب ، أي نقلت ما فيه حاكياً للفظه وخطه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٩] ، والمراد بالآية نقل الأعمال إلى الصحف.

---

(١) ينظر : بكري شيخ أمين ، التعبير الفني في القرآن ، ٥٩ .

والنسخ في الاصطلاح : هو رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي قطعي الدلالة ومتأخر عنه . والمقصود بـ « الحكم الشرعي » : خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ، كما أن المقصود بـ « الخطاب الشرعي » : هو وحي الله مطلقاً ، متلوّاً أو غير متلوّ ، ويشمل الكتاب والسنة.

ويطلق الناسخ على الله جل وعلا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة : ١٠٦] ، كما يطلق لفظ الناسخ على الآية ، فيقال : هذه الآية ناسخة لآية كذا ، ويطلق كذلك على الحكم ، فيقال : هذا الحكم ناسخ للحكم كذا.

والمنسوخ : هو الحكم المرتفع ، فالآية القرآنية مثلاً : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٨٠] منسوخة بآية المواريث.

ثانياً ـ أهمية علم الناسخ والمنسوخ وحكمته:

لمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمسرين حتى لا تختلط الأحكام ، ولذلك وردت آثار كثيرة في الحث على معرفته فقد روي عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، أنه مرّ على قاضٍ فقال له : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، فقال : هلكت وأهلكت.

وعن ابن عباس ، رضي الله عنه ، أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] قال : ناسخَهُ ومنسوخَه ، ومُحْكَمَهُ ومتشابِهَه ، ومقدمه ومؤخرَهُ ، وحرامه وحلالَهُ[١].

وروى الحافظ ابن عبد البر عن يحيى بن أكثم أنه قال : « ليس من العلوم كلها علم هو واجب على العلماء وعلى المتعلمين وعلى كافة المسلمين ، من علم ناسخ القرآن ومنسوخه ، لأن الأخذ بناسخه واجب فرضاً ، والعمل به واجب لازم ديانةً ، والمنسوخ لا يعمل به ولا يُنتهى إليه ، فالواجب على كل عالم على ذلك ، لئلا يوجب على نفسه وعلى عباد الله أمراً لم يُوجبه الله ، أو يضع عنهم فرضاً أوجبه الله »[٢].

---

(١) الزرقاني ، مناهل العرفان ، ٢/ ٧٠ .

(٢) ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله ، ٢/ ٢٨ .

حكمة النسخ:

أما حكمة النسخ فقد ذكرها العلماء في عدة وجوه :

أولها : إظهار الربوبية : فإن النسخ يتحقق أن التصرف في الأعيان إنما هو الله سبحانه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد.

الثاني : بيان لكمال العبودية ، كأنه منتظر لإشارة ربه سبحانه كيفما وردت ، وبأي وجه صدرت ، وإنما تظهر طاعة العبد بكمال الخضوع والانقياد.

الثالث : امتحان الحرية ، ليمتاز المتمرد من المنقاد ، وأهل الطاعة من أهل العناد ، فالدار دار الامتحان ، والذهب يجرّب بالذوبان ، والعبد يجرّب بالابتلاء والهوان.

الرابع : إظهار آثار كلفة الطاعة على قدر الطاعة حيث قال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦].

الخامس : التيسير ورفع المشقة عن العباد ، برعاية المصالح ، قال تعالى : ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة : ٦].

السادس : نقل الضعفاء من درجة العسر إلى درجة اليسر ، قال تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥].

ثالثاً ـ ما يقع فيه النسخ:

من هنا يعلم أن النسخ لا يكون إلا في الأحكام الفرعية العملية من الأوامر والنواهي ، سواء كانت صريحة في الطلب ، أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي ، على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات أو أصول العقائد التي ترجع إلى وحدانية الله وذاته وصفاته وكتبه ورسله ، والإيمان باليوم الآخر ، ذلك لأن أصول العقائد حقائق ثابتة.

وكذلك لا يكون النسخ في أمهات الفضائل أو الآداب الخُلُقية ، وذلك لظهور مصلحتها كَبِرِّ الوالدين ، والأمانة ، والحفاظ على العهد ، أو الصدق في القول ، ونحو ذلك.

وكذلك لا يكون النسخ في أصول العبادات والمعاملات لأن الشرائع كلها لا تخلو عن هذه الأصول ، وهي متفقةٌ فيها ، واحدة في هذه المعاني ، لا تختلف شريعة عن أخرى ، بدليل قوله تعالى : ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣].

وكذلك لا يكون النسخ في الأخبار ، وذلك لاستحالة كذب الله تعالى في أخباره.

رابعاً ـ شروط النسخ:

يشترط في النسخ شروط عدة وهي :

١ ـ أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً.

٢ ـ أن يكون الناسخ دليلًا شرعياً متراخياً عن المنسوخ ، غير متصل به.

٣ ـ ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين ، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ولا يُعَدُّ هذا ناسخاً.

٤ ـ أن يكون الناسخ في إيجاب العلم والعمل.

٥ ـ أن يكون الناسخ والمنسوخ منصوصين بدليل الخطاب.

خامساً ـ ما يعرف به النسخ:

إن النسخ لا يعرف بدليل العقل أو القياس ، أي بالاجتهاد ، ولا يعتمد على أقوال المفسرين ، أو التعارض الظاهر بين الأدلة ، أو تأخر إسلام أحد الراويَيْن وما أشبه ذلك ، لذلك وضع العلماء طرق يعرفون بها الناسخ والمنسوخ منها :

١ ـ أن يكون منقولاً عن الصحابة نقلاً صحيحاً عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك أن الزمن الذي يسوغ فيه نسخ النصوص هو عصر الرسالة النبوية دون ما بعده ، لأن مستند النسخ هو الوحي فقط ، قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : ١٥].

٢ ـ إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.

٣ ـ معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ ، مع وجود التعارض بين النصين تعارضاً لا يمكن معه التوفيق بينهما.

سادساً ـ أقسام النسخ:

اتفق العلماء على أن النسخ أربعة أقسام :

القسم الأول : نسخ القرآن بالقرآن :

وهذا القسم متفق على جوازه ، ووقوعه من القائلين بالنسخ ، فآية الاعتداد بالحول نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرة أيام ، فالآية الأولى المنسوخة هي : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾

[البقرة : ٢٤٠] ، والآية الناسخة هي : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة : ٢٣٤].

القسم الثاني : نسخ القرآن بالسنة : وتحت هذا نوعان :

أ ـ نسخ القرآن بالسنة المتواترة : وقد أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية ، محتجين بأن الكل وحي لقوله تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣ـ٤] ، وقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤].

ومنعه الشافعي وأهل الظاهر وأحمد في الرواية الأخرى ، لقوله تعالى : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة : ١٠٦] ، والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله.

ب ـ نسخ القرآن بالسنة الأحادية : وهذا النوع من النسخ لم يجزه جمهور العلماء ، وحجتهم في ذلك أن القرآن متواتر ويفيد اليقين ، بينما السنة الأحادية تفيد الظن ، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون[1] ، وإذا اعتبرنا الحديث الأحادي ناسخ للقرآن فهذا يؤدي إما إلى رفع منزلة حديث الآحاد إلى درجة القرآن ، أوتنزيل القرآن إلى درجة حديث الآحاد في القوة الإلزامية ، واللازم باطل فكذلك الملزوم.

القسم الثالث : نسخ السنة بالقرآن :

هذا القسم من النسخ أجازه جمهور العلماء ، فتوجه المصلين إلى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة ، وليس في القرآن ما يدل عليه ، وقد نسخ بالقرآن في قوله تعالى : ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة : ١٤٤] ، ووجوب صوم يوم عاشوراء كان ثابتاً بالسنة ، ونسخ بقوله تعالى : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وللشافعي في هذا النسخ تفصيل أكثر.

القسم الرابع : نسخ السنة بالسنة : وتحت هذا القسم أربعة أنواع :

أ ـ نسخ سنة متواترة بمتواترة.

ب ـ نسخ آحاد بآحاد.

جـ ـ نسخ آحاد بمتواترة.

---

(١) المراد بـ « المعلوم » قطعي الثبوت ، والمراد بـ « المظنون » ظني الثبوت .

د ـ نسخ متواترة بآحاد.

والثلاثة الأولى جائزة ، أما النوع الرابع ففيه خلاف ، والجمهور على عدم جوازه.

وهناك تفصيل للعلماء في الناسخ والمنسوخ من حيث وجود بدل أو غير بدل فيقولون :

١ ـ قد يكون النسخ إلى غير بدل :

كنسخ الصدقة بين يدي نجوى رَسُول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة : ١٢] ، نسخت بقوله : ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [المجادلة : ١٣].

وقد أنكر بعض المعتزلة والظاهرية ذلك ،وقالوا : إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعاً ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة : ١٠٦] فالآية الثانية جاءت على سبيل العتاب ، وأنه لا بد أن يؤتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه أو مثله.

ويجاب على ذلك بأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل ، فإن هذا يكون بمقتضى حكمته ، رعاية لمصلحة عباده ، فيكون عدم الحكم خيراً من ذلك المنسوخ في نفعه للناس ، ويصح حينئذٍ أن يقال : إن الله نسخ حكم الآية السابقة بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيراً للناس.

٢ ـ وقد يكون النسخ إلى بدل أخف :

ويمثلون له بقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٧] فهي ناسخة لقوله تعالى : ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٣] لأن مقتضاها الموافقة لم كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية ، كما ذكروا ذلك ، فقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : أنزلت : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ كتب عليكم إذا صلى أحدكم العتمة أو نام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها ، فأنزل الله عز وجل ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٧].

٣ ـ وقد يكون النسخ إلى بدل مماثل :

كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة في قوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة : ١٤٤].

٤ـ وقد يكون النسخ إلى بدل أثقل :

كنسخ الحبس للزانية في البيوت في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾ [النساء : ١٥] بالجلد في قوله : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور : ٢].

بقي أخيراً حديث العلماء عن أنواع النسخ في القرآن من حيث نسخ التلاوة والحكم معاً ، ونسخ الحكم وبقاء التلاوة ، ونسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

ولما كان الاختلاف في هذه الأمور بين العلماء كبيراً ، وقد آثرنا تجاوز الحديث عنها ، وتجاوز تلك الخلافات لعلها إلى الأصول والفقه أقرب منها إلى موضوعنا.

سابعاً : السور التي فيها الناسخ والمنسوخ والخالية منهما:

أما تفضيل السور التي فيها الناسخ والمنسوخ ، والتي فيها نسخ فهي كما يلي :

السور التي ليس فيها ناسخ ولا منسوخ وهي : ثلاثة وأربعون سورة : سورة الفاتحة ويوسف ويس ، والحجرات والرحمن والحديد ، والصف والجمعة والتحريم ، والملك والحاقة ونوح والمرسلات ، والجن والنبأ والنازعات والانفطار ، والمطففين والانشقاق ، والبروج والفجر ، والبلد والشمس ، والليل والضحى ، وألم نشرح والقلم ، والقدر ولم يكن ، وزلزلت والعاديات ، والقارعة والتكاثر ، والهمزة والفيل ، ولإيلاف وأرايت ، والكوثر والنصر وتبّت ، والإخلاص والفلق والناس.

وأما السور التي فيها الناسخ وليس فيها المنسوخ فهي ست سور : الفتح ، والحشر ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، والأعلى.

وأما السور التي فيها المنسوخ وليس فيها الناسخ فهي أربعون سورة : الأنعام والأعراف ويونس وهود ، والرعد والحجر والإسراء ، والنحل والكهف وطه ، والمؤمنون والنمل والقصص ، والعنكبوت والروم ولقمان ، والمضاجع وفاطر والصافات وص ، والزمر وفصلت والزخرف والدخان ، والجاثية والأحقاف وسورة سيدنا محمد ﷺ ، وق والنجم والقمر والممتحنة ، ون والمعارج والقيامة ، والإنسان وعيسى والطارق ، والغاشية والتين والكافرون.

وأما السور التي اجتمع فيها الناسخ والمنسوخ فهي خمس وعشرون سورة :

البقرة وآل عمران ، والنساء والمائدة والأنفال ، والتوبة وإبراهيم ومريم ، والأنبياء والحج والنور ، والفرقان والشعراء والأحزاب ، وسبأ والمؤمنون والشورى ، والذاريات والطور والواقعة ، والمجادلة والمزمل والمدثر ، والتكوير والعصر.

فهذه هي الأنواع التي لا بد من معرفتها من أمر الناسخ والمنسوخ[1].

ثامناً : أداة النسخ : الكتاب والسنة:

لقد تقدم أن عصر النسخ هو عهد الرسالة النبوية ، أما بعده فلا . . لأن مستند النسخ هو الوحي متلواً كان أم غير متلو . . فما كان متلواً فهو الكتاب ، وما كان غير متلوٍ فهو السنة[2].

فأداة النسخ : هو الوحي ، والوحي مطلقاً ! قال الله تعالى آمراً نبيه بقوله الحق : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [يونس : ١٥] ، فعلمنا أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يبدِّل شيئاً من تلقاء نفسه ، وإنما هو الوحي المأمور بتبليغه للناس ، من الوحي المتلو وهو القرآن ، أو غير المتلو وهو السنة ، الذي فُوِّضَ فيه بالتعبير ، فيبينه بعبارته عليه الصلاة والسلام وهذا حكم ثابت من الله تعالى بدليل مقطوع به بمنزلة الحكم ، المتلو من القرآن ، ودليل ذلك أن الله تعالى فرض علينا تصديق رسوله واتباع أمره في هذين النصين من القرآن : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١].

فبهذا التقرير يتبين أن بالوحي الذي هو غير متلو يجوز أن يبين مدة بقاء الحكم المتلو ، كما يجوز أن يتبين ذلك بالوحي الذي هو متلو ، ألا ترى أنه إذا بلغنا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد بيّن حكم ما هو ثابت بوحي متلو : أن هذا الحكم ثابت إلى الآن وقد انتهى وقته ، فلا تعملوا به بعده ، ألا يلزمنا تصديقه واتباعه ؟ الجواب : بلى ! ! إن ذلك يؤدي إلى تعظيم رَسُول الله ﷺ[3].

ودليل ثبوت نسخ الكتاب بالسنة ما جاء في الحديث : أن رَسُول الله ﷺ قرأ في صلاته سورة المؤمنون ، فأسقط منها آية ، ثم قال : بعد الفراغ « ألم يكن فيكم أُبَيّ » ؟

---

(١) الفيروز أبادي ، بصائر ذوي التمييز ، ج١ بحث : الناسخ والمنسوخ .

(٢) ينظر : السرخسي ، أصول السرخسي ، ٢/ ٧٢ وما بعدها .

(٣) السرخسي ، أصول السرخسي ٢/ ٧٤ .

فقالوا : بلى يا رسول الله ، فقال : « هلا ذكّرنيها » ، فقال : ـ أي : أُبيّ ـ : « ظننت أنها نُسِخَتْ » فقال : « لو نُسِخَتْ لأنبأتكم بها »[1] .

فاعتقاد الصحابة أن الكتاب تنسخ أحكامه بالسنة ، والرسول عليه الصلاة والسلام لم ينكر عليهم ذلك ، يدل دلالة قطعية على جواز نسخ الكتاب بالسنة ـ فإذا ثبت بهذا الخبر جواز نسخ التلاوة بغير الكتاب ـ أي : بالسنة ، فكذلك جواز نسخ أحكام الكتاب بالسنة أيضاً .

ومما عدّه العلماء من نسخ الكتاب بالسنة قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا وصية لوارث » ، بأنه نسخ حكم آية الوصية للوالدين والأقربين[2] .

* * *

(١) المصدر نفسه ، ٢/ ٧٥ .

(٢) ينظر : الشوكاني ، إرشاد الفحول ، ١٩١ .

الفصل السابع

المحكم والمتشابه

أولاً ـ معنى المحكم والمتشابه في اللغة والاصطلاح

ثانياً ـ الحكمة من إنزال الآيات المتشابهة في القرآن ، وفوائد هذا الإنزال

ثالثاً ـ مقدار انتشار الآيات المتشابهة في القرآن

رابعاً ـ الدليل الذي يرجع إليه المفسرون في معرفة المحكم والمتشابه

خامساً ـ الاختلاف في معرفة المتشابه

سادساً ـ الوقوف على بعض الشواهد التطبيقية من خلال آي القرآن الكريم

الفصل السابع

المحكم والمتشابه

لقد وردت في القرآن الكريم كثير من الآيات التي لا سبيل للإنسان أن يدرك معناها بأكثر مما يدل عليه ظاهر ألفاظها عرفت باسم (الآيات المتشابهة) التي طعن فيها المعترضون والواهمون وثار حولها الجدل والخلاف المذهبي ، لأن أكثر ما وقع من طعون وشكوك وأوهام في القرآن الكريم هو في الآيات المتشابهة بسبب التناقض الظاهر في المعاني ، ويقف في مقابلتها الآيات الواضحة الدلالة البيّنة المعنى التي عرفت باسم (الآيات المحكمة) .

ولقد أطال المفسرون والباحثون من علماء الأمة الإسلامية في تلك المسألة الخطيرة لمعرفة دلالة المتشابه التي تتعلق بأسباب الإيمان ، وأسرار العقيدة ، وجرت تأويلات متعددة على ألسنتهم حيالها ، إلا أن الاختلاف الكبير بينهم في هذا المجال يجعل من الصعف ترجيح ما توصلوا إليه من دلالات على سبيل القطع لأن الشارع قد استأثر بعلمه فيه ، والراسخون في العلم على خلاف كبير في ذلك أيضاً ، وكذلك وقفوا عند كثير من الآيات المحكمة ففسروها وأصّلوا الاستدلال بها كل في موضوعه الخاص .

ونظراً لأهمية البحث في المحكم والمتشابه يجدر بنا أن نوضح قبل كل شيء حقيقة المحكم والمتشابه في اللغة والاصطلاح ، والحكمة من إنزال الآيات المتشابهة في القرآن ، وفي مقدار انتشار الآيات المتشابهة في القرآن ، والدليل الذي يرجع إليه المفسرون في معرفة المحكم والمتشابه ، ثم نورد بعد ذلك بعض الشواهد الموضحة لرد الآيات المتشابهات إلى أختها المحكمات ، وسنرى في هذه الأمثلة المؤشرات الإعجازية التي أحدثها هذا الأسلوب من خلال نشاط إعمال الفكر والنظر المجدد في الآيات المتشابهة لتحمل على الوجه الذي يطابق الآيات المحكمة حسماً للنزاع ورداً للإشكال وكشفاً للغموض .

أولاً ـ معنى المحكم والمتشابه في اللغة والاصطلاح:

فاللغويون يستعملون مادة الإحكام (بكسر الهمز) في معان متعددة ، لكنها مع

تعددها ترجع إلى شيء واحد ، هو المنع ، فيقولون : أحكم الأمر ، أي أتقنه ومنعه عن الفسادِ ، ويقال : هذا بناء محكم ، أي : مأمون الانقضاض.

قال ابن منظور (ت ٧١١هـ) في لسان العرب : « المحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، فعيلٌ بمعنى مُفْعَلٍ ، أُحْكِمَ فهو مُحكمٌ . . وقيل : هو ما لم يكن متشابهاً لأنه أُحكِمَ بَيَانُه بنفسه ولم يفتقر إلى غيره »[1].

ويقولون : أحكمه عن الأمر ، أرجعه عنه ومنعه منه ، ويقولون : حكم نفسه وحكم الناس أي منع نفسه ومنع الناس عما لا ينبغي.

ويقولون : أحْكَمَ الفرس أي جعل له حَكَمَة (بفتحات ثلاث) . والحَكَمَة : ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه تمنعه من الاضطراب.

وآتاه الله الحكمة : أي العدل أو العلم ، أو الحلم ، أو النبوة ، أو القرآن.

وكذلك يستعمل اللغويون مادة التشابه فيما يدل على المشاركة في المماثلة والمشاكلة ، المؤدية إلى الالتباس غالباً ، تقول : تشابها واشتبها أي اشتبه كل منهما الآخر حتى التبسا . ويقال : أمور مشتبهة ومشبهة . والشُّبهة (بالضم) الالتباس . ومنه قوله تعالى وصفاً لرزق الجنة : ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ ﴾ [البقرة : ٢٥] ، ومنه قوله حكاية عن بني إسرائيل : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة : ٧٠].

وبناءً على هذا التفسير اللغوي لكل من اللفظين نستطيع أن نقول : إن القرآن كله محكم ، إن أردنا بإحكامه إتقانه ، ومجال نظمه ، بحيث لا يتطرق إليه الضعف في ألفاظه ومعانيه ، وبهذا المعنى أنزل الله قوله الكريم : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود : ١] ، كما نستطيع أن نقول : أن القرآن كله متشابه ، إن أردنا بتشابهه تماثل آياته في البلاغة والإعجاز ، وصعوبة المفاصلة بين أجزائه ، وبهذا المعنى نزل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ [الزمر : ٢٣].

فالإحكام والتشابه في كل من الآيتين السابقتين ليس مثار بحثنا عن محكم القرآن ومتشابهه[2].

إن مدارك كلام المفسرين والباحثين في بيان المعنى الاصطلاحي للمحكم والمتشابه يدور حول الآية الكريمة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ١٢/ ١٤١ .

(٢) ينظر : الزرقاني ، مناهل العرفان ، ٢/ ١٦٦ .

ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧].

أما المعنى الاصطلاحي : فقد اختلف المفسرون في تعريف المحكم والمتشابه وهم على أقوال متعددة ، ونحن لسنا بصدد الوقوف على أقوالهم المتعددة ، ففي ذلك تكرار وإطالة للبحث ، إلا أن الملاحظ على هذه الأقوال التي وإن اختلفت في الألفاظ ، إلا أنها متفقة من حيث المآل[1] ، فكلها تستهدف تحديد مضمون كل منهما .

فالمحكم : هو اللفظ أو الكلام الواضح الدلالة ونعلم المراد من ظاهره من غير قرينة تقترن إليه ولا دلالة تدل على المراد به لوضوحه ، وهو الذي لا يقبل النسخ إضافة إلى عدم قبوله للتخصيص والتأويل .

والمتشابه : هو اللفظ الذي خفيت دلالته وتعذرت معرفته ، ولم تقم قرائن تدل عليه ، أي لا يظهر له معنى من اللفظ ، أو من أي طريق آخر من طرق الدلالة[2] .

ومما ورد في هذا الصدد من تعريفات اصطلاحية : قال السيوطي (ت ٩١١هـ) :

المحكم ما عرف المراد منه ، إما بالظهور ، وإما بالتأويل .

والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة ، وخروج الدجّال ، والحروف المقطعة في أوائل السور .

وقيل : المحكم ما وضح معناه والمتشابه نقيضه .

وقيل : المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتمل أوجهاً .

وقيل : المحكم ما استقل بنفسه ، والمتشابه ما لا يستقل إلا بردِّه إلى غيره[3] .

---

(١) ينظر في هذه التعريفات عند كل من : الطبري ، جامع البيان ، ٣/ ١٧٣ـ١٧٥ والطوسي ، التبيان ، ٢/ ٣٩٤ـ٣٩٥ والزمخشري ، الكشاف ، ١/ ٤١٢ ، والرازي ، التفسير الكبير ، ٧/ ١٨٢ـ١٨٣ والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٤/ ١٠ والشوكاني ، فتح القدير ، ١/ ٣١٤ .

(٢) استنتجت هذين التعريفين من التعريفات التي ذكرها المفسرون في الهامش السابق .

(٣) السيوطي ، الإتقان ، ٣/ ٤ .

ثانياً ـ الحكمة من إنزال الآيات المتشابهة في القرآن وفوائد هذا الإنزال:

أما الحكمة من إنزال الآيات المتشابهة في القرآن وفوائد هذا الإنزال ، فقد توسع علماء الأمة الإسلامية[1] في ذكر بيان حكمة هذا التشابه ، وأماطوا النقاب عنها في وجود متعددة ، ولا نريد هنا عرض كل ما جاء به علماؤنا من هذه الوجوه ، إلا أننا نقف عند أكثرهم سعة وتفصيلاً :

فقد ذكر الشيخ الجليل محمد بن علي بن شهراشوب[2] (ت ٥٨٨هـ) في كتابه « متشابهات القرآن ومختلفه » وجوهاً متعددة تتصل بالفائدة في إنزال المتشابهات وهي :

١ـ إن الحكمة في وجود المتشابهات لو لم تكن أجل وأنفع من وجود المحكمات فليست بأقل فإن القرآن سفر هداية عامة لجميع أجيال البشر وينبوع علم خالد ما دام الإنسان والأكوان ، فإن اقتصر فيه على المحكمات الواضحة لم ينطوِ الكتاب على تجدد فكري وتطور نظري ، والقرآن غض طري في كل عصر ومصر ليستظرفه أبناء كل جيل وقبيل ، وما ذلك إلا بفضل متشابهه وتشبيهاته ومجازاته واستعاراته وتفنناته وكناياته.

٢ـ لأهل العصر في مختلف الدهور أذواق متلونة وأذواق متفننة وهذا الاختلاف الطبيعي لا يستقيم مع المحكمات وإنما يبقى محفوظاً وملحوظاً في المتشابهات.

٣ـ إن أسرار العلوم تتجلى على أوجه التدريج حسب تدرج الحضارة وارتقاء البشر دوراً فدوراً وطوراً فطوراً ، وضروري للقرآن الخالد أن يمشي مع البشر حسب تدرج علمه وتلون حضارته ، وإلا فإن تلكأ يصطدم السير في جيل واحد . . . فإن اقتصر على

---

(١) ينظر : الطوسي ، التبيان ، ٢/٣٩٦ـ٣٩٧ والزمخشري ، الكشاف ، ١/٣٣٨ والرازي ، التفسير الكبير ، ٧/١٨٣ـ١٨٤ ومحمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ٣/١٦٣ـ١٦٩ ، والشوكاني ، فتح القدير ، ١/٣١٨ .

(٢) هو أبو جعفر رشيد الدين ، محمد بن علي بن شهراشوب المازاندراني (ت٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) . فاضل إمامي عالم بالحديث والأصول ، من سارية مازندران ، خافهُ واليها ، فأمره بالخروج منها ، فذهب إلى بغداد في أيام المقتفي ، وعظمت منزلته ، ثم انتقل إلى الموصل ، واستقر في حلب وتوفي بها ، من كتبه : « الفصول » في النحو ، و« أسباب نزول القرآن » و« مناقب آل أبي طالب » و« المكنون والمخزون في عيون الفنون » و« معالم العلماء في التراجم والتصانيف » وغيرها : [ينظر : الذهبي سير أعلام النبلاء ، ٤/٣٠٨ وابن حجر العسقلاني ، لسان الميزان ، ٥/ ٣١٠] .

المحكمات في عصر النزول عجز في أن يحافظ لنفسه على المزية المطلوبة في بقية العصور ، أما المتشابهات ففي وسعها المحافظة على المطلوب .

٤ـ إن العلوم التي كانت معروفة في عصر النبوة ومصرها هي على اختلاف عظيم مع العلوم التي في القرون الوسطى ، كما هي على اختلاف عظيم مع العلوم العصرية ، فلو كان القرآن يصرح بالتحرك للأرض مثلاً كآية محكمة لرماه الناس في عصر النبي ﷺ ومصره بالجهالة .

٥ـ إن القرآن معجزة الإسلام الباقية ببقاء الدهور والبشر ، فلا بد من اشتماله على المعجزات العلمية والأسرار الغيبية لأبناء كل جيل .

٦ـ إن هذا القرآن الذي تحدى فصحاء العرب والعجم وبلغاء الأمم بأنه معجز لا يبارى ، لا بد أن يستكثر في آياته المجازات والاستعارات والكنايات والمحاسن البديعية صيانة لروعة إيجازه وإعجازه فتنقلب إلى المتشابهات بالطبع .

٧ـ إن القرآن كتاب أممي ومعلم عالمي ، له تلاميذ من كل جيل وقبيل ، وله قرار من كل زمان ومكان ، فهو مربّي عقول متنوعة ومغذي أذواق مختلفة مراعياً خصوصيات الاتباع والأطباع حسب الأوقات والتباع والامتناع ، فمن الضروري أن يدّخر من شتى العلوم والمعارف وصنوف الأفكار .

٨ـ إن الأمم لا بد أن تدين بالإسلام في كل زمان ومكان وفق أي لسان ، وعليها أن تتعلم القرآن ، وهذا التعلم يختلف حسب اختلاف المترجمين والمفسرين ودرجات علومهم . . . [١] .

وفي الحق أن الذي جعل بعض علماء الأمة الإسلامية وباحثيها يطنبون في تلك التأويلات هو مذاهبهم المتعددة ، إذ أخضعوا كتاب الله في كثير من آياته لما يتناسب مع أهوائهم ومذاهبهم التي يتعصبون لها وينتصرون إليها [٢] .

إن هدف القرآن جمعه الكلمة ولم شتات الأمة وهداية الناس إلى الحق الذي لا ريب فيه ، وتنوير البصائر بالحقائق المتمحصة عن الشكوك والشبهات ، والانفتاح العقلي المتواصل الذي يوجب العلم ، فراراً من الجمود وتهرباً من

---

(١) ينظر : ابن شهراشوب ، متشابهات القرآن ومختلفه ، ٢/ ٢٨٩ـ٢٩٠ .

(٢) وهذا من التفسير أو التأويل الغير جائز ، إذ أن الواجب من المفسر أن يجعل ميوله وأهواءه تابعة للقرآن ، لا أن يجعل القرآن تابعاً لميوله وهواه .

التقوقع في فلك واحد ، وتخلصاً من ظلمة التقليد « ولولا ذلك لما بان منزلة العلماء وفضلهم على غيرهم ، لأنه لو كان كله محكماً لكان من يتكلم باللغة العربية عالماً به ، ولا كان يشتبه على أحد المراد به فيتساوى الناس في علم ذلك ، على أن المصلحة معتبرة في إنزال القرآن ، فما أنزله متشابهاً لأن المصلحة اقتضت ذلك ، وما أنزله محكماً فلمثل ذلك »[1] .

ثالثاً ـ مقدار انتشار الآيات المتشابهة في القرآن:

لقد أوضح الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) هذا المقدار فقال : « الثابت من ذلك القلة لا الكثرة لأمور :

أحدها : النص الصريح ، وذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] فقوله في المحكمات ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يدل أنها المعظم والجمهور .

وأم الشيء معظمه وعامته . . . فإذا كان كذلك فقوله تعالى : ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ إنما يراد بها القليل .

والثاني : إن المتشابه لو كان كثيراً لكان الالتباس والإشكال كثيراً . وعند ذلك لا يطلق على القرآن أنه بيان وهدى . . . وإنما نزل القرآن ليرفع الاختلاف الواقع بين الناس ، المشكل الملتبس إنما هو إشكال وحيرة لا بيان وهدى ، لكن الشريعة إنما هي بيان وهدى ، فدل على أنه ليس بكثير . . »[2] .

وهذا التحديد الذي ذكره الشاطبي في مقدار المتشابه والواقع في القرآن لا يخلو من بعد منطقي .

رابعاً ـ الدليل الذي يرجع إليه المفسرون في معرفة المحكم والمتشابه:

لقد فصّل القول في هذا الموضوع الإمام الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) في تفسيره (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية) إذ أنه بنى رأياً صريحاً وواضحاً فقال : « إن من جملة ما يصدق عليه تفسير المتشابه الذي قدمناه فواتح السور ، فإنها غير متضحة المعنى ، ولا ظاهرة الدلالة ، لا بالنسبة إلى نفسها لأنه لا يدري من يعلم بلغة العرب ، ويعرف عرف الشرع ما معنى ألم ، ألمر ، حم ، طس ، طسم ونحوها ، لأنه

---

(١) الطوسي ، التبيان ، ٢/٣٩٦ .

(٢) الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة ، ٣/٨٦ـ٨٧ .

لا يجد بيانها في شيء من كلام العرب ولا من كلام الشرع ، فهي غير متضحة المعنى لا باعتبار نفسها ، ولا باعتبار أمر آخر يفسرها ويوضحها ، ومثل ذلك الألفاظ المنقولة عن لغة العجم ، والألفاظ الغريبة التي لا يوجد في لغة العرب ولا في عرف الشرع ما يوضحها ، وهكذا ما استأثر الله بعلمه كالروح وما في قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . . ﴾ [لقمان : ٣٤] إلى آخر الآية ، ونحو ذلك ، وهكذا ما كانت دلالته غير ظاهرة لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره كورود الشيء محتملاً لأمرين احتمالاً يترجح أحدهما على الآخر باعتبار ذلك الشيء في نفسه ، وذلك كالألفاظ المشتركة مع عدم ورود ما يبين المراد من معنى ذلك المشترك من الأمورالخارجة ، وكذلك ورود دليلين متعارضين تعارضاً كلياً بحيث لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر لا باعتبار نفسه ولا باعتبار أمر آخر يوضحه »[1] .

وانتقل الشوكاني بعد ذلك إلى توضيح الدليل في معرفة المحكم فقال :

« وأما ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه بأن يكون معروفاً في لغة العرب وفي عرف الشرع أو باعتبار غيره وذلك كالأمور المجملة التي ورد بيانها في موضع آخر من الكتاب العزيز أو في السنة المطهرة ، أو الأمورالتي تعارضت دلالتها ، ثم ورد ما يبين راجحها من مرجوحها في موضع آخر من الكتاب أو السنة أو سائر المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة عند أهل الإنصاف ، فلا شك ولا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه ، ومن زعم أنها من المتشابه فقد اشتبه عليه الصواب »[2] .

إن هذا الرأي الذي أوضحه الشوكاني في أنه إذا لم توجد أدلة أو أمارات لا من داخل الآية ولا من خارجها يكون مما استأثر الله بعلمه ، يكون هو الرأي الأصوب والأرجح لما وجدناه من بقية الآراء التي أطلعنا عليها في معظم التفاسير الكبرى[3] ، وهذا الرأي هو ما نميل إليه ونرجحه ونطمئن إليه ، لأنه جاء منسجماً مع أسباب النزول ، وهدف القرآن وأغراضه ، وسياق الآيات ودلالاتها .

---

(١) الشوكاني ، فتح القدير ، ١/ ٣١٧ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٣) ينظر : الطبري ، جامع البيان ، ٣/ ١٧٠ وما بعدها والطوسي ، التبيان ، ٢/ ٣٩٤ـ٣٩٥ والزمخشري ، الكشاف ، ١/ ٤١٢ وما بعدها ، والطبرسي ، مجمع البيان ، ٢/ ٤٠٩ـ٤١٠ والرازي ، التفسير الكبير ، ٧/ ١٧٨ وما بعدها ، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٤/ ١٠ وما بعدها .

خامساً ـ الإختلاف في معرفة المتشابه:

وقع اختلاف كبير بين العلماء في إمكان معرفة المتشابه ، وذهب أكثر العلماء إلى أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، وقد قرأوا الآية السابقة على النحو التالي : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾. وهنا يقفون ويعتبرون الكلام التالي مستأنفاً ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا ﴾ ويعتبرون : ﴿ ٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ مبتدأ خبره : جملة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ والواو للاستئناف ، والوقف على قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أو هو معطوف ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ حال ، والوقوف على قوله ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾.

فذهب إلى الرأي الأول الذي هو (الاستئناف) طائفة منهم :

أُبيّ بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين وأتباعهم ، مستدلين بمثل ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به ».

وبما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة . وحديث رواه الشيخان عن طريق عائشة قالت : تلا رَسُول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ قالت : قال رَسُول الله ﷺ : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم »[1].

وذهب إلى الرأي الثاني (العطف) طائفة من العلماء على رأسهم مجاهد بن جبر فقد قرأوا الآية على الوجه التالي : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ فتكون الواو في « الراسخون » عاطفة « والراسخون » معطوف على لفظ الجلالة ، وجملة « يقولون » حالية.

وكذلك ذهب إلى هذا الرأي ابن عباس ، فقد روي عنه قوله : أنا ممن يعلم تأويله . كما روي عن مجاهد قوله : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ، ويقولون آمنا به.

وروي عن الضحاك قوله : « الراسخون في العلم يعلمون تأويله ، ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه أو لا حلاله من حرامه ، ولا محكمه من متشابهه ، واختار النووي هذا القول فقال في شرح مسلم : أنه الأصح ، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته[2].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ٣/ ١١ .

وقد توسط الراغب الأصبهاني فقسم المتشابه من حيث إمكان الوقوف على معناه إلى ثلاثة أضرب :

١ـ ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه ، كوقت الساعة ، وخروج الدابة ونحو ذلك.

٢ـ وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة ، والأحكام المغلقة.

٣ـ وضرب متردد بين الأمرين يختص به الراسخون في العلم، ويخفى على من دونهم، وهو المشار إليه بقوله ﷺ لابن عباس : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[(١)].

ولا ريب أن في رأي الراغب قصداً واعتدالاً ، فذات الله ، وحقائق صفاته لا يعلمها إلا الله ، وفي هذا المعنى يقول ﷺ في دعائه : « أنت كما أثنيت على نفسك ، لا أحصي ثناء عليك » والعلم بالغيب مما استأثر الله بعلمه ، مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤].

إن في خفاء هذه الأمور وأمثالها ،وعجز الإنسان عن الوصول إليها ما يقلل غروره ، ويخفض من كبريائه ، ويحمله على أن يقول : ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢].

سادساً ـ الوقوف على بعض الشواهد التطبيقية الموضحة لرد الآيات المتشابهات إلى أختها المحكمات:

التي كانت تتعلق بالمطاعن على القرآن ، وسنقف على مسائل متفرقة في موضوعاتها الخاصة وآراء العلماء في ذلك مثل :

الوقوف على آيات الصفات التي يوهم ظاهرها التجسيم ومشابهة المخلوقات في كل من قوله تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥].

و﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة : ٢٩].

و﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤ ، يونس : ٣ ، الرعد ، ٢ ، الفرقان : ٥٩ ، السجدة ، ٤ ، الحديد : ٤].

---

(١) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، ١/١٥٥ والحديث في البخاري : « اللهم علمه الكتاب » والإمام مسلم ، الجامع الصحيح ، ٤/١٩٢٧ .

إن عقيدة التنزيه القطعية الثابتة بالعقل والنقل كانت مانعة لكل من يتوهم أن في التعبير بالاستواء على العرش تشبيه الخالق بالمخلوق ، لكن ينبغي أن يعتقد إن أريد به معنى يليق بجلال الله وعظمته مما ليس بجسم أو توابعه ، لأنه سبحانه وتعالى ليس قالباً حسياً ولا جسماً مرئياً متحركاً يعرض للتنقل هنا وهناك كأجسامنا ، فاستواؤه هنا سيطرته وسلطانه وكمال قدرته وإحاطته بكل أمر حتى لا يفوته شيء ، إذ ليس لمعنى الاستواء بالنسبة إليه تعالى كاستوائنا وسيطرتنا من إحكام للأمر أو ضبط للشؤون ، وإنما ذلك بالنسبة للباري عز وجل فوق مدرك عقولنا لاستحالة اتصافه بصفات المخلوقين ، ولوجوب تنزيهه تعالى عما لا يليق به ولا يجوز عليه ، استناداً إلى الآية المحكمة في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص : ٤].

وما يقال هنا يقال بالنسبة إلى الآيات الأخر التي لو أريد بها ظاهرها لكانت تشبيهاً وتجسيماً ، ولكن الموضوع ينقلب إلى تنزيه الباري عز وجل من الصفات التي يتمتع بها الناس ، والابتعاد عن المتعارف من الجوارح والأحداث ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة : ٢١٠].

فإذا حملنا هذه الآيات على ظاهرها ، وهو اتصاف الخالق سبحانه وتعالى بالمجيء والإتيان ، فقد وقعنا في التجسيد تارة ، واصطدمنا بإشغال المكان بالنسبة إليه تارة أخرى ، وكلا الأمرين باطل من الأساس في العقيدة ، فالمجيء هنا لأمر الله وقدرته وقوته وإرادته ، وليس لذاته القدسية ، والمراد بالإتيان هنا إتيان الملائكة أو محتملي أمره ، لأنه لا يوصف بالذات المتنقلة ، القادمة ، أو الذاهبة ، أو المتحركة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، إذ لا بد من رد هذه الآيات المتشابهة إلى أختها المحكمة ، وبدلالة القرآن نفسه في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر : ٧٨] ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ ﴾ [هود : ٧٦] وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ ﴾ [النحل : ٣٣][1].

والقرينة التي تدلنا على إرادة هذا الاستعمال تستفاد من الجملة باستحالة صدور ذلك الشيء من فاعله عقلاً ، وإنما يكون من أمره وفي نطاق مقدوره ودائرته ، ولنفي كل

---

(١) ينظر : القاضي عبد الجبار ، متشابه القرآن ، ١/ ١٢٠ـ١٢١ وينظر له : تنزيه القرآن عن المطاعن ، ٤٨ .

مشابهة بين الله تعالى وبين أحد من خلقه.

وفي قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٩] فإننا نجد كلمة ﴿محيط﴾ تحمل دلالة بارزة جديدة ، تتعدى معنى الإحاطة التقليدية ، التي اعتاد السامع إدراكها مركزياً من اللفظ ، فليست إحاطته ها هنا إحاطة مكانية ، أو ظلية ، أو جسمية ، كإحاطة القلادة بالجيد ، أو السوار بالمعصم ، أو الخاتم بالبنان ، وإنما هي إحاطة مطلقة خارجة عن حدود الإحاطات المتعارفة ، وبديهي أن يراد بها إحاطة ذي القوة بمن ليس له قوة ، وكإحاطة ذي الشأن المتعالي بمن لا يدانيه سيطرة وإعداداً ، إذ لا يمكن أن تفسر هذه الإحاطة بالمكان ، وإن استوعبت حدود كل مكان ، لأن الله تعالى فوق حدود المكان.

وفي كل من قوله تعالى :

أ ـ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧].

ب ـ ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨].

جـ ـ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤].

د ـ ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : ١٤].

في هذه الآيات إطراء بالخلود تارة ، وإشارة بالقوى والقدرة تارة أخرى ، وإشعار بالعناية سواهما ، وتشبث في الحركة والنقلة لمن حمل الأمر على ظاهره ، ولكن الموضوع ينقلب إلى تنزيه الله سبحانه عن الصفات التي يتمتع بها الناس والابتعاد عن المتعارف من الجوارح والأحداث.

ففي الآيتين (أ ، ب) أطلق الوجه باعتباره أشرف الأعضاء لمن يتصف بها وهي قابلة له ، ،أريد به هنا الذات القدسية دون إرادة التجسيم أو التركيب أو الكيفية أو المواصفات في الوجه وأجزائه.

والنظر العقلي دال على أن الباري فوق المحدثات والممكنات ، ولو كان له وجه حقيقة لكان محدثاً أو ممكناً ، وهو خلاف ذاته الأبدية والأزلية.

وفي الآية (جـ) نرى أنها تتحدث عن يد ويدين ، وليس لنا أن نتصور اليد ذات الأصابع ، أو اليدين في رسغ ومعصم وذراع ، وإنما هو التعبير بكلا الموضعين دون النظر إلى الواحدة أو الإثنينية ، عن القوة والسيطرة والقدرة ، والاستيلاء حيناً ، وعن

الكرم والجود والإفاضة حيناً آخر ، وذلك لوجود علاقة مناسبة بين هذه الصفات وهذه الملكات وبين اليد أو اليدين ، فإن مظاهر القوة والمقدرة إنما تصدر عن اليد وبها يتجلى مدى الاستيلاء المطلق ، وإن الفضل والنعمة والعطاء إنما تصدر عن اليد أيضاً وبها يتبين نوع الكرم والإيثار.

كما أنه تعالى ليس له عين في الآية (د) بالمعنى الحقيقي ، فهو بصير دون عين ، وسميع دون أذن ، والمراد بالآية : أن تجري بمرأى منا ، وبتسديد من رعايتنا ، وبنظرة من عنايتنا ، دون تصوير العين الباصرة.

وما يقال بالنسبة للآيات المتماثلة التي تنص على ذكر الجوارح ، إذ لا بد من تنزيه الخالق عن مشابهة المخلوقات ، وإفادة ديمومته غير المحدودة ، فهو كائن قبل الكون ، وخالد بعد الفناء ، ومستمر في أمثولة البقاء ، فهو حي لا يموت ، باقٍ بعد فناء الأشياء ، وأزلي في كل تقلبات الأحوال لقوله جل شأنه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١].

وللعلماء في متشابه الصفات مذهبان :

الأول : مذهب السلف : وهو الإيمان بهذه المتشابهات ، وتفويض معرفتها إلى الله تعالى ، فقد سئل الإمام مالك عن قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] فقال : « الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ».

الثاني : مذهب الخلف : وهو حمل اللفظ الذي يستحيل ظاهره على معنى يليق بذات الله ولا تأباه اللغة العربية ، فيحملون مثل هذه الألفاظ التي وردت في الآيات السابقة على معنى يليق بجلال الله وعظمته مما ليس بجسم أو توابعه ، كما لاحظنا ذلك.

ولعل اشتمال القرآن على المتشابه ، وعدم اقتصاره على المحكم وحده ، دليل على الإعجاز البياني ، استطاع فيه القرآن أن ينقل الذهن العربي إلى أفق جديد متميز بالابتكار ، متحدثاً إلى الطبيعة الإنسانية ويدور في فلكها بما يلائم فطرتها النقية ، مما يجعلها أهلاً لتلقي النص بذائقة سليمة ، من خلال هذه الأمارات والعلامات الفنية ، وعلى دفع التعارض بين ظواهر النصوص ، ولرد كل الشبهات والمطاعن على القرآن الكريم .

○ ○ ○

الفصل الثامن

ترتيب آيات القرآن وسوره

أولاً ـ تعريف الآية والسورة .

ثانياً ـ عدد السور وأسماؤها واختلاف مقاديرها

ثالثاً ـ ترتيب الآيات والسور

(أ) ـ ترتيب الآيات

(ب) ـ ترتيب السور

رابعاً ـ حكم مخالفة ترتيب المصحف

الفصل الثامن

ترتيب آيات القرآن وسوره

أولاً ـ تعريف الآية والسورة:

١ ـ تطلق (الآية) في اللغة على معان متعددة ، منها :

أ ـ المعجزة ، ومنه قوله تعالى : ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة : ٢١١] أي معجزة واضحة.

ب ـ العلامة ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة : ٢٤٨] أي علامة ملكه.

جـ ـ العبرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٨]. أي عبرة لمن يعتبر

د ـ الأمر العجيب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون : ٥٠].

هـ الجماعة ، ومنه قولهم : خرج القوم بآيتهم ، أي بجماعتهم ، والمعنى : أنهم لم يدعوا وراءهم شيئاً.

وـ البرهان والدليل ، نحو قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم : ٢٢] والمعنى : إن من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال ، خلق عوالم السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان[١].

هذه كلها إطلاقات لغوية للآية ، وتجمع على : آي وآيات وآياء.

أما في المصطلح ، أو في القرآن الكريم ، فهي عبارة عن طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها ، لها مطلع ومقطع ، ومندرجة في سورة من القرآن ، وتعرف توقيفياً على الأرجح.

---

(١) الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١/ ٣٣١ـ٣٣٢ .

وقد سميت الآية من القرآن ـ أو هذه الطائفة منه ـ آية ، لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها من الذي بعدها وانفصاله ، فهي بائنة من أختها ومنفردة ! ولهذا كان الوقوف على رؤوس الآي سنة متبعة.

وقيل : لما كانت الجملة التامة من القرآن علامة على صدق الآتي بها ، وعلى عجز المتحدي بها . . سميت آية . وقد رجح كثير من العلماء هذا التعليل[1].

وفي الآيات الطويل والقصير ، وأقصرها كلمة واحدة ، كقوله تعالى : ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ في فاتحة هاتين السورتين . و﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن : ٦٤] ، وأطول آية في كتاب الله تعالى : آية المداينة ، أو آية الدَّيْن ، وهي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة ، وأولها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ . . .﴾ وتزيد كلماتها على عشرين ومئة كلمة.

وعدد آيات القرآن الكريم ستة آلاف ومئتا آية ونيف.

٢ـ أما « السورة » من غير همز ـ وهو المشهور ـ تجمع على سُوَر ، كغرفة وغُرَف ، ومعناها : المنزل المرتفع ، ومنه سور المدينة ، أو المنزلة الرفيعة ، ومنه قول النابغة :

ألـــم تـــر أن الله أعطـــاك ســـورةً تـــرى كـــل مَلْـــكٍ دونهـــا يتـــذبـــذب

والمعنى : منزلة رفيعة على سائر الملوك.

وقد قيل في القطعة من القرآن المشتملة على آي ذوات فاتحة وخاتمة ـ وأقلها ثلاث آيات ـ سورة لأنها تحيط بالآيات التي تضمها إحاطة السُّور ، أو لارتفاعها وشرفها.

وقد قيل : إنها سميت بذلك لتمامها وكمالها ، من قول العرب للناقة التامة : سورة ، ولعل هذا أقرب الآراء.

ثانياً ـ عدد السور وأسماؤها واختلاف مقاديرها:

وسور القرآن مختلفة طولاً وقصراً ، فأقصر سورة هي الكوثر ، وهي ثلاث آيات قصار ، وأطول سورة فيه البقرة وهي ست وثمانون ومئتا آية ، ومعظم آياتها من الآيات الطوال.

ويبلغ عدد سور القرآن أربعة عشر ومئة سورة ، يقسمها العلماء إلى أربعة أقسام

---

(١) ينظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١/ ٧١ والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١/ ٦٦ .

لكل منها اسم معين ، وهي : **الطوال ، والمئين ، والمثاني ، والمفصَّل**.

فالطوال : سبع سور : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، وأخيراً يونس أو « الأنفال وبراءة » معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة.

والمئون : هي السور التي تزيد آياتها على مئة أو تقاربها.

والمثاني : هي التي تلي المئين في عدد الآيات ، وقال الفرّاء : هي السور التي آياتها أقل من مئة آية لأنها تثنى ـ تكرر وتعاد ـ أكثر من الطوال والمئين.

والمفصَّل : هي أواخر القرآن ، وصحح النووي أن أوَّله « الحجرات » وسمي بالمفصَّل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

والمفصل ثلاثة أقسام : طوال وأواسط وقصار ، فطواله من أول « الحجرات » إلى سورة « البروج » وأوسطه من سورة « الطارق » إلى سورة « لم يكن » وقصاره من سورة « إذا زلزلت » إلى آخر القرآن[1].

وأخيراً فإن لكل سورة من سور القرآن اسماً واحداً ، وهو الأعم الأغلب ، وقد يكون لها اسمان ، كسورة « البقرة » يقال لها : فسطاس القرآن ، لعظمها وبهائها ، و« النحل » تسمى سورة النِّعم ، لما عدد الله فيها من النِّعم على عباده . . . وسورة « حم عسق » وتسمى الشورى ، وسورة « محمد » وتسمى القتال ، وسورة « فاطر » وتسمى سورة الملائكة ، وسورة « الإسراء » وتسمى سورة بني إسرائيل . وقد يكون لها ثلاثة أسماء أو أكثر كسورة « غافر » والطَّول والمؤمن لقوله تعالى فيها : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ﴾ وكسورة « الفاتحة » التي تسمى أيضاً بأم الكتاب ، والسبع المثاني ، وأم القرآن.

وقد كره بعضهم هذه التسميات بطريقة الإضافة ، وذهب إلى أن يقال في ذلك ، السورة التي يذكر فيها البقرة أو آل عمران . . . إلخ ، والدليل على صحة التسميات السابقة : الصحيح من المأثور . وقد روى الإمام البخاري في ذلك أحاديث كثيرة ، أوردها تحت هذا العنوان : « باب من لم ير بأساً أن يقول : سورة البقرة وسورة كذا وكذا . . وأولها عند أبي مسعود الأنصاري قال : قال النبي ﷺ « الآيتان من آخر سورة البقرة ، من قرأ بهما في ليلة كَفَتَاهُ »[2].

---

(١) ينظر : الزركشي ، البرهان ، ١/ ٢٦٩ .

(٢) البخاري ، الجامع الصحيح ، ٦/ ١١١ وانظر سائر أحاديث الباب .

ثالثاً ـ ترتيب الآيات والسور:

(أ) ترتيب الآيات :

« الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك » كما قال السيوطي[1] . وقد قال زيد بن ثابت ، في الحديث الذي أخرجه البخاري « كنا عند رَسُول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع » . وعن ابن عباس في الحديث الذي أخرجه أحمد ، وأصحاب السنن قال : « قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى « الأنفال » وهي من المثاني وإلى « براءة » وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطراً ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتموها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رَسُول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت « الأنفال » من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت « براءة » من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقبض رَسُول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتها في السبع الطوال ».

وأخرج الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت جالساً عند رَسُول الله ﷺ إذ شَخَّصَ ببصره ثم صوَّبه ، ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل : ٩٠].

ولقد كان النبي ﷺ يقرأ في الصلاة السور القرآنية على مسمع من الصحابة مرتبة الآيات على نحو وجودها في الرقاع ، وفي المصاحف بعد ذلك ، كقراءته لسورة « الروم » في صلاة الفجر ، وسورة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ في صبح يوم الجمعة ، وقراءته سورة « الجمعة » وسورة « المنافقين » أو سورتا « الأعلى » و« الغاشية » في صلاة الجمعة . وروى الإمام مسلم من حديث حذيفة قال : « صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح « البقرة » فقلت : يركع عند المئة ثم مضى فقلت : يصلي بها ركعة ، فمضى ثم

---

(١) السيوطي ، الإتقان ، ١/ ١٠٤ وقال الزركشي : « وأما ما يتعلق بترتيبه ـ القرآن ـ فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة في أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه ، ولهذا لا يجوز تعكيسها » .

افتتح « النساء » فقرأها . . . الحديث ».

وهنالك أحاديث في فضائل السور ، وأحاديث أخرى في تحديد بعض الآيات من بعض السور ، كخواتيم سورة البقرة ، أو العشر الأوائل من سورة الكهف ، أو العشر الأواخر منها . . . مما يدل على تأليفها على هذا النحو[1].

والذي يبدو لنا أن موضوع التوقيف في ترتيب الآيات في السورة الواحدة مما لا يتصور فيه خلاف ، بعد هذا ، ولأن مسألة « النظم » القرآني التي تشكل أبرز دلائل الإعجاز في القرآن ـ كما سنرى ـ تعود إلى ذلك الترتيب ، مما يدل على أنه من عمل الوحي يقيناً ، والله أعلم.

(ب) ترتيب السور :

أما ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه توقيفي كترتيب الآيات سواء بسواء ، قال أبو جعفر النحاس : « المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رَسُول الله ﷺ لحديث واثلة بن الأسقع قال : قال رَسُول الله ﷺ : أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفصلت بالمفصّل ، قال أبو جعفر : وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ وأنه من ذلك الوقت ، وإنما جمع في المصحف على شيء واحد »[2].

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه أن رَسُول الله ﷺ كان يجمع المفصّل في ركعة ، وأنه قرأ بالسبع الطوال في ركعة . وروى البخاري من حديث عبد الرحمن بن الزبير قال : « سمعت ابن مسعود يقول في : بني إسرائيل ـ الإسراء ـ والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء : إنهنَّ من العتاقِ الأول ، وهنَّ من تِلادي »[3] فذكرها نسقاً كما استقر ترتيبها.

ويؤكد أصحاب هذا الرأي ما ذهبوا إليه بأن المناسبات بين السور لا تقل عن النظم ووجه ارتباط الآيات بعضها ببعض في السورة الواحدة . وقد درج على بيان تلك المناسبات بعض المفسرين ، وكانوا يطلبونها من آخر السورة وأول السورة التي تليها ، أو بين أول هذه السورة وجملة السورة السابقة في بعض الأحيان.

قال الزركشي : « لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تُطْلِع على أنه توقيفي

---

(١) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ١/ ١٠٣ـ١٠٥ ، وابن الأثير الجزري ، جامع الأصول ، ٨/ ٤٦٩ ومابعدها .

(٢) السيوطي ، الإتقان ، ١/ ١٠٨ .

(٣) البخاري ، الجامع الصحيح ، ٦/ ١٠١ .

صادر عن حكيم : أحدها بحسب الحروف ، كما في الحواميم . وثانيها : لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها ، كآخر الحمد في المعنى ، وأول البقرة ، وثالثها : للوزن في اللفظ ، كآخر ﴿تَبَّتْ﴾ وأول الإخلاص . ورابعها : لمشابهة جملة السورة مثل : ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ . . . »[1].

وقد عبر عن هذا الموقف كذلك ابن الأنباري ، ودافع عنه ، ولخّص فيه القول على النحو التالي : قال : « إن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا ، ثم فُرِّق على النبي ﷺ في عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل في أمر يحدث ، والآية جواباً لمستخبر يسأل . ويوقف جبريل رَسُول الله ﷺ على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتّساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن رب العالمين ، فمن أخّر سورة مقدمة ، أو قدّم أخرى مؤخرة ، فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغيّر الحروف والكلمات »[2].

ويورد السيوطي القول أن جمهور العلماء ، منهم الإمام مالك ، على أن ترتيب السور اجتهادي من فعل الصحابة ، بدليل اختلاف مصاحفهم في هذا الترتيب ، فمصحف علي بن أبي طالب على النزول « اقرأ ، المدثر ، نون ، المزمل ، تبّت ، التكوير . . . » ومصحف عبد الله بن مسعود : « البقرة ، النساء ، آل عمران . . . ».

ولكن هذا الإطلاق فيما يورده السيوطي ـ جمهور العلماء ـ ! يتعارض بشكل حاد مع الروايات الصحيحة الدالة على أن سوراً قرآنية كثيرة كانت مرتبة على هذا النحو زمن النبي ﷺ . أما ترتيب الصحابة لمصاحفهم فلم يكن أكثر من اختيار وقتي ، أو مطلق جمع للقرآن ، ولهذا فإنهم لم يلتزموا الدفاع عنه ، بل وجدناهم قد التزموا وأقرّوا بالترتيب الذي أقرّته اللجنة العثمانية التي تحدثنا عنها . وقال بعض العلماء : إن اختلاف مصاحفهم ـ أُبيّ وعلي وعبد الله ـ كان قبل العرض الأخير ، وإن رَسُول الله ﷺ رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك[3].

والذي يبدو لنا من مجموع الروايات والآراء حول هذا الموضوع أن معظم سور القرآن الكريم كانت مرتبة على هذا النحو في زمن النبي ﷺ ، وأن العدد الأقل أو عدداً قليلاً لعلّه لا يتعدى سورتين أو ثلاثاً أو بضع سور ـ على أبعد تقدير ـ قد رُتّبَ على يد

---

(١) الزركشي ، البرهان ، ١/ ٢٦٠ .

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١/ ٦٠ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

الصحابة رضوان الله عليهم.

قال الإمام البيهقي : « كان القرآن على عهد النبي ﷺمرتباً سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة ، لحديث عثمان السابق ».

وحين أوهم كلام لابن عطية إن هذا القدر الذي رتبه الصحابة أكثر من هذا استدرك عليه بعض العلماء المحققين ، قال ابن عطية : « وظاهر الآثار أن السبع الطوال ، والحواميم ، والمفصل ، كان مرتباً في زمن النبي ﷺ . وكان في السور ما لم يرتب ، فذلك هو الذي رُتِّب وقت الكَتْب »[1].

قال أبو جعفر النحاس : « الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ، ويبقى منها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف ».

رابعاً ـ حكم مخالفة ترتيب المصحف:

إن هذا الترتيب الذي نجده في المصاحف مبدوءاً بسورة الفاتحة ، ومختتماً بسورة الناس . . . قد تم كما رأينا في العهد النبوي وفي الصدر الأول من الإسلام ، ومضت الأمة على الالتزام بالعمل به هذه القرون المتطاولة من الزمان . . . فصار العمل به والوقوف عنده لازماً لا يجوز التحول عنه أو المصير إلى غيره ، بل لا يجوز ذلك حتى لو كان مستند هذا الترتيب اجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم.

لا يجوز إذن طبع المصحف ، أو « تأليف سوره في الرسم والخط خاصة »[2] بحسب عبارة بعض العلماء ، على غير هذا الترتيب ، أما تلاوة القرآن في الصلاة ، وتعليم سُوَرِهِ في المساجد أو دور العلم . . . فيجوز فيهما مخالفة هذا الترتيب ، قال أبو الحسن بن بطّال : « ولا يعلم أن أحداً قال : إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة ، وفي قراءة القرآن ودرسه ، وأنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة ، ولا الحج قبل الكهف ! ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها للذي سألها : لا يضرّك آية قرئت قبل ، وقد كان النبي ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعة ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها ».

ويضيف أبو الحسن قائلاً : « وأما ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١/ ٥٤ .

(٢) ينظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١/ ٦١ .

يقرأا القرآن منكوساً ، وقالا : ذلك منكوس القلب ! فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة ـ الواحدة ـ منكوسة ، ويبتدىء من آخرها إلى أولها ، لأن ذلك حرام محظور . . . وفيه إفساد للسورة ومخالفة لما قصد بها »[1] .

أما ترتيب سرو القرآن بحسب النزول ، لا للتدوين في المصاحف ، ولكن في كتب التفسير ، أو بغرض التفسير فقد ذهب إلى جوازه بعض العلماء ، وإن كنا نرى أنه غير مستساغ لأن فيه خدشاً لصورة الإجماع السابق ، وقد لا يكون كذلك ممكناً بغير قدر من التجاوز ، لأن السورة من القرآن لم تكن تنزل دائماً مرة واحدة ، أو لم تكن تنزل آية أو آيات من سورة ثانية إلا بعد أن يكتمل بناء السورة السابقة ، فالترتيب بحسب النزول لا يمكن وضعه بالدقة . . إلى جانب ما فيه من تفخيم مرحلية البناء ، وتضييق ساحة النص القرآني الذي أراد الله تعالى له أن يكون عاملاً شاملاً ، يعين تنجيمه وأسباب نزوله على مزيد من الفهم ، لا على الانغلاق في حدود البيئة أو الزمان ، ولهذا فإننا نكره العبارات القائلة : المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة . . . ونحو ذلك من العبارات والمواقف التي ملئت بها كتب التفسير ! ! ولعل هذا أن يكون أحد الأسباب الحاسمة في ترجيح رأي من يقول إن ترتيب السور جميعها كان بتوقيف ، حيث تعاقبت السور المكية والمدنية في المصحف ، أو تبادلت هذا التعاقب ، بل الذي بدىء فيه بأربع سور مدنية طوال تتألف من قرابة ثمان مئة آية . . لم يتقدمها من الآيات المكية سوى سورة الفاتحة ، التي تمثل خلاصة العهد المكي ، وتتألف من سبع آيات قصار ، والله تعالى أعلم .

o o o

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١/ ٦١ .

الفصل التاسع

شكل القرآن ورسمه

أولاً ـ ما المراد من شكل القرآن ؟

ثانياً ـ كراهة الأوائل للزيادات التوضيحية في الرسم العثماني

ثالثاً ـ بداية إعجام المصحف العثماني ونقطه

رابعاً ـ ابتداع أشكال الحركات

خامساً ـ ضوابط للتمييز بين النص القرآني ومحسناته

سادساً ـ مسألة الرسم المصحفي وما صاحبها من مغالاة وتقديس

سابعاً ـ مناقشة

ثامناً ـ نفي ادعاء كون الخط المصحفي توقيفياً والذهاب إلى أنه كان باجتهاد ممن كتب

تاسعاً ـ بقاء شكل القرآن متجاوباً مع اختلاف الرسم في كل العصور حتى انتشار طباعته

الفصل التاسع

شكل القرآن ورسمه

أولاً ـ ما المراد من شكل القرآن ؟:

نريد بشكل القرآن فيما يلي ، الإطار الخارجي للنص القرآني ، وهذا الإطار عبارة عن رسمه وإعجامه ونقطه ، وما صاحب ذلك من جهد وتطوير منذ الكَتْبَة الأولى للمصحف.

وهذا كله شيء يختلف عن القرآن نصاً متعبداً بتلاوته ، فالقرآن ألفاظه ومعانيه ، وتشريعه ومراميه ، بسوره وآياته متواترة متكاملة ، وشكله هو صورته المصحفية التي تواضع عليها الناس في الرسم والإعراب والنقط والإعجام للدلالة على ألفاظه في النطق ، وعلى هيئته وتركيبه في التلفظ ، فهو تسجيل ثانوي للوحي الإلهي بما يؤدي إلى صورة حقيقته المثلى حينما يتلى بالألسن معاداً كما أنزل.

وارتباط هذه الظاهرة الشكلية باللفظ المنزل على النبي الكريم ﷺ وحياً سماوياً ، لم تأخذ طابع الصدفة أو صيغة العفوية ، وإنما كان أمراً إلهياً مقصوداً إليه ، وجهداً رسالياً معنياً بالذات ، ليتضافر على حفظ القرآن الكريم ـ برّاً بوعده تعالى ـ عاملان :

الحفظ في الصدور ، والرسم في السطور ، وهو كما يبدو من استعراض الروايات واستقراء الأحداث أمر مندوب إليه ومرغوب فيه ، وقد كان تأسيس ذلك منذ عهد مبكر ، اقترن بأول نزول الوحي ، كما سبقت الإشارة التفصيلية إليه[1] وأوشك على الكمال عند جمع الناس على لغة قريش في القراءة المصحفية زمن عثمان ، وكتابة نص متكامل لهذا التوحيد ، في المصحف الإمام المتداول إلى اليوم مرسومه ، إلا أن ذلك النص ـ مضافاً إلى تسويته بالخط الكوفي القديم ـ جاء مجرداً : « من النقط والشكل ، ليحتمل ما صح نقله ، وثبتت تلاوته عند النبي ﷺ إذ كان الاعتماد على

---

(١) ينظر ، فيما سبق موضوع : جمع القرآن .

الحفظ لا مجرد الخط »[1].

ثانياً ـ كراهة الأوائل للزيادات التوضيحية في الرسم القرآني:

إن رسم المصحف جاء مجرداً من كل علامات الشكل والنقط والإعجام ، لأنهم كانوا يستحبون تخليص القرآن من كل الزوائد على الخط الكوفي ، ولما أورده جملة من أهل العلم ـ من قول مشترك يحتمل عدة معانٍ ـ إن السلف كانوا يقولون : « جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء »[2].

فلم تكتب مضافاً إلى إهمال النقط والإعراب ، حتى أسماء السور ، ولم يدون عدد آياتها ، ولا الإشارة إلى مكيها ومدنيها.

وقد اختلفوا فيما تبين فيه القراءة من الشكل ، وكان اختلافهم مبنياً على قناعات خاصة في أغلب الأحيان.

فقد كره إبراهيم النخعي الكوفي (ت ٩٦هـ) نقط المصاحف[3].

وكره جملة الزيادات التوضيحية في المصاحف كل من : محمد بن سيرين (ت ١١٠هـ) والحسن البصري (ت ١١٠هـ)[4].

وكان ذلك منهم بعناية الحفاظ على الشكل الأول للمصحف ، وقد يغلب على ظنهم احتمال التحريف لو أباحوا ذلك ، وقد يكون ذلك بداعي المغالاة في تقديس الرسم الأول ، بينما أفتى النووي باستحباب نقطه وشكله صيانة له عن اللحن والتحريف[5].

ومهما يكن من أمر ، فقد كان الموقف السلبي من نقط المصحف وشكله منهزماً حينما عمد المسلمون إلى إعجام القرآن ونقطه بشكل منظم ، توافرت فيه النيات الصادقة ، وتعاقبته الأيدي الأمينة ، فما أدى بالأمر الواقع إلا تيسير تلاوة القرآن ، وصيانته عن الالتباس ، ومقاربتنا إلى نقطة الأمثل.

---

(١) القسطلاني ، لطائف الإشارات ، ١/ ٦٤ .

(٢) ينظر : أبو عبيد ، غريب القرآن ، ٤/ ٤٩ ، والداني ، المحكم في نقط المصاحف ، ١٠ والسيوطي ، الإتقان ، ٤/ ١٦٠ .

(٣) ينظر : الداني ، المحكم في نقط المصاحف ، ١١ ، والسيوطي ، الإتقان ، ٤/ ١٦٠ .

(٤) ينظر : ابن أبي داود ، كتاب المصاحف ، ١٤١ .

(٥) ينظر : القسطلاني ، لطائف الإشارات ، ١/ ٣٣٢ .

ثالثاً ـ بداية إعجام المصحف العثماني ونقطه:

ويبدو أن الرائد الأول لذلك هو أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) حينما وجدناه قد عالج بادىء ذي بدء مسألة ضبط العلامات الإعرابية في المصحف ، احترازاً من اللحن ، وابتعاداً عن العجمة ، ورعاية لسلامة النص ، فاستعمل لذلك ما يفرق فيه بين حالات الرفع والنصب والجر بالتنوين وبدونه ، وابتكر باجتهاد فطري منه طريقته الخاصة الأولى باستعمال النقط للحركات ، بصورة مميزة ، عدداً ، وموضعاً ، ولوناً ، كما سترى هذا من قوله لكاتبه :

« خذ المصحف ، وصنيعاً يخالف لون المداد ، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف ، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله ، فإن اتبعت هذه الحركات غنةٌ ، فانقط نقطتين ، فابتدأ بالمصحف حتى أتي على آخره »[1] .

ومن خلال هذه الرواية المستفيضة ، يتضح أن أبا الأسود الدؤلي قد خالف بين لون المداد المدون به المصحف وبين لونه لوضع هذه الحركات ، وقد جعل هذه الحركات على شكل نقاط في مواضعها المعينة ، وقد ظهر من ذلك ما يلي :

أ ـ نقطة فوق الحرف ، علامة لفتحة .

ب ـ نقطة تحت الحرف ، علامة للكسرة .

جـ ـ نقطة في خلال أو بجانب الحرف ، علامة للضمة .

د ـ نقطتان على الحرف ، علامة للتنوين .

وكان هذا العمل من أبي الأسود متميزاً بقيمة فنية أمكن بوساطتها التمييز بين الحالات الإعرابية بنقط مختلفة المواضع بعد أن كانت هملاً ، وبلون يخالف الأصل المدون به المصحف زيادة في الضبط والتفريق .

وفي دوافع أبي الأسود ومشجعاته على هذا العمل الضخم روايات وتوجيهات كالآتي :

١ ـ أن الإمام علي رضي الله عنه سمع قارئاً يقرأ : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾

---

(١) ينظر السيرافي ، أخبار النحويين البصريين ، ١٦ ، وابن النديم ، الفهرست ، ٤٠ وابن الأنباري ، إيضاح الوقف والابتداء ، ١/ ٣٩ .

[التوبة : ٣] بكسر اللام في رسوله وهو كفر ، فتقدم إلى أبي الأسود « حتى وضع للناس أصلاً ومثالاً وباباً وقياساً ، بعد أن فتق له حاشيته ، ومهّد له مهاده ، وضرب له قواعده »[١].

٢ـ أن أبا الأسود نفسه قد سمع الآية المتقدمة في جزئها بكسر اللام من (رسوله) فقال: لا يسعني إلا أن أضع شيئاً أصلح به لحن هذا ، أو كلاماً هذا معناه.

٣ـ إن زياد بن أبيه والي البصرة طلب إليه أن يضع للناس علامات تضبط قراءتهم ، فشكّل أواخر الكلمات ، وجعل الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة نقطة تحته ، والضمة نقطة إلى جانبه ، وجعل علامة الحرف المنون نقطتين[٢].

وقيل : إن زياداً أرسل إليه ثلاثين كاتباً للقيام بهذه المهمة[٣].

٤ـ وقيل : أن أبا الأسود إنما قام بهذا ونقّط القرآن ـ كما في رواية أخرى ـ بأمر عبد الملك بن مروان[٤].

والملحظان الأخيران يؤكدان استجابة أبي الأسود لهذا الأمر بسبب أمر رسمي من سلاطين عصره ، وهو ما لا يتفق مع عزلة أبي الأسود السياسية ، وعزوفه عن المناخ الرسمي ، ولعل القلقشندي يدفع عنه ذلك صراحة ، ويوضحه فيقول : « إن أول من نقّط القرآن ووضع العربية أبو الأسود الدؤلي من تلقين أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه »[٥].

ولقد أكمل عمل أبي الأسود من بعده ، اثنان من تلامذته هما يحيى بن يعمر العدواني (ت ٩٠هـ تقريباً) ونصر بن عاصم الليثي (ت ٨٩هـ) حيث وضعا النقاط على الحروف أزواجاً وأفراداً ، وقد كان وضع النقاط على الحروف حقيقياً لا على سبيل الاستعمال المجازي ، وبذلك تميزت صور الحروف المتشابهة ، وصار لكل حرف صورة تغاير صورة غيره من الحروف ، طبقاً لما نجده متعارفاً في كتابتنا المتداولة اليوم[٦].

---

(١) أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، ١/ ٢٦١ .
(٢) الأنباري ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ١٠ وما بعدها .
(٣) ينظر : الزنجاني ، تاريخ القرآن ، ٨٨ .
(٤) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ٤/ ١٦٠ .
(٥) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٣/ ١٥١ .
(٦) ينظر : حمزة الأصبهاني ، التنبيه على حدوث التصحيف ، ٢٧ .

ثم زاد أتباع أبي الأسود علامات أخرى في الشكل ، فوضعوا ـ مضافاً إلى ما تقدم ـ للسكون جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه سواء كان همزة أم غير همزة ووضعوا لألف الوصل جرة في أعلاها متصلة به إن كان قبلها فتحة ، وفي أسفلها إن كان قبلها كسرة ، وفي وسطها إن كان قبلها ضمة[1] .

رابعاً ـ ابتداع أشكال الحركات:

وحينما ظهرت مشكلة اختلاط نقط الحركات التي وضعها أبو الأسود بنقط الحروف المتشابهة الرسم التي وضعها تلامذته كما أسلفنا ، استطاع الخيل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) أن يبتدع أشكال الحركات ، فتميزت حينئذٍ الحركات عن الحروف ، فقد جعل الحركات حروفاً صغيرة بدل النقط ، وابتكر لكل حركة ما يناسبها في الشكل من الحروف ، فالضمة واو صغيرة فوق الحرف ، والكسرة ياء مردفة تحت الحرف ، والفتحة ألف مائلة فوق الحرف .

وقد وفق الخليل مضافاً لهذا إلى ابتكار علامات الهمز والتشديد والروم والإشمام .

وحينما أباح المسلمون لأنفسهم ضبط النص المصحفي في النقط والحركات وقواعد الهمز والتشديد ، أحدثوا النقط عند آخر الآي ، ثم الفواتح والخواتم ، حتى قال يحيى بن أبي كثير : « ما كانوا يعرفون شيئاً مما أحدث في المصاحف إلا النقاط الثلاث على رؤوس الآي[2] .

وكان هذا العمل إيذاناً بمعرفة حدود الآية ، إذ يفصل بينها وبين الآية التي تليها بمؤشر نقطي ، تطور فيما بعد إلى شكل دائري ، يوضع داخله رقم الآية ، وبذلك تم تأشير أعداد الآيات وضبطها في السورة الواحدة .

وكان ذلك في الوقت نفسه مؤشراً إلى حركة تطويرية في شكل المصحف ، لا تتوقف عند حد من حدود التحسينات الشكلية الإيضاحية ، بل تستقطبها جميعاً فيما يحقق فائدة ، أو يزيل لبساً ، فقد عمدوا بعد ذلك إلى كتابة الأخماس والأعشار ، وهو أن يدونوا بعد كل خمس آيات أو عشر آيات رقمها وعددها ، وكان قد كره ذلك جماعة من الأوائل على ما يدعى ، كابن مسعود ، ومجاهد والنخعي والحليمي[3] .

---

(١) ينظر : الزنجاني ، تاريخ القرآن ، ٨٨ .

(٢) السيوطي ، الإتقان ، ٤/ ١٦٠ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه والصفحة .

ولكنه لا يتعارض مع أي أصل ديني بل هو أمر إحصائي لا غبار على عائديته في التدقيق.

وحينما أدخل ما سبق تفصيله على الرسم العثماني ، لم تقف حركة التطوير عند هذا الحد تجاه الرسم الأول بل أضيف إليه كل ما يتعلق بأحكام السجود القرآني الواجب والمندوب ، فوضعوا في الهوامش إشارات إلى مواضع السجود ، بحيث اتضح كونه شيئاً والنص القرآني شيء آخر لانفصاله عنه إلى الجوانب ، شأنه في ذلك شأن تعيين ، الأحزاب والأرباع والأجزاء ، وإشارات التجويد في مغايرة رسمها في المداد ، وإن كانت ضمن النص ، مما استحسنه البيهقي فقال :

« ولا يخلو به ما ليس منه ، تعدد الآيات والسجدات والعشرات ، والوقوف ، واختلاف القراءات ومعاني الآيات »[1].

خامساً - ضوابط للتمييز بين النص القرآني ومحسناته:

وقد جعلوا لما تقدم بعض الضوابط لتمييز القرآن من القراءات ، والنص من الإضافات ، ولجأوا إلى تنويع لون المداد لكل من الرسم والشكل والنقط ، كحلٍ أولي لرفع الالتباس ، وإزالة الإبهام.

قال الداني (ت ٤٤٤هـ) وهو يشير إلى ما تقدم بل ويفتي به : « لا أستجيز النقط بالسواد لما فيه من التغيير لصورة الرسم ، ولا أستجيز جمع قراءات شتى في مصحف واحد بألوان مختلفة ، لأنه من أعظم التخليط والتغيير للمرسوم ، وأرى أن تكون الحركات والتنوين والتشديد والسكون والمد بالحمرة والهمزات بالصفرة »[2].

وواضح في النص وغيره من النصوص الأخرى أن الرسم المصحفي للآيات كان يكتب بالمداد الأسود ، ولهذا استحبوا أن تكون العلامات بالهمزة ، والهمزات بالصفرة ، وليكون ذلك عرفاً شائعاً عند العامة والخاصة.

وهكذا جرى الضبط والتدقيق للشكل في القرآن ، فأضيف له بعد رسمه في الخط الكوفي ، النقط والحركات ، والهمز والتشديد ، والتخميس والتعشير ، والفصل بين الآيات وترقيمها ، ثم تطوير الأخير إلى دوائر صغيرة ، وضع فيها رقم الآية بحسب

---

(١) المصدر نفسه ، ٤/ ١٦١ .

(٢) السيوطي ، الإتقان ، ٤/ ١٦١ وما بعدها .

تسلسلها من السورة ، ثم كتبت أسماء السور مع عدد آياتها في السورة وقبل البسملة متخذة لذلك عنواناً بالاسم ، وإحصاءً بالآيات ، ثم قسم هذا النص إلى ثلاثين جزءاً ، قُسِّم كل جزء إلى أربعة أحزاب ، وكان ذلك بإشارات هامشية وأرقام وكتابات جانبية رسمت غر مختلطة بالنص القرآني الكريم.

وإلى جانب هذا أضيفت علامات التجويد والوقف ، ومواضع السجود وأمثال ذلك مما لم يكن معروفاً في عصر النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم . وهي زيادات قصد بها الإيضاح والكشف والبيان ، ولم يخالف فيها الرسم المصحفي ، فقد بقيت صور الكلمات على هيئتها ، وحافظت على أشكالها ، كما وصفتها لنا كتب السلف في الموضوع ، وفي طليعتها كتاب : (المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار) لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ).

وبقي الرسم العثماني للمصحف هو الأساس في خط المصحف الكريم قديماً وحديثاً ، فحينما تطورت عملية الكتابة ، وتبلور فن الخط ، لم يفقد ذلك الأساس أهميته على الإطلاق ، إذ ظل المنار الهادي لدى أغلب خطاطي مختلف العصور ، نظراً لاكتمال الصورة الأولى للمصحف ، وإن انتقل الشكل في العموم من الخط الكوفي إلى الخط النسخي المعروف.

« وتوجد الآن في مكتبات العالم مجموعة كبيرة من المصاحف المخطوطة القديمة أو قطع منها ، بعضها مكتوب على الرق ، وبالخط الكوفي القديم ، مجردة من النقط والشكل ، ومن كثير مما ألحق بالمصاحف من أسماء السور وعدد آياتها وغير ذلك بحيث تبدو أقرب إلى الصورة التي كانت عليه المصاحف الأولى »[1].

سادساً ـ مسألة الرسم المصحفي وما صاحبها من مغالاة وتقديس:

أما الرسم المصحفي الأول للقرآن ، أعني كتابته على الكَتْبَة الأولى ، فقد جاء دور الحديث عنه ، وأول ما نفجأ به هو الهالة الكبرى من التقديس لهذا الرسم مما يضفي شيئاً كثيراً من المغالاة التي لا مسوغ لها في أغلب الأحيان ، وإنا وإن كنا لا نعارض بتبجيله والاعتداد به ، ولكننا نعارض الغلو في شأنه ، ويبدو أن هذا الغلو والتقديس ، وما صاحب ذلك من هالات ، ما هو إلا تعبير عملي عن احترام جيل الصحابة الذي

---

(١) نقل هذا النص : د . غانم قدوري حمد ، عن المستشرق جولدتسهير وغيره . [غانم قدوري حمد ، محاضرات في علوم القرآن ، ٩٣ وانظر مصادره] .

كتبوا المصحف عند توحيد القراءة ، وإن كانت تلك الكتابة مخالفة لأصول الإملاء ، وقواعد الخط ، إذ الكتابة تصوير لنطق اللفظ ، والعبرة بنطق ذلك اللفظ ، لا بتصويره ، والتطرف في إضفاء صفة التقديس على الكَتْبَة الأولى ، لا يعضده دليل نصي على الإطلاق ، وما قيل هنا وهناك من توقيف كتابة المصحف لا يستند إلى أساس من نقل أو عقل أو كتاب ، وليس فيه ما هو مرفوع إلى الرسول الأعظم ﷺ إجماعاً ، بل كان منسجماً مع طبيعة ما يحسن الكَتَبَة ، سواء أكان جنس ما يحسنون ممتازاً ، أم هم ما تعارفوا عليه ، مما يؤدي إلى النطق الصحيح بالكلمات والآيات ، وهو أمر يرجع إلى مدى الجهد الذي بذله القدامى إملائياً وهجائياً في ضبط الرسم ، وما من شك أن يحصل الاختلاف بين الكَتَبَة بقدر تفاوت الضبط فيما بينهم ، أو على نحو من اختلاف القبائل فيما تكتب ، مما طبع أثره على الاختلاف في الخطوط .

حينما جمع القرآن على لغة قريش ، وَوُحِّدَتْ القراءات على حرف معين ، حصل جزء من هذا الاختلاف ، فقد قال الزهري : « واختلفوا يومئذٍ في التابوت »[1] والتابوه ، فقال النفر القرشيون : التابوت ، وقال زيد : التابوه ، فرفع اختلافهم إلى عثمان ، فقال : اكتبوه « التابوت » فإنه بلسان قريش »[2] .

وفي رواية مماثلة : « فإنما أنزل القرآن على لسان قريش »[3] .

وقد ادعى بعض العلماء أن رسم المصحف الذي كتب في زمن عثمان على يد كاتب الوحي زيد بن ثابت عمل توقيفي من الرسول بأمر الله ، لا تجوز مخالفته والخروج عليه ، ومن أولئك العلماء ما ادعاه ابن المبارك في نقله عن شيخه عبد العزيز الدباغ أنه قال :

« ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من النبي ﷺ وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة : بزيادة الألف ونقصانها ، لأسرار لا تهتدي إليها العقول وهو سر من الأسرار خصّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية ، وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز ، وكيف تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في « مائة » دون « مئة » وإلى سر زيادة الياء في « بأييد »

---

(١) وردت هذه اللفظة في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

(٢) ابن أبي داود ، كتاب المصاحف ، ١٩ .

(٣) الزركشي ، البرهان ، ١/ ٣٧٦ .

و« بأييكم » أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في « سعوا » بالحج ، ونقصانها من « سعو » يسبأ ؟ وإلى سر زيادتها في « آمنوا » وإسقاطها من « باؤُ ، جاؤُ ، تبوؤُ ، فاؤُ » بالبقرة ؟ وإلى سر زيادتها في « يعفوا الذي » ونقصانها من « يعفو عنهم » في النساء ؟ أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض ، كحذف الألف من « قرءناً » بيوسف والزخرف ، وإثباتها في سائر المواضع ، وإثبات الألف بعد واو « سموات » في فصلت وحذفها في غيرها ، وإثبات الألف في « الميعاد » مطلقاً ، وحذفها من الموضع الذي في الأنفال ، وإثبات الألف في « سراجاً » حيثما وقع ، وحذفه من موضع الفرقان ؟ وكيف نتوصل إلى حذف بعض التاءات وربطها في بعض ؟.

فكل ذلك لأسرار إلهية ، وأغراض نبوية ، وإنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرك إلا بالفتح الرباني ، بمنزلة الألفاظ والحروف المقطعة في أوائل السور ، فإن لها أسراراً عظيمة ومعاني كثيرة ، وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها ولا يدركون شيئاً من المعاني الإلهية التي أشير إليها ، فكذلك أمر الرسم الذي في القرآن حرفاً بحرف »[1].

سابعاً ـ مناقشة:

ولنا مع هذا الكلام الطويل المشتمل على هذه الادعاءات التي لا نوافقه عليها مناقشة طويلة من عدة وجوه :

الأول : أن الرسم المصحفي لم يرد فيه ولا حديث واحد عن النبي ﷺ فكيف يكون توقيفياً ؟ والنبي أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يتهجى ، فكيف يتم هذا الغلو بشأنه ، بادعاء أن ما كتبوه كان بأمره ، وهو تجاوز على مقام النبي أن يأمر بما يخطأ فيه ويصاب ، هجاءً وإملاءً مما نعدّه دون أدنى ريب خارجاً عن توجيه النبي وتوقيفه ، لأنه لا يحسن منه شيئاً ، وأما ما ورد بالزعم أن النبي ﷺ قال لأحد كَتَبَة الوحي : « الق الدواة ، وحرف القلم ، وانصب الباء ، وفرق السين ، ولا تعور الميم ، وحسن الله ، ومد الرحمن ، وجود الرحيم ، وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكر لك »[2] فموضوع لا أصل له ، ويدل على وضعه ونحله كون النبي أمياً ، فما أدراه بأصول

---

(١) الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١/ ٣٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ١/ ٣٧٠ .

الخط ؟ وما معرفته بالحروف ومميزات كتابتها وهو فاقد لأصل الصنعة ، وفاقد الشيء لا يعطيه كما يقولون ، وليس في ذلك انتقاص للنبي ﷺ ولا غض من منزلته ، ولكن الحقيقة التي نطق بها القرآن في أكثر من موضع بأنه أمي ، وهذه الحقيقة صاحبت حياته كلها ، وهي ليست نقصاً في شأنه، بل اقتضتها الحكمة الإلهية لدرء تخرصات المشركين وارتياب المبطلين ، فهي كرامة لا منقصة ، وتشريف لا تضعيف ، وتكريم لا توهين.

لقد أوتي النبي ﷺ جوامع الكلم ، وفصل الخطاب ، والنص المتقدم لا ينسجم مع بلاغة النبي ﷺ القولية ، ولا يتفق مع فصاحته المتناهية ، فالصنعة بادية على النص ، والتكلف بين السمات عليه ، وعدم ارتباطه فنياً يبعده عن كلام أفصح من نطق بالضاد ، ثم ما علاقة الكتابة بوضع القلم عن الأذن اليسرى ؟ وهل يصدق أن يكون هذا الكلام صادر عن الرسول ﷺ ؟ وأين المعاني الجامعة في هذا النص ؟ وما وجه النظم بين فقراته التائهة ؟ وما المراد منها ؟.

الثاني : لو كان رسم المصحف توقيفياً ، لكانت خطوط كتّاب الوحي واحدة ، وليس الأمر كذلك ، فقد أشير كثيراً إلى اختلاف المرسوم منها في جملة من الروايات.

الثالث : ليس في كتابة أي نص سر من الأسرار كما يدعى ، وأنى توصل لذلك ؟ وكيف يطلق الكلام جزافاً ؟ وهل هنالك من له أدنى مسكة من عقل ، أو إثارة من علم ، فيدعي أن رسم المصحف معجز كنظم القرآن ، والقرآن معجزة بتحديه ونظمه وحسن تأليفه ، وتفوقه باستعاراته ومجازاته وكناياته ، وارتباط كل ذلك بالكشف عن الغيب ، والتحدث عن المجهول ، واستقراء الأحداث ، واشتماله على الإعجاز التشريعي ـ مضافاً لى الإعجاز البلاغي ـ الذي لا يناسب البيئة التي نزل بها القرآن ، وتمكنه بأسراره العلمية ونظرياته الثابتة ، القرآن معجز بصورته الفنية التي اعتبرت اللفظ حقيقة ، والمعنى حقيقة أخرى ، والعلاقة القائمة بينهما حقيقة ثالثة ، وهل يقاس هذا بالخط والإملاء ؟ وما إعجاز الخط وما هي أسرار الإملاء ؟ حتى لا تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في جملة من الكلمات ، وحذفها من كلمات أخرى ، نعم السر واضح ، وهو بكل بساطة وكل تواضع وكل موضوعية : خطأ الكاتبين ، ولا علاقة لخطئهم بالنص ، **فالنص القرآني متعبد بتلاوته لا برسمه** ، ولا يطالب الأوائل بأكثر من هذا الجهد في ضبط النص القرآني بعد أن ورد عن رَسُول الله ﷺ قوله : « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب »[1].

---

(١) أبو شامة ، المرشد الوجيز ، ١٣٢ .

فكتابة المصحف إذن كانت في ضوء ما ألفوه من الهجاء ، واعتادوه من الرسم ، وذلك قصارى جهدهم وما ورد فيها من منافيات أصول الخط ، لا يتعارض مع أصول المعاني ومداليل الألفاظ ، فالإملاء لا يغير نطقاً ، ولا يحرف معنى.

الرابع : ليس من المنطق العلمي ولا من المنهج الموضوعي أن نقارن ـ ولو بوجه ضئيل ـ بين الرسم المصحفي الذي كتبه بشر ، وبين أوائل السورالقرآنية ذات الحروف المقطعة التي قام الإجماع والتواتر على أنها من الوحي الإلهي والنص القرآني ، وللعلماء فيها آراء واجتهادات ، وفي مضامينها روايات وأخبار ، وفي عرضها رموز وإشارات ، وليس هذا موضع بحثها فلسنا بصددها ، إلا أنها من القرآن المعجز ، وليس الرسم المصحفي من الإعجاز في شيء ، وإنما هو يخضع لمدى ما يحسن الكاتب ، وأين التحدي من السماء بالإعجاز إلى الصنعة الأرضية التي تتفاوت جودةً وضعفاً وإتقاناً.

ثامناً : نفي ادعاء كون الخط المصحفي توقيفياً والذهاب إلى أنه كان باجتهاد ممن كتبه:

لقد حقق عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) في قضية الرسم القرآني ، وألقى مزيداً من الأضواء الكاشفة على فكرة التعصب للرسم العثماني ، وانتهى من فلسفة القول في الخط عند العرب بعامة فقال :

« وكان خط العرب لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ، ولا إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة والتوحش ، وبعدهم عن الصنائع ، انظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير محكمة الإجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها.

ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رَسُول الله ﷺ وخير الخلق من بعده ، المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه ، كما يُقتفى لهذا العهد خطّ وليٍّ أو عالم تبرى ، ويتبع رسمه خطأً أو صواباً.

وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه ، فأتبع ذلك وأثبتوا رسماً ، ونبه علماء الرسم على مواضعه . ولا تلتفتنّ في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وإن ما يتخيل من مخالفته خطوطهم لأصول الرسم كما

يتخيل ، بل لكلها وجه ، وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة رضوان الله عليهم ، عن توهم النقص في قلة إجادة الخط ، وحسبوا أن الخط كمال ، فنزهوهم عن قصة ، وليس ذلك بصحيح . واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم ، إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية ، والكمال في الصنائع إضافي وليس بكمال مطلق ، إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ، ولا في الخلال ، وإنما يعود على أسباب المعاش ، وبحسب العمران والتعاون عليه ، لأجل دلالته على ما في النفوس.

ولقد كان ﷺ أمياً ، وكان ذلك كمالاً في حقه ، وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها . وليست الأمية كمالاً في حقنا نحن ، إذ هو منقطع إلى ربه ، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا »[1].

ورأي ابن خلدون واضح الأبعاد في إلقاء التبعة على من يتصور أن الخط كمال مطلق في حد ذاته ، وإن فقدانه يشكل نقصاً جلياً وعيباً لا يطاق ، وصوبوا في كتابته من أخطأ ، وليس الأمر كذلك ، فالإخلال ببعض قواعد الخط ، جملة من أصول الإملاء ليس نقصاً بحقهم ، بل هي الطاقة وجهد المقدور ، والتعظيم لمنزلة الصحابة لا يعني أن نغض الطرف عن خطأ هجائي وأصل إملائي فمنزلتهم شيء ،وحقائق الأمور شيء آخر ، ولهذا كان ابن خلدون فيما قدمه من رأي جريئاً في الحكم ، وسخياً في العرض ، وواقعياً في المبادرة.

وهناك موقف للباقلاني (ت ٤٠٣هـ) يتناسب مع الذائقة الفطرية لطبيعة الأشياء ، فما لم يفرض فيه أمر ، لا يستنبط منه حكم ، وما لا وجه له لا يحدد بوجه مخصوص ، ولقد بين حقيقة هذا الأمر بقوله :

« وأما الكتابة ، فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً ، إذ لم يأخذ على كُتّاب القرآن وخطّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره ، أوجبهم عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف ، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه : أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص ، وحد محدود ، ولا يجوز تجاوزه ، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولادلت عليه القياسات الشرعية . بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل ، لأن رَسُول الله ﷺ كان يأمر برسمه ، ولم يبين لهم وجهاً معيناً ، ولا نهى أحداً عن كتابته ، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣٥٠ طبعة بولاق .

ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يخفى عليهم الحال . ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وأن يجعل اللام على صورة الكاف ، وأن تعوّج الألفات ، وأن يكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة ، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإن كانت خطوط المصحف ، وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة ، وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى ، من غير تأثيم ولا تناكر ، عُلِم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم في القراءة والأذان ، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز ، فكل رسم دالٍ على الكلمة ، مفيد لوجه قراءتها ، تجب صحته وتصويب الكاتب به على أية صورة كانت.

وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه وأنى له ذلك »[1].

ورأي الباقلاني قوي الحجة بجوازكتابة المصحف بأي خط اتفق ، يدل على ألفاظ القرآن ويفصح عن قراءته ، بدليل ثبوت كتابته بالحروف الكوفية ، وبالخطوط المحدثة ، وبالهجاء القديم ، وفيما بين ذلك.

ومع أصالة هذا الرأي الذي لم يتأثر بميل أو هوى فقد تجد من يأتي بعده ، ويتكأ على كثير من آرائه يخالفه جملة وتفصيلاً ، دون دليل علمي في الموضوع.

قال القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) : « وأكثر رسم المصاحف موافق لقواعد العربية ، إلا أنه قد خرجت أشياء عنها ، يجب علينا اتباع مرسومها ، والوقوف عند رسومها فمنها ما عرف حكمها ، ومنها ما غاب عنا علمه »[2].

والقسطلاني: يريد بتعبيره بأن أكثر رسم المصاحف موافق لقواعد الإملاء العربي، وأصول الخطوط ، وما خرج عن ذلك يجب اتباعه في نظره ، ولا أعلم من أين استفاد وجوب اتباع مرسوم هذه الخطوط ، والوقوف عند رسومها ، وما فلسفة حكمه من الأخطاء الإملائية ؟ وما غاب عنا علمه من الاشتباهات الهجائية ، وليست تلك إلا أمور

---

(١) الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١/ ٣٧٣ وما بعدها .

(٢) القسطلاني ، لطائف الإشارات ، ١/ ٢٨٥ .

موهومة ، دعا إليها الغلو الكبير ، والطيش في العاطفة ، وهو نفسه يقول :

« ثم إن الرسم ينقسم إلى قياسي ، وهو موافقة الخط للفظ ، واصطلاحي ، وهو مخالفته ببدل ، أو زيادة ، أو حذف ، أو فصل ، أو وصل ، للدلالة على ذات الحرف ، أو أصله ، أو فرعه ، أو رفع لبس ، أو نحو ذلك من الحكم والمناسبات »[1].

وهذا هو التقسيم الصحيح ، والرسم المصحفي اصطلاحي لا شك ، تواضع عليه كَتَبَة المصاحف الأولى ، واشتمل على مخالفة الخط للفظ ، في وجوه البدلية والزيادة والنقصان والحذف والفصل والوصل ، وكان ذلك شائعاً في جملة من الحروف ، لا سيما في إبدال الألف ياء ، وزيادة الألف بعد واو الجماعة الداخلة على بعض الأسماء ، وحذفها بعد جملة من الأفعال في ذات المكان ، وإثباتها لبعض الأفعال المعتلة بالواو ، وفي إثبات الهمزة في الوصل حيناً ، وحذفها حيناً آخر ، وفي ما فيه قراءتان والرسم على أحدهما ، كما هو ملاحظ في جملة من خطوط الرسم المصحفي.

وقد حصر السيوطي (ت ٩١١هـ) أمر الرسم المصحفي في الحذف ، والزيادة ، والهمز ، والبدل ، والفصل ، وما فيه قراءتان فكُتب بإحداهما[2].

ولا حرج مطلقاً في أن يكتب المصحف كاتب ، أو يطبعه طابع ، بأي هجاء شاء ، ما دام لا يخرج عن النطق المطلوب ، كما أنزله الله تعالى ، وكما تنطق به العرب ، إذ لا يختلف اثنان في أن المراد بالقرآن هو ألفاظه ومعانيه ، ومقاصده ومراميه ، لا هجاؤه ورسمه وهيكله ، والقرآن ما رسم بهذا الرسم ، ولا كتب بهذا الهجاء إلا لأنه الهجاء المعروف المتداول في العصر الأول[3].

وما القول بوجوب اتباع الرسم القديم ، وعدم مخالفته وتعديه ، إلا نوع من أنواع التزمت الذي لا يتفق مع النهج العلمي ، والارتفاع بتقدير الأوائل من مستوى الاحترام المناسب إلى مستوى التقديس اللامعقول ، وبهذا الملحظ فإننا لا نميل إلى ما قرره البيهقي في (شعب الإيمان) بقوله :

« من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء التي كتبوا فيها المصاحف ، ولا

---

(١) القسطلاني ، لطائف الإشارات ، ١/ ٢٨٤ .

(٢) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ٤/ ١٤٧ .

(٣) ينظر : ابن الخطيب ، الفرقان ، ٨٤ وما بعدها .

يخالفهم فيها ، ولا يغير مما كتبوه شيئاً ، فإنهم أكثر علماً ، وأصدق قلباً ولساناً ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استداراكاً عليهم »[1].

بل نذهب إلى جواز المخالفة ، وتيسير القرآن بالخط والهجاء الذي لا لبس فيه ، فلا يؤدي إلى اختلاف ، ولا يؤول إلى إبهام ، وليس في ذلك تحامل على السلف ، فليس الخط ونقصانه مما يشكل استخفافاً بهم ، ولا هو يتنافى مع ورعهم وتقواهم ، ولا علاقة له بأنهم أصدق لساناً ، وأعظم أمانة ، ما دام أن الخطوط لم تكن متكاملة المعالم في عهودهم.

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات : « الغرض من كتابة القرآن : أن تقرأه صحيحاً لنحفظه صحيحاً ، فكيف بالخطأ ، لنقرأه بالصواب ؟ وما الحكمة أن يقيد كلام الله بخط لا يكتب به اليوم أي كتاب »[2].

ولقد كان عز الدين بن عبد السلام جريئاً ومحافظاً في وقت واحد بقوله : « لا يجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة ، لئلا يوقع في تغيير من الجهال ، ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه ، لئلا يؤدي إلى دروس العلم ، وشيء أحكمته القدماء لا يترك مراعاته لجهل الجاهلين ، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة »[3].

فهو يدعو إلى تطوير الرسم المصحفي رفعاً لمشكلات القراءة عند المحدثين ويدعو إلى الاحتفاظ بالرسم العثماني كجزء من التراث الذي لا يترك حباً بالأقدمين.

ولقد أوضح السيوطي حقيقة مخالفة الخط المصحفي في بعض الحروف لقواعد الخط العربي فقال : « القاعدة العربية أن اللفظ يكتب بحروف هجائية مع مراعاة الابتداء والوقف عليه ، وقد مهد النحاة له أصولاً وقواعد ، وقدخالفها في بعض الحروف خط المصحف الإمام »[4].

وفي الختام نقول :

وأنّى كانت وجهة النظر تجاه الرسم المصحفي ، فهي لا تعني شيئاً ذا أهمية

---

(١) الزركشي ، البرهان ، ١/ ٣٧٩ .
(٢) مجلة الرسالة المصرية ، عدد ٨ يناير ، ١٩٥٠م .
(٣) الزركشي ، البرهان ، ١/ ٣٧٩ .
(٤) السيوطي ، الإتقان ، ٤/ ١٤٦ .

قصوى ، لأنها مسألة شكلية لا تتعلق بجوهر القرآن ، ولا تغير حقيقته ، لأن اختلاف بعض الخطوط لقواعد! الهجاء لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ، ليتحقق بعد هذا كله التأكيد الإلهي بحفظ القرآن ، سالماً من التحريف ، مصاناً عن الزيف في قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩].

تاسعاً ـ بقاء شكل القرآن متجاوباً مع اختلاف الرسم في كل العصور حتى انتشار طباعته في أوربا وبلدان العالم الإسلامي والعربي:

وقد شاءت العناية الإلهية أن يظل شكل القرآن متجاوباً مع اختلافات الرسم في كل العصور ، ومتجانساً مع عملية التطوير الكبرى للخط العربي ، فقد دأب المتخصصون بصياغة الخطوط وطرائقها أن ينقلوه من جيل إلى جيل مطابقاً للأصل الكوفي مع إضافة الأشكال التطويرية زيادة في الإيضاح ، ورفعاً للالتباس ، وكان ذلك متواتراً طيلة أربعة عشر قرناً من الزمان ، فما وجدنا في طول العالم الإسلامي وعرضه نصاً قرآنياً يخالف نصاً آخر ، ولا مخطوطاً يعارض مخطوطاً سواه ، حتى هيأ الله تعالى الطباعة ، لتزود المسلمين بل الناس أجمعين ، بملايين النسخ من القرآن الكريم ، وبمختلف الطبعات الأنيقة والمذهبة والمحكمة ، وهي تعطر كل بيت ، وتشرف على كل منتدى ، وتحتل صدر كل مكتبة.

وكان دور الطباعة مهماً في نشر القرآن الكريم في كل من أوربا والبلدان الإسلامية والوطن العربي.

فقد نشر القرآن مطبوعاً للمرة الأولى في البندقية في حدود سنة (١٥٣٠م) بيد أن سلطات الكنيسة وقفت منه موقفاً متعصباً ، فأصدرت أمراً بإعدامه عند ظهوره ، ثم قام هنكلمان بطبع القرآن في مدينة هانبورغ عام (١٦٩٤م) ، وتلاه مراتشي بطبعه في بادو عام (١٦٩٨م).

وقد ذكر كل من بلاشير وشزر وبفنلمر أن أول طبعة إسلامية للقرآن كانت في سانت بطرسبورج بروسيا عام (١٧٨٧م) وهي التي قام بها مولاي عثمان ، وبعد هذا قدمت إيران طبعتين حجريتين الأولى في طهران عام (١٨٢٨م) والثانية في تبريز عام (١٨٣٣م)[1].

---

(١) ينظر : صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ٩٩ وانظر مصادره .

وفي مصر قام الشيخ رضوان بن محمد الشهير بالمخللاتي بكتابة مصحف عني فيه بكتابة الكلمات في ضوء الرسم العثماني ، وقدم له بمقدمة أبان فيها تحرير المصحف ورسمه وضبطه ، وطبع بمطبعة حجرية هي المطبعة البهية في القاهرة عام (١٣٠٨هـ)[١] .

وكانت هذه الطبعة الأولى من نوعها في القاهرة ، وقد استدركت عليها بعض الملاحظات المطبعية عولجت فيما بعد .

وفي القاهرة (عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م) تشكلت لجنة عليا من مشيخة الأزهر ، مستعينة بكبار العلماء ، بإقرار من قبل الملك فؤاد الأول ، كان قوامها كل من شيخ المقارىء المصرية محمد علي خلف الحسيني ، والأستاذ حنفي ناصف العالم اللغوي ، ومصطفى عناني ، وأحمد الإسكندري .

وقد اضطلعت هذه اللجنة بمهمة ضبط المصحف ورسمه وشكله ، فكتبت القرآن ـ بإقرارها ـ موافقاً للرسم العثماني ، وعلى قراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي ، برواية حفص بن سليمان الكوفي ، ثم طبعته طبعة أنيقة بالنسبة لزمنها ، تلقاها العالم الإسلامي بالغبطة ، وكان ذلك أساس انتشار طبعات القرآن الأخرى ، ففي عام (١٩٢٤م) ، تم طبع القرآن في مطبعة بولاق في القاهرة ، وكانت هذه الطبعة هي الطبعة الرسمية للقرآن في نظر المستشرقين[٢] ، وبعبارة أخرى فهي القرآن الرسمي عندهم .

وكان القرآن قد طبع بحجم صغير في عام (١٣٣٧هـ) في مطبعة بولاق أيضاً ، وأعيدت طبعته في (١٣٤٤ ، ١٣٤٧هـ)[٣] .

وقد بقي طبع القرآن في الوطن العربي بل الإسلامي مقتصراً على مصر في أغلبية مشروعاته ، ثم قامت عدة دول بطبع القرآن طبعات أنيقة فاقت ما قدمته مصر ، وكان ذلك في عصر تقدم الطباعة وآلاتها ومستلزماتها ، وتحسين الورق وازدهار الخطوط ، وكان ذلك حديثاً وفي بدايات النصف الثاني من القرن العشرين ، حينما استعانت هذه الدول بمطابع راقية في الدول الغربية لسحب ملايين النسخ من القرآن الكريم بأبهى حلة

---

(١) ينظر : عبد الفتاح القاضي ، تاريخ المصحف الشريف ، ٩١ وما بعدها .

(٢) هناك مقالة للمستشرق الألماني نولدكه بعنوان : القرآن الرسمي (طبعة بولاق ١٩٢٤) بالنظر إلى قراءة أهل مصر ، نشرها في مجلة الإسلام ، ج : ٢٠ [ينظر : بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ١/ ١٤١] .

(٣) ينظر : بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ١/ ١٤١ .

ولا سيما في مطابع ألمانيا وشركاتها ، وكان في طليعة من تصدى لهذا العمل من دول الشرق الإسلامي وغربه كل من : السعودية والعراق وتركيا وإيران وسورية والمغرب والجزائر وتونس وغيرها.

وفي ضوء جميع ما تقدم نجد أن شكل القرآن قد استقر الآن على ما استقر عليه بالتحسينات والإيضاحات والأناقة الطباعية ، مما نقطع معه أنه لم يقدر لأي أثر ديني أن يحتفى بهذا القدر من الاحتفاء كما قدر للقرآن الكريم ، كتابة ، وشكلاً ، ورسماً ، حفظاً ، وطباعة ، وانتشاراً .

O O O

الفصل العاشر

القراءات القرآنية والقُرّاء

أولاً ـ الاتجاهات الرئيسة في أسباب نشوء القراءات القرآنية

ثانياً ـ مناقشة حديث الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن

ثالثاً ـ اختلاف القراءات وتعددها منذ عهد مبكر

رابعاً ـ وجوه القراءات

خامساً ـ عدد القُرّاء وتضارب الآراء في منزلتهم

سادساً ـ شروط القراءة المعتبرة في ضوء مقاييس النقد والقبول

سابعاً ـ أنواع القراءات من حيث السند

الفصل العاشر

القراءات القرآنية والقُرّاء

القراءات : جمع قراءة ، **وهي في اللغة** : مصدر سماعي للفعل « قرأ » **والقراءة في الاصطلاح العلمي** : مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره » .

أولاً ـ الإتجاهات الرئيسة في أسباب نشوء القراءات القرآنية:

هناك اتجاهات رئيسة في شأن نشوء القراءات القرآنية ومصادرها :

الأول : أن المصحف العثماني قد كتب مجرداً عن الشكل والنقط والإعجام ، فبدأ محتمل النطق بأحد الحروف المتشابهة في وجوه مختلفة ، فنشأت نتيجة ذلك القراءات المتعددة للوصول إلى حقيقة التلفظ بتلك الألفاظ المكتوبة ، ضبطاً لقراءة القرآن على وجه الصحة وكما نزل.

الثاني : أن منشأ ذلك هو التوصل بالرواية المسندة القطعية المرفوعة إلى رَسُول الله ﷺ في كيفية القراءة القرآنية إلى النطق بآيات القرآن الكريم كما نطقها ، وكما نزلت عليه وحياً من الله تعالى ، بغض النظر عن كتابة المصحف الشريف ، وفي هذا الضوء فهي الطرق المؤدية بأسانيدها المختلفة حتى تتصل بالنبي ﷺ ، وإذا كان الأمر كذلك ، وتحققت هذه الطرق بالأسانيد الصحيحة الثابتة ، فالقراءات متواترة وليست اجتهادية.

الثالث : اختلاف لهجات العرب وتعددها ، فبعد أن جاء الإسلام وجد لغة أدبية قد جمعت العرب على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم ، وشاء الله أن ينزل كتابه الكريم بهذه الصفة فقوى اتجاه العرب نحوها ، وبدخول العرب في الإسلام تباعاً أخذوا يهجرون لغاتهم ببطء متحولين إلى لغة القرآن التي لم تكن خالية من ألفاظ يمكن أن ترد إلى هذه القبيلة أو تلك[1].

---

(١) ينظر : د . أحمد علم الدين الجندي ، اللهجات العربية في التراث ، ٨٠ .

وهكذا تمكن القرآن من أن يوحد العرب على لغة واحدة من الأدب شعره ونثره ، ولكي يعينهم على ذلك كانت الرخصة بقراءة القرآن على سبعة أحرف كي لا يقصر المسلم على ما لا يطيق في النطق بصورة مفاجئة ، ولم يشأ رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، أن يضع بوجههم عقبات تحول دون تعلمهم القرآن وقراءته بسهولة ويسر ، فأذن رَسُول الله ﷺ لهم بتلك الرخصة « لعلمه بما هم عليه من اختلاف اللغات واستصعاب مفارقة كل فريق منهم الطبع والعادة في الكلام إلى غيره فخفف الله تعالى عنهم وسهّل عليهم بأن أقرّهم على ما يصرف طبعهم وعاداتهم في كلامهم »[1] .

وقد جرت الإشارة إلى ذلك في أحاديث صحيحة كثيرة ، رواها أصحاب الكتب الستة وغيرهم عن كثير من الصحابة بألفاظ متقاربة ومعان متفقة ، من طرق كثيرة ، وهي تتفق في أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه »[2] ، فهكذا جاء قول النبي ﷺ حلاً لتلك المشكلة اللغوية .

فمظاهر تلك الرخصة كانت متمثلة بكيفية أداء كلمات النص القرآني توسعة على الناس وتسهيلاً عليهم ، لأن تعدد وجوه القراءات في اللفظة الواحدة له من الأهمية بمكان لاستظهار المعنى القرآني وترجيح بعض الوجوه على بعض لأحد المعاني القائمة من الآية .

وقد أشار السيوطي بما أورده أبو شامة عن بعضهم بأن مصدر القراءات هو اللهجات : « أنزل القرآن بلسان قريش ثم أُبيح للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عاداتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب »[3] .

وقد سبق بذلك ابن قتيبة بما تحدث عن النبي : « فكان من تيسيره أن أمره (الله) بأن يقرئ كل قوم بلغتهم ، وما جرت عليه عاداتهم . . . ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً ، لاشتد ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه . . . »[4] .

---

(١) غانم قدوري حمد ، محاضرات في علوم القرآن ، ١٢٢-١٢٣ نقلاً عن الداني ، جامع البيان في القراءات السبع المشهورة ، ورقة ٥ ب مخطوط دار الكتب المصرية [٣ م قراءات] .

(٢) البخاري ، الجامع الصحيح ٦/ ٢٢٧ وورد عند الإمام مسلم في صحيحه ، ٢/ ٢٠٢ ، والترمذي في سننه ، ٤/ ٢٦٣ .

(٣) السيوطي ، الإتقان ، ١/ ٤٧ .

(٤) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ٣٠ .

وقد تبنى هذا الراي الدكتور طه حسين ، فاعتبر اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي ﷺ وعشيرته قريش ، اعتبر ذلك أساساً لاختلاف القراءات ، فقرأته هذه القبائل كما كانت تتكلم ، فأمالت حيث لم تكن تميل قريش ، ومرت حيث لم تكن تمر ، وقصرت حيث لم تكن تقصر ، وسكنت ، وأدغمت ، وأخفت ، ونقلت[1].

ولقد جهد المحققون منذ القرن الأول للهجرة حتى عهد ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) وهو موحد القراءات أو مُسَبِّعها إن صح التعبير ، في دراسة ظواهر القراءات القرآنية ، متواترها ، ومشهورها ، وشاذها ، فأرجعوا جزءاً من الاختلاف في القراءة إلى مظهر من مظاهر اللهجات العربية المختلفة ، وعادوا بجملة من الألفاظ إلى استعمال جملة من القبائل ، ذلك مما يؤيد وجهة النظر في عامل اللهجات ، وللسبب ذاته فإن تلاشي اللهجات وتوحيدها بلهجة قريش ، قد ساعد أيضاً على تلاشي واضمحلال كثير من جزئيات هذه القراءات وعدم إساغتها منذ عهد مبكر ، بل إن توحيد القرآن للغة العرب على لغة قريش ، قصرهم عليه كان أساساً جوهرياً في إذابة ما عداها من لغات ، مما أزاح تراكماً لغوياً يبتعد عن الفصحى ابتعاداً كلياً ، فلا تجد بعد ذلك عنعنة تميم ، ولا عجرمية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا ثلثلة بهراء ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا إمالة أسد وقيس ، ولا طمطمانية حمير.

وفي ضوء ما تقدم يمكننا أن نعدّ كلاً من شكل المصحف العثماني ، وطريقة الرواية إلى النبي ﷺ ، وتعدد اللهجات العربية ، قضايا ذات أهمية متكافئة باعتبارها مصدراً من مصادر القراءات ، كلاً لا يتجزأ ، وإلا فهي ـ على الأقل ـ أسباب عريضة في نشوء القراءات ومناهج اختلافها.

ثانياً ـ مناقشة حديث الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن:

اختلف العلماء في تفسير الأحرف السبعة التي وردت في حديث الرسول ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه » ولقائل أن يتساءل : أين هذه الأحرف السبعة في القرآن ؟ ، وهلا يدلنا أحد عليها ، ولم يتفق المفسرون بل المسلمون على المعنى المراد من هذه الأحرف ، ولا يصح الاحتجاج بما لا يفهم معناه ، ولا يقطع بمؤداه ، إذ هو احتجاج بما لا يعرف ، وأخذ بما لا يراد ، واعتماد

---

(١) ينظر : طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ٩٥ .

على ما لا يبين ، والالتزام بهذا باطل دون ريب .

وإذا كانت الأحرف السبعة منزلة من قبل الله تعالى بواسطة الوحي الذي أوحاه الروح الأمين جبرئيل ، فمعنى ذلك أنها من القرآن الإلهي ، وإلا فمن التشريع الإلهي الذي لا يرد ولا ينقض إلا أن ينسخ ، وما ادعى أحد نسخ ذلك من القائلين به .

وقد يقال ـ مع عدم وضوح الدلالة ـ : إن هذه الأحرف مما خفف به عن الأمة لوجود الشيخ والصبي والعجوز وما إلى ذلك كما في بعض الروايات[1] .

وإذا كان ذلك مما خفف به عن الأمة ، فكيف يجوز لأحد أن يشدد عليها ؟ ، وإذا كان ذلك للرحمة فكيف صح لعثمان رضي الله عنه أن يتجاوز هذه الرحمة ، ويجمع المسلمين على حرف واحد ، ثم ما عدا مما بدا ؟ فإن كان في المسلمين الأوائل من يعجز عن تلاوة القرآن حق تلاوته ، أو أن ينطق به كما نزل فتجوّز بالأحرف السبعة تيسيراً ، وهم أبلغ العرب ، فما بال المسلمين في عهد عثمان أو ما ذنبنا نحن في هذا العصر الذي انطمست به خصائص العربية حتى شدد علينا في حرف واحد .

ولسنا بصدد دفع هذا الحديث الآن ، ولكن بصدد ردّ دعوى من لا يرى للخط المصحفي أي أثر في تعدد القراءات ولهجاتها ، إذ لو كان الأمر كذلك لما كانت موافقة خط المصحف أساساً لقراءات عدة ، وميزاناً للرضا والقبول والاعتبار ، وما ذلك إلا لتحكم الخط بالقراءة . ولا نريد أن نحكم بأن الخط المصحفي هو السبب الأول والأخير في تفرغ القراءات القرآنية ، ولكن نرى أن جزءاً كبيراً من اختلاف القراءات قد نشأ عن الخط المصحفي القديم ، باعتباره محتملاً للنطق بوجوه متعددة .

قال القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) مشيراً إلى ذلك : « ثم لما كثر الاختلاف فيما يحتملهالرسم ، وقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يحل لأحد تلاوته ، وفاقاً لبدعتهم . . . رأى المسلمون أن يجمعوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم »[2] .

وتابعه على هذا الدمياطي البنا (ت ١١١٧هـ) وصرح بالأسباب ذاتها[3] .

فقد كان لاحتمال الرسم ، ما تطاول به أهل البدع فيقرؤون بما لا تحل تلاوته

---

(١) ينظر : أبو شامة ، المرشد الوجيز ، ٧٧ـ٨٩ .

(٢) القسطلاني ، لطائف الإشارات ، ٦٦/١ .

(٣) الدمياطي ، إتحاف فضلاء البشر ، ٥ .

ولا تصح قراءته ، ومعنى هذا أن قراءات ما قد نشأت عن هذا الملحظ ، فاحتاط المسلمون لأنفسهم بقراءات أئمة ثقات لدفع القراءات المبتدعة.

ثالثاً ـ اختلاف القراءات وتعددها منذ عهد مبكر:

وقد يقال : بأن الاختلاف في القراءات مما شاع في حياة النبي ﷺ ذكره ، وأن هذه القراءات السبع أو العشر أو الأكثر إنما تبرز بالمشافهة تلك القراءات كما كانت في عهد الرسول الأعظم ﷺ.

إن الاختلاف المدّعى في القراءات بعهد النبي ﷺ يعرض بروايات تنقصها الدقة والوضوح والتمديد ، فتارة يطلق فيها التجوز بالأحرف السبعة بما لا دلالة فيه كما تقدم ، وتارة تنسب الاختلاف إلى النبي ﷺ وكأنه مصدر من مصادر الفرقة في القراءات ، بينما العكس هو الصحيح لما رأيناه ـ فيما سبق ـ إن الاختلاف في القراءات جر المسلمين إلى صراع داخلي ونزاع هامشي تحسس الصحابة رضوان الله عليهم إلى خطره على القرآن فجمعوهم على قراءة واحدة[1].

فمثلاً إن هذه الروايات تارة تدعي أن النبي ﷺ أقرأ هذا بقراءة ، وغيره بقراءة أخرى ، وحيناً تدعي بأن أحد الصحابة قد سمع من صحابي مثله قراءة ما ، لسورة ما ، تختلف عما سمعه هو من رَسُول الله ﷺ ثم تحاكموا للرسول فصحح القراءتين.

أما : ما هذه السورة المختلفة الحروف ؟ وما عدد آياتها المتعددة القراءة ؟ ، وما كيفية هذا الاختلاف ونوعية فروقه ؟ فلم يصرح بجميع ذلك ، مما يجعلها روايات قابلة للشك ، ومع حسن الظن بالرواة فإن رواياتهم تلك قد تعبر عن السهو والاشتباه.

إننا لا ننكر الاختلاف في القراءات بعهد مبكر ، فباستعراض تاريخ الموضوع يبدو أن تمايز القراءات كان موجوداً قبل توحيد القراءة زمن عثمان ، فقد أشير إلى كثرة الاختلاف بعهده ، حتى قال الناس : قراءة ابن مسعود ، وقراءة أُبيّ ، وقراءة سالم[2].

فهناك الكثير من الروايات التي يجب أن نتمحص فيها قبل الأخذ بها على علاتها ، إذ أننا نحتاج بمثل هذا الموضوع الخطير إلى الجزئيات والدقائق لنضع النقاط على الحروف.

فلننظر إلى هذه الرواية التي أوردها أبو شامة عن زيد بن أرقم قال :

---

(١) ينظر : فيما سبق موضوع : جمع القرآن .

(٢) ينظر : مقدمتان في علوم القرآن ، ٤٤ .

« جاء رجل إلى رَسُول الله ﷺ فقال : أقرأني عبد الله بن مسعود سورة أقرأنيها زيد ، وأقرأنيها أُبيّ بن كعب ، فاختلفت قراءتهم ، بقراءة أيهم آخذ ؟ فسكت رَسُول الله ﷺ قال : وعلي رضي الله عنه إلى جنبه ، فقال علي : ليقرأ كل إنسان كما علم ، كل حسن جميل . . . »[1].

وقد ذكر الطبري هذه الرواية ، وتعقبه الأستاذ أحمد محمد شاكر في تعليقه فقال : « هذا حديث لا أصل له ، رواه كذاب ، هو عيسى بن قرطاس ، قال فيه ابن معين ليس بشيء لا يحل لأحد أن يروي عنه . وقال ابن حبّان : يروي الموضوعات عن الثقات ، لا يحل الاحتجاج به ، وقد اخترع هذا الكاتب شيخاً له روى عنه سماه : زيد القصار ، ولم نجد لهذا الشيخ ترجمة ولا ذكراً في شيء من المراجع . . . »[2].

وبعد هذا فليس هناك مسوغ على الإطلاق أن نأخذ بكل رواية على علاتها دون تمحيص ، ودون تجويز الافتراء على الضعفاء من الرواة.

رابعاً ـ وجوه القراءات:

وتعدد القراءات أنّى كان مصدره ، مهما كان مقياسه صحة أو شذوذاً ، فقد حدده الشيخ محمد بن الهيصم وقال : أما القراءات فإنها على ثلاثة أوجه :

١ـ أن يغلط القارئ فيقرأ على خلاف ما هو الحق ، وذلك ما لا يجوز أن يعتد به في قراءات القرآن ، وإنما يرجع لومه على الغالط به.

٢ـ أن يكون القرآن قد نزل على لغةٍ ، ثم خرج بعض القراء منه إلى لغة أخرى من لغات العرب مما لا يقع فيه خلاف في المعنى ، فترك النكير عليه تيسيراً وتوسعة ، فنقل ذلك وقرأ به بعض القراء.

٣ـ والوجه الثالث من القراءات هو ما اختلف باختلاف النزول بما كان يعرض رَسُول الله ﷺ القرآن على جبريل في كل شهر رمضان . . . فكان أصحاب رَسُول الله ﷺ يتلقفون منه حروف كل عرض ، فمنهم من يقرأ على حرف ، ومنهم من يقرأ على آخر ، إلى أن لطف الله عز وجل بهم ، فجمعهم على آخر العرض ، أو على ما تأخر من عرضين أو ثلاثة ، حتى لم يقع في ذلك اختلاف إلا في أحرف قليلة ، وألفاظ

---

(١) أبو شامة ، المرشد الوجيز ، ٨٥ .

(٢) الطبري ، جامع البيان ، ١/ ٢٤ الهامش .

متقاربة »[1].

والوجه الثالث لا دلالة فيه إذ إن عرض القرآن يعني تدقيقه وتوثيقه.

ومما لا شك فيه أن الاختلاف في جملة القراءات كان في الأقل ، وأن الاتفاق كان في الأعم الأكثر ، والنظر في المصاحف الأولى نجده يؤيد الاختلاف في قلة معدودة من الكلمات ، نطقاً وإمالة وحركات ، وقدجمعت في كتاب المباني محدودة « اختلف مصحفا أهل المدينة والعراق في اثني عشر حرفاً ، ومصحفا أهل الشام وأهل العراق في نحو أربعين حرفاً ، ومصحفا أهل الكوفة والبصرة في خمسة حروف »[2].

فإذا كان بعض الخلاف في القراءات مصدره اختلاف مصاحف الأمصار ، فالاختلافات ضيقة النطاق ، وتظل القضية قضية تاريخية فحسب ، إذ القرآن في الوقت الحاضر الذي أجمع عليه العالم الإسلامي ، وهو ذات القرآن الذي نزل به الوحي على رَسُول الله ﷺ - مرقوم برواية حفص لقراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي ، باستثناء المغرب العربي الذي اعتمد قراءة نافع المدني برواية ورش.

وتبقى المسألة بعد هذا أثرية العطاء ، نعم قد تبدو الهوة سحيقة فيما يدعى من خلافات لا طائل معها ، ولكن النظرة العلمية الفاحصة ، تخفف من حدتها ، فما من شك أن عاملاً متشابكاً وراء تلك الخطوط المتناثرة هنا وهناك ، ذلك هو المناخ الإقليمي السائد آنذاك في الأفق العلمي ، فهو مما يجب الوقوف عنده ، ألا وهو النزاع القائم بين مدرستي الكوفة والبصرة ، وما نشأ عنه من تعصب إقليمي حيناً ، واختلاف تقليدي حيناً آخر ، ومزيج من هذا وذاك بعض الأحايين ، فدرج جيل يصوب رأي الكوفيين ، وآخر يؤيد نظر البصريين ، مما طبع أثره على جملة من شؤون التراث ، والقراءات جزء من ذلك التراث ، وأفرغ كثيراً من الإسراف في التجريح والتعديل ، فعاد صراعاً عشوائياً لكل يوثق به الضعفاء ، ويضعف به الثقات في كثير من المظاهر ، وقد لا يكون لكل ذلك أصل ، فطالما حمل البصريون أو من شايعهم على الكوفيين وبالعكس ، وطالما تعصب لمذهب من القراءة جيل من الناس وجانب قراءة جيل آخر ، دون العودة إلى قاعدة متأصلة.

وهذا الملحظ الدقيق جدير بالتمحيص والترصد بغية الوصول إلى مقياس علمي أصيل توزن في ضوئه حقائق القراءات.

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ، ١٧٠ وما بعدها .

(٢) مقدمتان في علوم القرآن ، ١١٧ .

خامساً ـ عدد القُرّاء وتضارب الآراء في منزلتهم:

وكما اختلف في مصادر القراءات ومنابعها ، فقد اختلف في القراء وعددهم ، وتضاربت الآراء في منزلتهم وشهرتهم ، فكان منهم السبعة ، والعشرة ، والأربعة عشر ، وكان اعتبارهم يتردد بين الأقاليم تارة أو بين الشهرة تارة أخرى ، وبينهما في أغلب الأحيان ، وقد تحل المنزلة العلمية مكان الشهرة حيناً ، وقد يكون العكس هو المطرد ، وقدتتحقق الشهرة عند باحث ، وتنتفي عند باحث غيره ، وهكذا . .

وقد كان مشاهير القراء قبل ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) على النحو الآتي :

١ـ عبد الله اليحصبي ، المعروف بابن عامر (شامي) ، (ت ١١٨هـ).

٢ـ عاصم بن أبي النجود (كوفي) ، (ت ١٢٧هـ).

٣ـ عبد الله بن كثير الداري (مكي) ، (ت ١٢٩هـ).

٤ـ أبو عمرو بن العلاء (بصري) ، (ت ١٥٤هـ).

٥ـ نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (مدني) ، (ت ١٦٩هـ).

٦ـ حمزة بن حبيب الزيات (كوفي) ، (ت ١٨٨هـ).

٧ـ يعقوب بن أبي إسحاق الحضرمي (بصري) ، (ت ٢٠٥هـ).

وقد حذف ابن مجاهد يعقوب من السبعة وأثبت مكانه **علي بن حمزة الكسائي الكوفي (ت ١٨٩ هـ) واعتبره من القراء السبعة** ، وهكذا كان.

أما من عدّ القراء عشرة فهو ابن الجزري الذي ألف كتابه الجامع (النشر في القراءات العشر) ، فأضاف لهم زيادة على تسبيع ابن مجاهد وتعيينه لهم ثلاثة هم :

١ـ يزيد بن القعقاع (ت ١٣٠هـ).

٢ـ يعقوب الحضرمي (ت ٢٠٥هـ).

٣ـ خلف بن هشام (ت ٢٢٩هـ).

ويبدو أن الكسائي (ت ١٨٩هـ) لم يكن معدوداً من القراء السبعة ، وإنما ألحقه ابن مجاهد في سنة ثلاث مئة أو نحوها بدل يعقوب الحضرمي وقد كان السابع[1].

وفي هذا الضوء نجد القراء عند ابن مجاهد هم : نافع ، ابن كثير ،

---

(١) ينظر : أبو شامة ، المرشد الوجيز ، ١٥٣ .

عاصم ، حمزة بن حبيب ، الكسائي ، أبو عمرو بن العلاء ، عبد الله بن عامر .

وقد عقّب ابن مجاهد على ذلك بقوله :

« هؤلاء سبعة نفر ، من أهل الحجاز ، والعراق ، والشام ، خلفوا في القراءة التابعين ، وأجمعت على قراءتهم العوام من أهل كل مصر من هذه الأمصار التي سميت وغيرها من البلدان التي تقرب من هذه الأمصار »[1] .

وواضح أن تقسيم ابن مجاهد تقسيم إقليمي نظر فيه إلى اعتبار الأمصار التي وجهت إليها المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه لا باعتبار تعصب إقليمي من قبله .

وابن مجاهد أول من اقتصر على هؤلاء السبعة ، فإنه أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام ، إذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة ، من القرآن وتفسيره ، والحديث ، والفقه في الأعمال الباطنة والظاهرة وسائر العلوم الدينية[2] .

وقد تبعه الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) بتصنيف القرّاء في ضوء الأقاليم الإسلامية ، ولكنه اختلف معه بالتعيين ، فأسماء القراء المشهورين عنده باعتبار الأمصار كالآتي :

١ـ أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، مدني وليس من السبعة .

٢ـ عبد الله بن كثير ، مكي من السبعة .

٣ـ عاصم بن أبي النجود ، كوفي من السبعة .

٤ـ حمزة بن حبيب ، كوفي من السبعة .

٥ـ علي بن حمزة الكسائي ، كوفي من السبعة .

٦ـ خلف بن هشام ، كوفي ، وليس من السبعة وله اختيار .

٧ـ أبو عمرو بن العلاء ، بصري وليس من السبعة .

٨ـ يعقوب بن إسحاق الحضرمي ، بصري وليس من السبعة .

٩ـ أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني ، بصري وليس من السبعة .

---

(١) ابن مجاهد ، كتاب السبعة في القراءات ، ٨٧ .

(٢) ينظر : القسطلاني ، لطائف الإشارات ، ٨٦/١ .

١٠ـ عبد الله بن عامر ، شامي من السبعة[١] .

فالطبرسي عدّ من القراء السبعة : عبد الله بن كثير ، وعاصم ، وحمزة بن حبيب ، والكسائي ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن عامر ، بينما أسقط نافع بن عبد الرحمن ، قارىء أهل المدينة .

وعدّ من غيرهم : يزيد بن القعقاع ، وخلف بن هشام ، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي وسهل بن محمد السجستاني .

فعدد القراء المشهورين عنده عشرة ، وقد عقب على تعيينه لهؤلاء بما يلي :

« وإنما اجتمع الناس على قراءة هؤلاء واقتدوا بهم لسببين :

أحدهما : أنهم تجردوا لقراءة القرآن ، واشتدت بذلك عنايتهم مع كثرة علمهم ، من كان قبلهم أو في أزمنتهم ممن نسب إليه القراءة من العلماء ، وعدت قراءتهم من الشواذ ، لم يتجرد لذلك تجردهم ، وكان الغالب على أولئك الفقه والحديث أو غير ذلك من العلوم .

والآخر : أن قراءتهم وجدت مسندة لفظاً أو سماعاً حرفاً حرفاً من أول القرآن إلى آخره مع ما عرف من فضائلهم أو كثرة علمهم بوجوه القرآن »[٢] .

والحق أن القراء الذين ذكرت قراءتهم فيما ألف من كتب القراءات يزيد على هذا العدد كثيراً ، وفيهم من هو أسبق منهم تاريخياً ، فقد تتبع الدكتور الفضلي من ألف في القراءات قبل اختيار ابن مجاهد للقراء السبعة ، فبلغت عدتهم عنده أربعة وأربعين مؤلفاً ، ابتداءً من يحيى بن يعمر (ت ٩٠هـ) وانتهاءً بأبي بكر محمد بن أحمد الداجوني (ت ٣٢٤هـ)[٣] .

وكان نتيجة لهذا الإحصاء الدقيق أن ظهر أن هذه المؤلفات لم تختص بالقراءات السبع أو العشر أو الأربع عشرة ، وقُرّاء تلك القراءات ، بل اتضح من خلال العرض التحليلي أن فيها من هو متقدم على بعض القراء المشهورين تاريخاً ، حتى إذا جاء ابن مجاهد التميمي البغدادي (ت ٣٢٤هـ) فاختار من الجميع أولئك .

---

(١) ينظر : الطبرسي ، مجمع البيان ، ١/ ١١ وما بعدها .
(٢) المصدر نفسه ، ١/ ١٢ .
(٣) ينظر : عبد الهادي الفضلي ، القراءات القرآنية ، ٢٧/ ٣٢ .

أما سبب اشتهار القراءات بأسماء رواتها :

فقد علل مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) وجه الاقتصار على هؤلاء دون غيرهم فقال :

« إن الرواة عن الأئمة من القراء كانوا في العصر الثاني والثالث كثيراً في العدد ، كثيراً في الاختلاف ، فأراد الناس في العصر الرابع أن يقتصروا من القراءات التي توافق المصحف على ما يسهل حفظه ، وتنضبط القراءة به ، فنظروا إلى إمام مشهور بالثقة والأمانة ، وحسن الدين ، وكمال العلم ، فقد طال عمره ، واشتهر أمره ، وأجمع أهل عصره على عدالته فيما نقل ، وثقته فيما روى ، وعلمه بما يقرأ ، فلم تخرج قراءته عن خط مصحفهم المنسوب إليهم ، فأفردوا من كل مِصْرٍ وجّهَ إليه عثمان مصحفاً ، إماماً هذه صفته ، وقراءته على مصحف ذلك المصر »[1] .

سبب اختلاف القراء في القراءات:

وبملاحظة ما حققه ابن مجاهد من جمعه للقراءات ، وبيان وجوه الاختلاف فيها ، يتجلى أن الاختلاف ليس من العسر بمكان ، حيث قد تؤدي إلى تشويه النص ، أو تغيير الأحكام ، أو اضطراب القراءة ، بل نجد الأعم الأغلب منه إنما يرجع إلى أصول الأداء ، وطريقة التلفظ ، وتحقيق النطق مدغماً أو ممالاً ، منقوطاً أو غير منقوط ، إمداداً وإشماماً ، وهو اختلاف لا يضفي على النص القرآني أي مردودمعقد لا يمكن معه الوصول إلى الحقيقة القرآنية ، مما يقرب إلينا القول بأن هذه القراءات إنما اشتبكت وتظاهرت وتفاوتت اجتهاداً في كيفية أداء النطق تارة ، وطريقة تلفظه تارة أخرى ، ومردود اللهجات بين ذلك .

وهذا إنما يجري في القراءات المتواترة رواية مرفوعة ، أو دراية من أصحابها ، ولا ينطبق على القراءات الشاذة التي أصبحت فيما بعد عرضة لزلل الأهواء .

وقد بلغت القراءات السبع حد الرضا والقبول عند المسلمين وعلمائهم ، فلم يؤثر عليها تعدد القراءات ، ولم يؤثروا عليها سواها .

وكان إلى جانب القراءات اختيار في القراءات قد تشمل هذه القراءات ، وقد لا تشملها ، وهي لا تحمل الطابع الشخصي لأصحابها ، بل هي ضمن

---

(١) مكي بن أبي طالب ، الإبانة في معاني القراءات ، ٤٧ـ٤٨ .

قواعد قد تتسم بالطابع الشمولي العام.

قال مكي بن أبي طالب : « وأكثر اختياراتهم إنما هو في الحرف إذ اجتمع في ثلاثة أشياء :

ـ قوة وجهه في العربية.

ـ وموافقته للمصحف.

ـ واجتماع العامة عليه.

والعامة ـ عندهم ـ ما اتفق عليه أهل المدينة وأهل الكوفة ، فذلك عندهم حجة قوية ، فوجب الاختيار.

وربما جعلوا العامة ما اجتمع عليه أهل الحرمين.

وربما جعلوا الاختيار على ما اتفق عليه نافع وعاصم ، فقراءة هذين الإمامين أوثق القراءات وأصحها سنداً ، وأفصحها في العربية ، ويتلوهما في الفصاحة خاصة : قراءة أبي عمرو والكسائي رحمهم الله »[1].

ويبدو مضافاً إلى ما تقدم أن لأئمة الإقراء أنفسهم تصرفاً يقوم على حسن النظر وأصول الاستنباط ، يتمثل باختيارهم للقراءة التي تنسب إليهم ، فهم يتدارسون القراءات على يد نخبة من التابعين ، ومن ثم يقارنون بين هذه القراءات التي أخذوها ، ويحكمون مداركهم في أسانيدها وأصولها ومصادرها ، فيؤلفون القراءة التي يختارونها بناءً على كثرة الموافقات عند أغلب الشيوخ المقرئين ، فقد قال نافع بن أبي نعيم (ت ١٦٩هـ) وهو يتحدث عن مشايخه في الإقراء :

« أدركت هؤلاء الخمسة وغيرهم . . . فنظرت إلى ما أجمع عليه اثنان منهم فأخذته ، وما شذ فيه واحد تركته ، حتى ألفت هذه القراءة »[2].

وربما كان المقرىء مخالفاً لأستاذه في اختياره للقراءة ، ناظراً في وجوه القراءات الأخرى ، كما هي الحال عند الكسائي حينما اختار من قراءة حمزة وقراءة من سواه ، وأسس لنفسه بذلك اختياراً[3].

---

(١) مكي بن أبي طالب ، الإبانة في معاني القراءات ، ٤٨ وما بعدها .

(٢) ابن مجاهد ، كتاب السبعة في القراءات ، ٦٢ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ٧٨ .

وقد شجعت ظاهرة الاختيار في القراءة على القضاء على النزعة الإقليمية التي انتشرت في نسبة القراءات للأمصار ، إذا امتزجت هذه القراءات في الأغلب نتيجة للاختيار ، فتداخلت قراءة أهل المدينة بقراءة أهل الكوفة ، وقراءة الشام بقراءة العراق ، فلم تعد القراءة فيما بعد إقليمية المظهر ، بقدر ما هي علمية المصدر ، وفي هذا الضوء وجدنا القراء السبعة يمثلون خلاصة التجارب الماضية للقرنين الأول والثاني في العطاء العلمي المشترك بين الأقاليم ، حتى وحدت ونسبت منفردة إلى عاصم ، أو نافع ، أو الكسائي.

ووقف الاختيار على أعتاب القرن الرابع ، حيث بدأ ابن مجاهد في حفظ القراءات والاختيارات ، دون التفكير بتجديد ظاهرة الاختيار التي لم تعد من هموم هؤلاء الأعلام أمثال ابن مجاهد ، بل اتجهت هممهم إلى صيانة تلك القراءات ، لا إلى الاختيار.

وفي ضوء ما تقدم يبدو لنا أن الاختيار :

عبارة عن استنباط القراءة من خلال النظر الاجتهادي في القراءات السابقة ، والموازنة فيما بينها على أساس السند في الرواية ، أو الوثاقة في العربية ، أو المطابقة في الرسم المصحفي ، أو إجماع العامة من أهل الحرمين أو العراقين ، أو الموافقة بين مقرئين ، ومن خلال ذلك نشأت القراءات المختارة.

يقول القرطبي : « وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء ، وذلك أن كل واحد منهم اختار مما روي وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، والتزم طريقه ورواه ، وأقرأ به ، واشتهر عنه وعرف به »[1].

فإضافة القراءة لصاحبها إضافة اختيار لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد[2] ومما يؤيد هذا الكلام أورد أبو شامة باعتبار القراءة سنة ، والسنة لا مورد فيها للاجتهاد بالمعنى المشار إليه : « ألا ترى أن الذين أخذت عنهم القراءة إنما تلقوها سماعاً ، وأخذوها مشافهة ، وإنما القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول ، ولا يلتفت في ذلك إلى الصحف ، ولا إلى ما جاء من وراء وراء »[3].

---

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١٥/ ٤٠ .

(٢) ينظر : ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ، ١/ ٥٢ .

(٣) أبو شامة ، المرشد الوجيز ، ١٣٢ .

سادساً ـ شروط القراءة المعتبرة في ضوء مقاييس النقد والقبول:

وإلى جانب الحيطة في الاختيار ، كانت الحيطة للقراءة نفسها ، فلم يأخذوا بكل قراءة ، بل وضع العلماء بعض المقاييس النقدية والاحترازية لقبول القراءة أو رفضها ، مما يتضح مدى عناية القوم بالقراءة المختارة ، بعد أن عسر الضبط ، وظهر التخليط ، واشتبه الأمر .

ويبدو أن الأساس في ذلك هو :

١ـ أن تكون القراءة صحيحة الإسناد .

٢ـ موافقتها لخط المصحف العثماني .

٣ـ موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه .

فتلك هي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها سواء نقلت عن الأئمة السبعة أو غيرهم ، وما لم تجتمع بها هذه الشروط الثلاثة فهي شاذة مردودة لا يقرأ بها ، أياً كان الإمام الذي نقلت عنه .

قال القسطلاني نقلاً عن الكواشي : « فمن ثم وضع الأئمة لذلك ميزاناً يرجع إليه ، ومعياراً يعول عليه ، وهو السند والرسم والعربية ، فكل ما صح سنده ، واستقام وجهه في العربية ، ووافق لفظه خط المصحف الإمام فهو من السبعة المنصوصة ، فعلى هذا الأصل بني قبول القراءات عن سبعة كانوا أو سبعة آلاف ، ومتى فقد شرط من هذه الثلاثة فهو شاذ »[١] .

والشاذ لا يعمل به في القراءات ولا يقاس عليه : « وقد أجمع الأصوليون والفقهاء وغيرهم ، على أن الشاذ ليس بقرآن ، لعدم صدق حد القرآن عليه ، أو شرطه وهو التواتر »[٢] .

وكان ابن الجزري قد أدخل جانب الاحتمال في بعض الشروط ، وصنف القراءة المعتبرة والباطلة فقال : « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وصح سندها ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها . . . ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة

---

(١) القسطلاني ، لطائف الإشارات ، ١/ ٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ١/ ٧٢ .

أو باطلة ، سواء كانت عن السبعة أو عمن هو أكبر منهم ، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف »[1] .

والمقصود بموافقة القراءة لخط المصحف العثماني ـ ولو احتمالاً ـ أن تكون أصول الكتابة أو الرسم التي كتب بها المصحف العثماني بما يحتمل القراءة ، ويقبلها بوجه من الوجوه ، ولو تقديرا ، كقوله تعالى : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] ففي ﴿مَٰلِكِ﴾ قراءتان : القصر « مَلِك » والمد « مالك » . ورسم المصحف العثماني « ملك » فهو موافق لقراءة القصر تحقيقاً ، وموافق لقراءة المد تقديراً .

ومثل ذلك ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : ٩] فقد قرىء ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ بالمد والقصر . ومثل ذلك ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فقد قرىء بالسين والصاد ، وكتابة المصحف بالصاد ، إلا أن الرسم يحتمله : إذ السين والصاد وما بينهما من الإشمام خاضع لرسم واحد تحقيقاً أو تقديراً[2] .

وتكاد أن تتلاقى كلمات الأعلام في مقياس القراءة الصحيحة ، وتتداعى الخواطر في صياغة ألفاظها ، فقد اشترط مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) في وجه صحتها ما يلي : « أن ينقل عن الثقات إلى النبي ﷺ ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعاً ويكون موافقاً لخط المصحف »[3] .

ومع هذا فقد نجد أبا عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ) جدياً في مسألة القراءة ، إذ يعدّها سنة لا تخضع لمقاييس لغوية ، وإنما تعتمد الأثر والرواية فحسب ، فلا يردها قياس ، ولا يعَرّبُها استعمال فيقول : « وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة ، والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر ، والأصح في النقل ، وإذا ثبتت الرواية لم يردها قياس عربية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة ، يلزم قبولها والمصير إليها »[4] .

وما أبداه الداني لا يخلو من نظر أصيل ، إذ القراءة إذا كانت متواترة صحيحة السند ، فهي تفيد القطع ، ولا معنى لتقييد القطع بقياس أو عربية ، فالعربية إنما تصحح في ضوء القرآن ، ولا يصحح القرآن في ضوء العربية ، ومع هذا فإن الإجماع

---

(١) السيوطي ، اتقان ، ١/ ٢١٠ .
(٢) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ١/ ٧٥ .
(٣) مكي بن أبي طالب ، الإبانة في معاني القراءات ، ١٨ .
(٤) السيوطي ، الإتقان ، ١/ ٢١١ .

القرائي يكاد أن يكون متوافراً على اشتراط صحة السند ، ومطابقة الرسم المصحفي ، وموافقة اللغة العربية ، لهذا تختلف النظرة بالنسبة للقراءة في ضوء تحقق هذه الشروط أو عدمها ، وقد نتج عنه تقسيم القراءات إلى صحيحة وشاذة ، فما اجتمعت فيه من القراءات هذه الشروط فهو الصحيح ، وما نقص عنه فهو الشاذ.

وفي هذاالضوء ولد ـ في عهد ابن مجاهد ـ مقياسان آخران ، وماتا في مهدهما ، لعدم تلقي المسلمين لهما بالقبول ، أو لرفضهم لهما ، وهما :

مقياس ابن شنبوذ (ت ٣٢٧هـ) الذي اكتفى فيه بصحة السند وموافقة العربية.

ومقياس ابن مقسم (ت ٣٥٤هـ) الذي اكتفى فيه بمطابقة المصحف وموافقة العربية.

سابعاً ـ أنواع القراءات من حيث السند:

لقد تحرر للسيوطي مع المقارنة فيما كتبه ابن الجزري في كتابه (النشر في القراءات العشر) **أن القراءات أنواع :**

الأول : المتواتر : وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم إلى منتهاه ، وهذا هو الغالب في القراءات.

الثاني : المشهور : وهو ما صح سنده ، ولم يبلغ درجة التواتر ، ووافق العربية والرسم العثماني ، واشتهر عند القُرّاء.

الثالث : الآحاد : وهو ما صح سنده ، وخالف الرسم العثماني أو العربية ، أو لم يشتهر بالاشتهار المذكور ،وهذا النوع لا يقرأ به ، ولا يجب اعتقاده قرآناً ، لأن العقيدة لا تثبت بخبر الواحد.

الرابع : الشاذ : وهو ما لم يصح سنده ، وهذا لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده.

الخامس : الموضوع : وهو ما لا أصل له ، وهذا لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده.

السادس : المُدرج : وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير ، وهذا لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده[1].

وهذا التقسيم الذي استخرجه السيوطي مما أفاضه ابن الجزري جدير بالأهمية إذ هو جامع مانع كما يقول المناطقة . .

---

(١) ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ٢١٦/١ .

وتبقى النظرة إلى هذه القراءات متأرجحة بين التقديس والمناقشة ، فمن يقدسها بعدها قرآنا ، ومن يناقشها بعدها علماً بكيفية أداء كلمات القرآن ، وفرق بين القرآن وأداء القرآن.

فالباقلاني (ت ٤٠٣هـ) يذهب : إلى أن القراءات قرآن منزل من عند الله تعالى ، وأنها تنقل خلفاً عن سلف ، وأنهم أخذوها من طريق الرواية ، لا من جهة الاجتهاد ، لأن المتواتر المشهور أن القراء السبعة إنما أخذوا القرآن رواية لأنهم يمتنعون من القراءة بما لم يسمعون[١].

بينما خالفه الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في هذا الملحظ ، واعتبر القرآن حقيقة والقراءات حقيقة أخرى فقال : « والقرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان ، فالقرآن : هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز ، والقراءات : اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما »[٢].

والحق أن رأي الزركشي يتفق مع تعريف القراءات المتداول عند أئمة التحقيق ، فقد ذهبوا إلى أن علم القراءات : هو علم يعرف منه اتفاق الناقلين لكتاب الله واختلافهم في اللغة والإعراب ، والحذف والإثبات ، والتحريك والإسكان ، والفصل والاتصال ، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال من حيث السماع[٣].

والحق أن لا علاقة بين حقيقة القرآن وحقيقة القراءات ، فالقرآن هو النص الإلهي المحفوظ ، والقراءات أداء نطق ذلك النص اتفاقاً أو اختلافاً ، والقرآن ذاته لا اختلاف في حقيقته إطلاقاً.

وقد استظهر الزركشي تواتر القراءات عن القراء السبعة « أما تواترها عن النبي ﷺ ففيه نظر ، فإن إسناد الأئمة السبعة بهذه القراءات السبعة موجودة في كتب القراءات ، وهي نقل الواحد عن الواحد ، ولم تكتمل شروط التواتر في استواء الطرفين والواسطة ، وهذا شيء موجود في كتبهم ،وقد أشار الشيخ شهاب الدين أبو شامة في كتابه (المرشد الوجيز) إلى شيء من ذلك[٤].

---

(١) الباقلاني ، نكت الانتصار لنقل القرآن ، ٤١٥ .
(٢) الزركشي ، البرهان ، ١/ ٣١٨ .
(٣) القسطلاني ، لطائف الإشارات ، ١/ ١٧٠ .
(٤) الزركشي ، البرهان ، ١/ ٣١٩ .

ويكاد أن ينعقد إجماع المسلمين على حجية هذه القراءات وتواترها ، سواء أكان تواترها عن النبي ﷺ أو عن أصحابها ، وعلى جواز القراءة بها في الصلاة وغيرها .

وأن غير المتواتر المشهور لا تجوز القراءة بها في الصلاة ولا في غيرها . قال النووي في (شرح المهذب) : لا تجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءة الشاذة ، لأنها ليست قرآناً ، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ، والقراءة الشاذة ليست متواترة ، ومن قال غيره فغالط أو جاهل ، فلو خالف وقرأ بالشاذ أنكر عليه قراءته في الصلاة وغيرها ، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة من قرأ بالشواذ ، ونقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشواذ ، ولا يُصلَّى خلف من يقرأ بها .

الفصل الحادي عشر

ترجمة القرآن الكريم

أولاً ـ مدلول الترجمة

ثانياً ـ أقسام الترجمة وأجزاؤها

أ ـ ترجمة الألفاظ (الترجمة الحرفية)

ب ـ ترجمة المعاني (الترجمة التفسيرية)

ثالثاً ـ شروط الترجمة وضوابطها

أ ـ شروط المترجم

ب ـ شروط الترجمة

رابعاً ـ المشكلات البلاغية التي تعترض سبيل الترجمة القرآنية

أ ـ دلالة الألفاظ

ب ـ التركيب الجملي

جـ ـ النظم والسياق القرآني

خامساً ـ ترجمات القرآن إلى اللغات الأجنبية ليست بترجمات ، بل هي تعابير عن بعض المفاهيم القرآنية بلغات أجنبية

الفصل الحادي عشر

ترجمة القرآن الكريم

هذا فصل يتكفل بطرح قضايا متعددة من قضايا ترجمة القرآن الكريم ، تتعلق محاوره الأساسية بتوضيح مدلول الترجمة والترجمة القرآنية وبيان أقسامها وأجزائها ، ويشير إلىٰ الضروري من آدابها وشروطها ، ويلخص بإيجاز أهميتها وقيمتها الفنية .

كما سلطنا الأضواء على مجموعة من المشكلات البلاغية التي تعترض سبيل الترجمة القرآنية في اللفظ والمعنى والنظم القرآني ، حاولنا بتواضع الكشف عن مواطنها ، والتعقيب على مضامينها ، وانتهينا إلى استحالة الترجمة الدقيقة للقرآن ، ورجحنا أن يكون ما تواضعوا عليه باسم ترجمة القرآن أو ترجمة معاني القرآن ، ينبغي أن يسمى ترجمة مفاهيم القرآن ، دون الخوض في مشكلة الألفاظ ودلالاتها ، أو استقصاء المعاني في إرادتها ، أو استيعاب النظم وسلامة البناء ، فكانت الحصيلة تقويماً لظاهرة الترجمة القرآنية ، وتحقيقاً لما ينبغي أن تكون عليه في ضوء تعاليم القرآن العامة ، استثناء من التقيد بالحرفية في النص ، أو الشمولية في المعنى ، أو الصورة في النظم ، مما ينبغي رفض المحاولات الساذجة في التسمية غير الدقيقة ، أو التطبيق اللا فني ، لأن القرآن متعبد بتلاوته في لغته نصاً ، مما يؤكد خروج أية ترجمة من الحد الأدنى للقرآنية ، ولأن القرآن معجز بألفاظه ومعانيه ، ولا تصح صيغة الإعجاز إلا بوجه من عربيته ، فإذا انتفت عربيته انتفى إعجازه ، ولم يعد قرآناً في شتى صنوف الترجمات ، نعم تبقى مفاهيمه قابلة للترجمة ، وأحكامه متسعة للنقل ، وفاءً بعالمية القرآن وإنسانيته ، فالقرآن وإن كان عربي النص إلا أنه عالمي الدلالة ، وهو وإن كان إنساني الرسالة إلا أنه عربي العبارة ، وللتوفيق بين هاتين النظرتين الشموليتين ، كانت ترجمة مفاهيمه كافية لتحقيق الغرض الفني ، وإذا التقى الغرض الديني بالغرض الفني في نص من النصوص بلغ الذروة في الهدف ، وقد كان القرآن كذلك .

وإزاء عرض هذه القضايا لا بد من الإحاطة ولو جزئياً بمدلول الترجمة والترجمة القرآنية في صدر البحث تمهيداً للدخول في صلب الموضوع .

أولاً ـ مدلول الترجمة:

للترجمة دلالتان ، تعني الأولى بأصل الوضع اللغوي ، وتعني الثانية بطبيعة المصطلح الفني لها :

ففي اللغة : الترجمة بزنة فعللة ، بيان لغة بلغة أخرى ، واللغة التي تبين لغة أخرى ، وقد ترجم كلامه إذا فسره بلسان آخر ، والترجمان هو المفسر للسان ، وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر[1] .

وتفسير الكلام بلسان آخر أو بلغة أخرى ، يخرج « علم التفسير » لغة واصطلاحاً عن مدلول الترجمة ، إذ التفسير بيان بلغة الأصل ، وهو يعني بالكشف والبيان والإيضاح لغة ، ويبحث فيه عن القرآن الكريم في دلالته على مراد الله تعالى اصطلاحاً.

وأما الترجمة فهي بيان بلغة غير الأصل ، وبذلك يزال اللبس بين المصطلحين ، وتبدو استقلالية كل منهما عند الإطلاق.

وأما الترجمة في دلالتها الاصطلاحية : فهي عبارة عن النقل من لغة إلى أخرى نقلاً حرفياً مع التزام الصورة اللفظية للكلمة أو ترتيب العبارة[2] .

ويبدو أن المعنى الاصطلاحي للترجمة منحدر من الأصل اللغوي في حدود النقل من لغة إلى أخرى ، إلا أن المدلول اللغوي أوسع منه إذ لا تقييد فيه بالنقل الحرفي أو الصورة اللفظية ، بل هو تيسير ما يفي بمعنى العبارة وتفسير النص.

وفي هذا الضوء نميل إلى أن الترجمة في الاصطلاح : هي نقل الكلام من لغته الأصلية إلى لغة أجنبية مع الحفاظ على المعاني والخصائص والإشارات للغة الأولى في اللغة الثانية ، نصاً أو تعبيراً ، بحيث يؤدي المعنى المراد بمميزاته في اللغة الأم.

وبناءً على هذا التأسيس فترجمة القرآن تعني : نقل القرآن الكريم من لغته إلى لغة أجنبية مع الوفاء بجميع الدلالات والمعاني والخصائص الفنية للغة

---

(١) قارن في الجمع بين هذه التعريفات عند كل من : ابن منظور ، لسان العرب ، ١٢/٢٢٩ ، والفيروزأبادي ، القاموس المحيط ، ٤/ ٨٣ والتهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، ٣/ ٧٧ .

(٢) ينظر : مرعشلي ، الصحاح في اللغة والعلوم ، ١/ ١٣٩ ، ومجمع اللغة العربية ، مجموعة المصطلحات العلمية والفنية ، ١٠/ ١٣٢ .

العربية حين النقل نصاً أو تعبيراً ، بحيث يؤدي المعنى المراد متكاملاً بمميزاته الأصلية في لغته الأولى.

وسنرى أن هذا النقل متعذر بخصوصياته بالنسبة للقرآن الكريم ، بحيث تعود معه الترجمة مستحيلة ، عند عرض المشكلات البلاغية للترجمة القرآنية ، بيد أنّ في المستوى التطبيقي قد وجدنا مئات الترجمات للقرآن الكريم ، تختلف في مدى صلاحيتها شدة وضعفاً ، ولكل ترجمة طريقتها الخاصة في الأسلوب والبيان بحيث إما أن يصح إطلاق مصطلح الترجمة عليها أو لا يصح ، فهذا ما سنكشف عنه فيما بعد.

« ثم إن لوحظ في هذه الترجمة ترتيب ألفاظ القرآن ، فتلك ترجمة القرآن الحرفية . . . وإن لم يلاحظ فيها هذا الترتيب فتلك ترجمة القرآن التفسيرية أو المعنوية »[1] وهذا ما يدعونا إلى سبيل القول في قسيمي الترجمة القرآنية من خلال استقراء الأبعاد الفنية للترجمة القرآنية.

ثانياً ـ أقسام الترجمة وأجزاؤها:

ترجمة القرآن الكريم على قسمين :

أ ـ ترجمة الألفاظ (الترجمة الحرفية).

ب ـ ترجمة المعاني (الترجمة التفسيرية).

أ ـ أما ترجمة الألفاظ : فهي تُعنى بوضع لفظ بلغة ما ، مكان لفظ من القرآن ، بغض النظر عن المعاني الأخرى في اللفظ القرآني مما يمثله في وجوهه المتعددة ، ولكنها تأتي بأقرب المعاني إليه مما يرادفه ويماثله في الدلالة ، ويؤخذ عليها في المجال القرآني أنها لا تكون دقيقة عادة ، إذ إن ألفاظ القرآن الكريم يغلب على القسم الأوفر منها : المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه والتمثيل ، وصنوف الاستعمالات البلاغية الأخرى ، منفردة بذاتها أو منضمة إلى مثيلاتها مما لا تتوفر عليه لغة من اللغات الحية في العالم ، مضافاً إلى توارد المترادف والمشترك والمتضاد في جملة من تلك الألفاظ ، مما يعني الفرز المضني لتحقيق المراد من اللفظ . وهذا مما لا يأتي بعمومه لأغلب المستعربين والمستشرقين ممن تعاقدوا على دراسة اللغة العربية ، إذ قد يجهلون ـ مع علمهم ـ طائفة من خصائصها الفنية ، وقد لا يدركون شتى ميزاتها البلاغية ، وفي هذا

---

(١) الزرقاني ، مناهل العرفان ، ٢/ ٤٠ وما بعدها .

المناخ قد لا تؤدي الترجمة دورها في إعطاء المعنى أو إيضاح المراد ، لأنها قد تخرج ـ والحالة هذه ـ عن الأصل المترجم خروجاً فاضحاً يفقد معه قيمته وأهميته .

وفي هذا الضوء يرى بعض الباحثين أن ترجمة القرآن : إما أن تكون ترجمة بالمثل ، وإما أن تكون ترجمة بغير المثل .

أما الترجمة بالمثل : فمعناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذواً يحذو بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته ، وأسلوبها محل أسلوبه حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعاني المقيدة بكيفياتها البلاغية وأحكامها التشريعية ، وهذا أمر غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز .

وأما الترجمة بغير المثل : فمعناها أن يترجم نظم القرآن حذواً بحذو بقدر طاقة المترجم وما تسميه لغته ، وهذا أمر ممكن ، وهو إن جاز في كلام البشر ، لكنه لا يجوز بالنسبة لكتاب الله العزيز ، لأن فيه من فاعله إهداراً لنظم القرآن ، وإخلالاً بمعناه[1] .

استحالة ترجمة القرآن حرفياً:

ومن الطبيعي أننا لم نجد مدعياً قد تفوه بترجمة القرآن حرفياً ، لتراكم العقبات في طريقه ، ولاستحالة الإحاطة بالترجمة فعلياً ، لذلك يحكم بعض الباحثين أنه « من المستحيل تأدية المعاني المستوحاة من كلمات القرآن الموجزة في الترجمة اللفظية »[2] .

وذلك مما لا ريب معه ، إذ لو تحقق لكنا قد عمدنا إلى خصائص اللغة القرآنية ومسخنا أصلها إلى صورة أخرى ، تتلاشى معها مميزات القرآن في البلاغة والفن القولي ، ولكانت قضية الإعجاز الثابتة فيه مسألة ثانوية ، وهذا مما لا يتفق مع النهج الموضوعي .

يقول ابن الخطيب : « من المعلوم أن الترجمة الحرفية غير ممكنة وغير ميسورة ، وكذلك الترجمة اللفظية ، وذلك لاختلاف الاصطلاحات ، وتشابه مدلول الألفاظ في شتى اللغات . فلم يبق أمامنا سوى ترجمة معاني القرآن ، وهي نفسها تسمى « ترجمة

---

(١) الذهبي ، التفسير والمفسرون ، ١/ ٢٤ وما بعدها .

(٢) الندوي ، ترجمات معاني القرآن الكريم ، ١٩ .

القرآن » لأن المراد من كل مقروء هو معانيه ومراميه ، ولأن الألفاظ إن هي إلا ظرف للمعاني . . . ولم يوصل الله تعالى لنا القرآن إلا لنفهم ما فيه من المعاني ، ونعمل بما جاء به من الأحكام فإذا ترجمت تلك المعاني وهذه الأحكام كانت ولا شك ترجمة صحيحة للقرآن وما جاء به القرآن ، وما أراده منزل القرآن ، ومن بَلَغَتْهُ هذه الترجمة فقد وصل إليه رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام وأصبح في عداد المنذرين »[1] .

وهذه دعوة صريحة إلى ترجمة معاني القرآن دون ألفاظه ، وهو دون شك يقصد إلى المفاهيم لا المعاني المكلفة .

ب ـ وأما ترجمة المعاني : فهي عبارة عن تفسير القرآن بسبيل إعطاء معانيه في لغة ما بحيث يحافظ فيه على أصل المعنى ، ويعتمد فيها على مدى ثقافة المترجم ، وسعة استيعابه واستقصائه ، فهي تعني بمدلول الآيات القرآنية دون النظر بموافقة أصل الألفاظ حرفياً للمعنى المراد ، بل العكس هو الصحيح ، وهو تقريب المعاني العامة للمدلول القرآني دون الاعتماد على اللفظ المعين الوارد في القرآن الكريم ، وبذلك تكون الترجمة في هذا اللحاظ أقرب إلى الواقع العملي . لهذا نرى المحترزين من المستشرقين قد أدركوا هذه الحقيقة ومالوا إليها فالأستاذ : ج أربري رئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة كمبردج ، حينما ترجم القرآن سمى ترجمته ، القرآن مفسراً ، أو القرآن المعبر عنه ، وصورة عنوان ترجمته هكذا :

The Koran Interpreted وقد نظر في ذلك إلى هذه الحقيقة .

ويبدو أن أغلب ترجمات المستشرقين للقرآن هي ترجمات للمعاني في أحسن الأحوال ، إذ من الصعوبة فنياً وبلاغياً الترجمة الحرفية ، التي يستحيل أداؤها تطبيقياً ، ولأنها تحتاج ـ على فرض إمكانها ـ إلى باع متمرس بمجازات القرآن وإيجازاته ، مما يحرجهم ويضيق عليهم آفاق الترجمة ، والأمر أشد من ذلك إذ تصاحبهم استحالة الترجمة النصية للقرآن بالنظر لإعجازه ، واستحالته هنا عقلية ضرورية من خلال وجهة نظر المسلمين أجمع ، وبملاحظة بلاغته في المفردات والجمل والتركيب والآيات ـ فضلاً عن النظم والأسلوب والسياق ـ فالاستحالة عملية لأنها غير ممكنة صناعة ، بما سنلمسه عند بحث المشكلات البلاغية فيما بعد .

وتسمى ترجمة المعاني عند الذهبي بالترجمة التفسيرية للقرآن ، لأنها عبارة عن

---

(١) ابن الخطيب ، الفرقان ، ٢٣١ وما بعدها .

شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى من دون محافظة على نظم الأصل وترتيبه[1].

ويميل بعض الباحثين إلى تسمية هذه الترجمة باسم : ترجمة تفسير القرآن ، أو تفسير القرآن بلغة كذا ، ولا يجوز أن تسمى ترجمة معاني القرآن ، لأن الترجمة لا تضاف إلا إلى الألفاظ ولأن هذه التسمية توهم إنها ترجمة للقرآن نفسه ، وهو وجه لا يخلو من دقة وضبط حدود[2].

ومن خلال استقرائنا للترجمات القرآنية بهذا المنظور لدى المستشرقين وجدناها على نوعين هما : الترجمة الكلية والترجمة الجزئية.

أما الترجمة الكلية : فهي التي تشمل القرآن عموماً ابتداءً من سورة الفاتحة وانتهاءً بسورة الناس ، أو بحسب ترتيب النزول عند البعض ولكنها تستقطب جميع مفردات القرآن.

وأما الترجمة الجزئية : فهي التي تعتمد على مختارات مترجمة من القرآن ، بحسب الموضوعات أو السور أو الأجزاء.

ثالثاً ـ شروط الترجمة وضوابطها:

ولا تترك أية ترجمة للقرآن ـ أنى كانت طريقتها ـ على عواهنها ، ولا بد لها من شروط احترازية تساعد على الاطمئنان إليها ، والاعتماد عليها ، وهذه الشروط منها ما يعود على المترجم ، ومنها ما يعود على الترجمة.

أ ـ شروط المترجم :

أما المترجم : فمن البديهي أن يكون متمرساً في اللغتين : لغة النص ، ولغة الترجمة ، ليؤدي مهمته من خلال معرفة علمية ، وذائقة فنية ، تنظر في اللفظ ودلالته ، والأسلوب وسلامته ، والتركيب وتناسقه ، مضافاً إلى توافر الهدف العلمي النابع من أصالة موضوعية ، لا تميل إلى هوى ، ولا تجنح إلى عاطفة ، فإذا استقام هذان الجانبان جاءت الترجمة سليمة الأبعاد.

يقول بعض الدارسين : « إن الترجمة الفنية لكي تكون عملاً ناجحاً مثمراً ، ونشاطاً ثقافياً مجدياً لا بد لها من مترجم له الصلاحية التامة من الناحية اللغوية والفنية .

---

(١) الذهبي ، التفسير والمفسرون ، ١/ ٢٢ .

(٢) ينظر : الزرقاني ، مناهل العرفان ، ٢/ ٣ .

والتكوين اللغوي يتنوع بتنوع اللغات ، والتكوين الفني يتنوع بتنوع المادة العلمية أو الأدبية التي تتناولها الكتب أو تعالجها المقالات والبحوث »[١].

ب ـ شروط الترجمة :

وأما الترجمة : فمن الضروري أن يشار إليها في مصادرها الأولى بحيث تعد مستمدة من أصل القرآن ، ومقدرة في شرائع الإسلام ، بالإضافة إلى فصلها عن النص القرآني ليكون كل على شاكلته أصلاً بذاته ، وفرعاً متعقباً لذلك الأصل.

وكاختيار لسلامة الترجمة القرآنية وجودة أدائها ، هو ردالترجمة إلى أصلها العربي ، فكلما كانت الإعادة متقاربة مع الأصل كانت الترجمة أقرب إلى الدقة ، وكلما اختلف النص المعاد ، كانت الترجمة أبعد عن الضبط ، وفي ضوء هذا المنظور يتوافر الحكم على الترجمة ومدى صلاحيتها.

وقد أفاض بعض الباحثين في هذه الآداب والاعتبارات يرجع إليها في طلب التفصيل وزيادة الإيضاح[٢].

إن الترجمة حركة إنسانية عالمية ، تُعنى بنقل الفنون والآداب بين الأمم ، لا تحدها حدود، ولا تمنعها قيود، سعياً وراء المعرفة واستقراء المجهول « فالعلوم والمعارف جميعاً لا تعرف وطناً تستقر فيه ولا تؤمن بالقيود الإقليمية التي يفرضها علم الاجتماع على الحياة . . . فهي لتنقل من ذهن إلى ذهن غير غائبة بعقبة اللغة ، وتتداعى لها العقول أياً كانت المذاهب والعقائد التي يدين بها أهل العلم والمعرفة ، فالعلم إنساني عام والمعرفة شاملة.

وهذا الطابع الإنساني البشري الشامل الذي يميز العلم والمعارف قد اقتضى أن يكون بين اللسان واللسان تفاهم وتجاوب . . . وهذا ما حمل المترجمين عبئاً ثقيلاً ، لأنه طالبهم بأن ينقلوا إلى لغة العالم الحية كل خطوة من خطى العلم مهما ضؤل شأنها ، وكل كشف يهتدي إليه عالم ولو كان لسانه لهجة دارجة من مئات اللهجات الصينية ، وكل ظاهرة طبيعية يرصدها راصد ولو كان أبكم اللسان »[٣].

والقرآن الكريم ذو طابع إنساني عام ، وهو وإن كان عربي العبارة إلا أنه عالمي الرسالة ، ولا بد للإنسانية أن تتفاعل ، وللعالم أن يتداعى إليه ، ولا سبيل إلى ذلك ،

---

(١) محمد عوض محمد ، فن الترجمة ، ١٩ .

(٢) ينظر : الذهبي ، التفسير والمفسرون ، ١/٢٩ ، والزرقاني ، مناهل العرفان ، ٢/٩ .

(٣) وديع فلسطين ، مقومات الترجمة الصحيحة ، مجلة المجمع العلمي العربي ، يناير ١٩٦٢م .

إلا بنشر معالم هذا الكتاب ، ولا طريق إلى نشره إلا الترجمة في إطارها الموضوعي ، لأنها تطل على العالم بنوع من أنواع الثقافة العليا تخترق بها حواجز البيئات التي حجبت معارفها بأسوار الأنانية.

قال ابن الخطيب: «إن الواجب على العلماء وعلى سائر الناطقين بالضاد أن بادروا، إلى تبليغ القرآن للأمم التي لم يصلها نوره ، ولم توثق بتعاليمه ، لتتم بذلك رسالة رَسُول الله ﷺ إذ أنه أرسل إلى الخلق كافة ، ولم يرسل إلى العرب خاصة ، ولما كان هذا التبليغ لا يتم إلا بترجمة هذا « النور » إلى الأقوام المراد هدايتهم وجب على الأمة الإسلامية عامة، وعلمائها خاصة القيام بمهمة ترجمة القرآن إلى سائر اللغات الشائعة»[1].

وقد يرد على هذا أن القرآن إذا كان كذلك فهلا نزل بلغات متعددة لتبلغ به كل أمة بلغتها ، أما وقد نزل بالعربية فهو حجة للعرب دون سواهم ، وقد تكفل الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) بالرد على هذا الافتراض فقال : « فإن قلت : لم يبعث رسول الله إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعاً ، بل إلى الثقلين وهم ألسنة مختلفة ، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً قلت : لا يخلو أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل فبقي ن ينزل بلسان واحد ، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه ، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانه وتفهمه . . . ولأنه لو أنزل بألسنة كلها مع اختلافها وكثرتها وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها ، يتلوه عليهم معجزاً ، لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء »[2].

وقد تناول ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) مجابهة هذه الشبهة ، وأحال حلها إلى الترجمة فقال : « إن الوحي متلواً وغير متلو ، إنما نزل بلغة العرب ، ولا يرد على هذا كونه ﷺ قد بعث إلى الناس كافة ، عرباً وعجماً وغيرهم ، لأن اللسان الذي نزل به الوحي عربي ، وهو يبلغه إلى طوائف العرب ، وهم يترجمونه لغير العرب بألسنتهم »[3].

---

(١) ابن الخطيب ، الفرقان ، ١٧٠ .

(٢) الزمخشري ، الكشاف ، ٣٦٦/٣ .

(٣) ابن الخطيب ، الفرقان ، ٢٢٢ .

ومن هنا تبدو أهمية الترجمة القرآنية لأنها مستمدة من أهمية القرآن نفسه ، فالقرآن كتاب هداية وتشريع يتسم بصيغته الشمولية ، فهو يتخطى المناخ الجغرافي والتاريخي والإقليمي بحياة الإنسانية ، ليلقي بتعاليمه إلى الناس كافة ، وينفذ برامجه في هداية البشر وتشريع الأحكام وكلما ضقنا بحدود ترجمة مفاهيمه ذرعاً ، وحاولنا الوقوف بمسيرتها ، كلما قمنا بتحديد مهمة القرآن في رسالته وقيدنا وظيفته دون مسوغ .

قال الخوئي : لقد بعث الله نبيه لهداية الناس معززة بالقرآن وفيه كل ما يسعدهم ويرقى بهم إلى مراتب الكمال ، وهذا لطف من الله لا يختص بقوم دون قوم بل يعم البشر عامة . وقد شاءت حكمته البالغة أن ينزل قرآنه العظيم على نبيه بلسان قومه ، مع أن تعاليمه عامة وهدايته شاملة ولذلك فمن الواجب أن يفهم القرآن كل أحد ليهتدي به . ولا شك أن ترجمته مما يعين على ذلك ، ولكنه لا بد وأن تتوفر في الترجمة براعة وإحاطة كاملة باللغة التي ينقل عنها القرآن إلى غيرها لأن الترجمة مهما كانت متقنة لا تفي بمزايا البلاغة التي امتاز بها القرآن بل ويجري ذلك في كل كلام ، إذ لا يؤمن أن تنتهي الترجمة إلى عكس ما يريد الأصل .

ولا بد ـ إذن ـ في ترجمة القرآن من فهمه ، وينحصر فهمه في أمور ثلاثة :

١ـ الظهور اللفظي الذي تفهمه العرب الفصحاء .

٢ـ حكم العقل الفطري السليم .

٣ـ ما جاء من المعصوم في تفسيره .

وعلى هذا تتطلب إحاطة المترجم بكل ذلك لينقل منها معنى القرآن إلى لغة أخرى ، وإذا روي في الترجمة كل ذلك فمن الراجح أن تنقل حقائق القرآن ومفاهيمه إلى كل قوم بلغتهم ، لأنها نزلت للناس كافة ولا ينبغي أن تحجب ذلك عنهم لغة القرآن ما دامت تعاليمه وحقائقه لهم جميعاً[1] .

والخوئي بهذا يؤكد بدقة على نقل مفاهيم القرآن وحقائقه ، دون ألفاظه وتراكيبه ، لأن الترجمة ستصطدم بالمشكلات البلاغية .

وقد تعاقبت على القرآن الكريم على المستوى التطبيقي ترجمات متعددة ، بلغات متعددة ، بلغت العشرات منذ عام (١١٤١م) إلى عصرنا الحاضر ، وهي تختلف

---

(١) الخوئي ، البيان ، ٥٠٥ وما بعدها .

باختلاف ثقافة المترجم ، ودقة تحريه للأنسب وقد حاولت في أغلبها أن تقرب أصول المعاني وجملة المفاهيم إلى الأذهان ، وليس من اليسير أن ينبري أفراد أو جماعات ، لغتهم الأصلية غير اللغة العربية لترجمة أعظم نص عربي ، اتسم ببلاغته الفائقة ، وأقدس كتاب عند المسلمين رأوا إعجازه في نظمه وتأليفه ، وسحره في أسلوبه وجودة تعبيره ، لذا فالترجمة للقرآن تعني تمرس المترجم بكثير من فنون البيان وطائفة من أساليب القول ، واضطلاع في اللغة والبلاغة وكفاية في دلالة المفردات .

وقد بلغت الترجمات الإنكليزية ـ التي ستكون مجالاً للتطبيق والاستشهاد فيما بعد حداً جديراً بالتأمل والاعتداد ، ورقماً يدعو إلى البحث والمدارسة ، إذ تجاوزت ثلاثاً وستين ترجمة حتى عام (١٩٧٢م) كما يحدد ذلك بعض الباحثين[١] .

وأهمية هذه الترجمات تنطلق من مبدأ يقول : إن الترجمات المتعددة للأثر الواحد في اللغة الواحدة ، هي في الحق نوافذ كثيرة مفتوحة على المعاني التي يتضمنها الأصل المترجم ، وكلما كثرت هذه النوافذ كان الاستمتاع بالأصل أكثر ، وبلوغ الفهم إليه أقرب[٢] .

وقد كانت الترجمات المتعددة للقرآن الكريم في لغات متعددة مجالاً لدراسات خاصة استوفى عدد كبير من الباحثين عنها في أعمال مستقلة .

رابعاً ـ المشكلات البلاغية التي تعترض سبيل الترجمة القرآنية:

الترجمة في الأعمال الثقافية العادية ـ فضلاً عن القرآن الكريم ـ لا تخلو من المشكلات ، وفي الحديث عن مشكلات الترجمة لا يصح أن نقحم ضعف المترجم في اللغة التي يترجم منها ، والتي يترجم إليها . إذ لا يسمى المترجم مترجماً حقاً إلا حين يتمكن من اللغتين كتابة وقراءة ،وكذلك يجدر بنا أن نفترض إخلاص المترجم في عمله ، وحسن نيته ، وإنه حين أخرج النص المترجم فقد بذل الجهد وتحرى للترجمة مشكلات وصعوبات حتى مع إتقان المترجم للغتين ، وأمانته وإخلاصه في عمله . وتتمثل هذه المشكلات بما يلي .

أ ـ نظام الجملة في اختلاف اللغات بنظام الجمل وترتيب الكلمات .

ب ـ كل ما يتعلق بجمال الألفاظ وجرسها .

---

(١) الندوي ، ترجمات معاني القرآن الكريم ، ٢٣ .

(٢) ينظر : محمد عبد الغني حسن ، فن الترجمة في الأدب العربي ، ١٠٢ .

جـ ـ دلالة الكلمات وحدود معانيها .

ودلالة الكلمات في مجال الأفكار وفي النشاط العلمي تلتزم عادة حدوداً لا تتعداها ، أما في ترجمة النصوص الأدبية فالمشكلة أشد عسراً وأصعب منالاً ، ذلك لأن الآداب تعتمد على التصوير والعاطفة والتأثير والانفعال ، إلى جانب ما يمكن أن تشتمل عليه من أفكار[1] .

وإذا كانت هذه المشكلات تعترض أي نص أدبي ذي قيمة وأهمية فهي تتجلى بأبرز مظاهرها في ترجمة القرآن الكريم ، لتشكل عقبة فنية في طريق الترجمة المتكاملة وذلك لمؤشرات تختص بالقرآن الكريم دون سواه ، يمكن إجمالها بما يأتي :

١ـ إن القرآن الكريم نزل بلغة يحتمل لفظها الواحد ، أو أكثر ألفاظها ، أكثر من معنى وأشمل من تفسير ، مما يفتح حياة متميزة في العقلية اللغوية ، تتسع لكثير من الاجتهادات والدرايات والمعارف .

٢ـ إن القرآن الكريم قد تمخض عن أصول تعبيرية جديدة أقامت البيان العربي على مخزون جديد من الفن القولي ، فكان مصدراً جديداً للتراث في اللغة والبيان ، ووقف الناس حيارى أمام بلاغته ، ولم يخضع بمفهومه لمقاييس النقد الأدبي في إَصدار الأحكام وتحديد الخصائص واعتبارات النصوص .

٣ـ إن القرآن قد اشتمل على ثقافة موسوعية على نحو خاص من العرض والمعالجة والتشريع ، فقد تحدث عن الأحوال الشخصية في الزواج والصلات والنفقة والمواريث والوصايا والحدود والديات والجروح والقصاص ، بما لا عهد به لأعرق الأمم تاريخاً ، وأعمقها ثقافة ، وترجمة ما تقدم يعني الخوض في اصطلاحات لا قبل للمترجمين على استيعابها بشكلها الدقيق .

٤ـ إن القرآن الكريم لو فصل موضوعياً وبَيانياً لوجدناهُ قد اشتمل على المحكم من الآيات والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ ، والمجمل والمفصل ، والمبهم والمبين ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والظاهر وما وراء الظاهر ، فيد الله ، وعينه ، ووجهه ، وعرشه ،وكرسيه ، واستواؤه ، ومجيئه ، والحروف المقطعة أوائل السور ، كل أولئك مما يحتاج إلى الكشف والإيضاح في اللغة الأم فضلاً عن اللغة المترجم إليها .

---

(١) ينظر : إبراهيم أنيس ، دلالة الألفاظ ، ١٧١ وما بعدها بتصرف واختصار .

والألفاظ المتلاصقة في الأصل التكويني للإنسان ، كالحمأ ، والحمأ المسنون ، والفخار ، والتراب ، الطين ، والطين اللازب مما يدعو إلى التفسير والترتيب لئلا يقع المترجم في احتمال التناقض ، فإذا استقبلنا الإشارات البلاغية التي لا يستطيع استخراج كنوزها إلا من أوتي نصيباً كبيراً في العلم ، يكشف به الحدس الاستعاري ، والبعد الرمزي ، والتعبير المجازي ، والحس التشبيهي ، علمنا مدى مشكلات الترجمة.

لهذا كانت مهمة الترجمة القرآنية حتى مع أداء معاني القرآن ودون الالتزام بالترجمة اللفظية عملية شاقة ولا سيما من وجهة نظر بلاغية.

ولقد أدرك جملة من المستشرقين موقع البلاغة من القرآن وأشاروا إليها بتأكيد ، فالمستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير (١٩٠٠م-١٩٧٣م) قد اعتبر علم البيان العربي منطلقاً من القرآن ، وركز في فصل من كتابه (القرآن) على الإعجاز القرآني ، وقناعة علماء البيان بأن القرآن يحتوي على جميع المواد الضرورية لهذا العلم[١] . مما شكل حالة حضارية في شحذ الفكر البلاغي ، وخلق القوة التعبيرية في البيان العربي ، وفي الوقت نفسه الذي أعجب فيه المستشرق الألماني الكبير تيودور نولدكه (١٨٣٦م - ١٩٣٠م) بسحر القرآن البلاغي ، وإعجازه البياني ، تراه يغمز أسلوب القرآن الكريم ، ويشير إلى كثرة انتقال القرآن في خطاباته من صيغة إلى أخرى ، ومن حال إلى حال ، فمن غيبة إلى حضور إلى خطاب ، ومن ظاهر إلى مضمر وبالعكس ، واعتبر ذلك مجالاً للتجريح »[٢]

والحق أن نولدكه قد تطرف كثيراً في هذه الوجوه التي عرضها ، ومرد ذلك مع حسن الظن به إلى عدم تمرسه في ضروب البلاغة العربية التي لا يدرك أبعادها إلا العرب الأقحاح ، ومنها الالتفات الذي لم يدرك موقعه في بديع القرآن.

وإذا كان نولدكه وأضرابه من علماء المستشرقين يقفون هذا الموقف من بعض المشاهد البلاغية فما ظنك بمن هو أقل ثقافة ، وأدنى خبرة في الأصول البيانية الأخرى.

ولقد أشار المسلم النمساوي الأستاذ محمد أسد في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن في الإنكليزية إلى ما تحتفي به العربية في بلاغتها دون اللغات الأخرى ، واقتصر على

---

(١) ينظر : بلاشير ، القرآن : تدوينه ونزوله ، الفصل الرابع ، ٩٠-١٠٥ .

(٢) ينظر : نولدكه ، مادة قرآن Encyclopedia British Ediitin II .

معالجة فن الإيجاز من بلاغة القرآن فقال : « إن البلاغة في كلام العرب مزية لا تضاهيها فيها لغة أخرى في العالم ومن البلاغة ، الإيجاز في البيان ، والقرآن معجزة في البلاغة ، وأسلوبه الإيجازي معجز كذلك ، فلا بد من التنبه به عند الترجمة إلى لغة أخرى ، وإن ترجمة الآيات من دون تحليل لفظي لما يضمه الإيجاز تجعل عبارة الترجمة مفككة غير مربوطة بعضها ببعض ، وقد لا يفهم منها شيء ، ولذا يحتاج المترجم أن يشرح المعنى المقصود من الآيات التي فيها الإيجاز حتى يرتبط الكلام وتنسجم العبارة »[1] .

وليست بلاغة القرآن مقتصرة على الإيجاز وحده ، وإنما استقطبت جميع فنون البلاغة العربية .

إن استقراء المشكلات البلاغية لترجمة القرآن الكريم بمؤشر عام يتمثل بنقاط رئيسية على وجه الحصر من ضم بعضها إلى بعضها الآخر ، فمنها ما يدور حول اللفظة المفردة ودلالتها الدقيقة ، ومنها ما ينتج من ضم اللفظ إلى لفظ آخر في تركيب جملي ، ومنها ما يأتي من ارتباط الألفاظ بالمعاني والمعاني بالصور ، فتحصل من هذا أن المشكلة إما أن تكون مرتبطة باللفظ ، وإما أن تكون مرتبطة بالمعنى ، وإما أن تكون متعلقة باقتران الألفاظ بالمعاني ، وكشف العلاقة الفنية القائمة بينهما ، فتمثلت لنا المشكلات البلاغية متعينة بثلاث مؤشرات هي :

أ ـ دلالة الألفاظ .

ب ـ التركيب الجملي .

جـ ـ النظم والسياق القرآني .

ولنقف وقفة تمحيصية بإزاء كل مؤشر لتوضيح وجه المشكلات ومعالمها :

أ ـ دلالة الألفاظ :

الألفاظ بصيغتها الانفرادية ـ تنقل الصورة الذهنية لشيء من الخارج ، وبضمها إلى غيرها تشكل النص الأدبي ، وبطبيعتها في الدلالة تمثل حديث النفس في الرفض لها أو الاستجابة ، بحسب التأثر وموقعها من الأعماق .

ودلالة الألفاظ تنقلب بين تخير اللفظ بإصابته للمعنى ، وإيقاع اللفظ في جرسه

---

(١) ينظر : الندوي ، ترجمات معاني القرآن الكريم ، ٨٦ .

الموسيقي ، وفي موافقته لما قبله وما بعده في التركيب .

وقد اهتم القرآن الكريم بهذه العناصر الفنية ، فحرص على موسيقى اللفظ وسحر العبارة ، وإصابة المعنى ، فكانت اللفظة المفردة عنده متميزة بقيمتها الحالية ، ومفهومها البنائي في دلالات شتى ، تشمل مختلف الدلالات اللفظية ، صوتية كانت أو اجتماعية أو إيحائية أو هامشية ، وكلها ذات علاقة وثيقة بفهم من يستخرجها . فإذا تم استخراجها بقيت مسألة ترجمتها ، فهل يتوافر المترجمون على استنباط هذه الخصوصيات ؟ هذا ما يخالجنا فيه الشك ، وهل تتحقق ترجمتها على أصولها في جرسها ونغمها حتى مع القدرة على اكتشافها ؟ هذا ما سنتناوله في جزئيات تطبيقية فيما يلي :

١ـ قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩].

فاللفظة ﴿متشاكسون﴾ تعبر لغة عن المخاصمة والعناد والجدل في أخذ ورد لا يستقران ، وقد تعطي بعض معناها الكلمة (متخاصمون) ولكن القرآن لم يستعملها وفاء بالدلالة الصوتية التي جمعت بين حروف الأسنان والشفة في التاء والشين والسين تعاقباً ، تتخللهما الألف والفاء ، فأعطت هذه الحروف نغماً موسيقياً خاصاً حملها أكثر من معنى الخصومة والجدل والنقاش بما أكسبها من أزيز في الأذن يبلغ به السامع بأن الخصام قد بلغ درجة القوة والعنف من جهة ، كما أحاطها بوقع شديد يؤثر في الحس والوجدان من جهة أخرى .

ولدى ترجمتها إلى الإنكليزية مثلاً : فإنها تتردد بين تركيبين يدلان على المخاصمة والمشاكسة .

فالمخاصمة تترجم : To dispute .

والمشاكسة تترجم : III-Tempered .

ولا دلالة صوتية لهما ، ولا تلمس جرساً موسيقياً بهما كما في لغة الأصل .

٢ـ واللفظة ﴿صفوان﴾ من قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] تعطي صورة الحجر المتكلس الذي يجتمع من ذرات متراكمة غير قابلة للانفصال ، فهو يتماسك ويتصلد بعد أن يخالطه التراب المهيل من هنا وهناك ، فبدلاً من أن يهش ويلين ويتفتت من خلال تقاطر المطر وتدافع السيول ، وإذا به يعود كتلة حجرية واحدة بشكل صلب ، فالترجمة لا تحقق لنا الدلالة الفصيحة المركزية لهذه

اللفظة بكل محتوياتها.

فالحجر بالإنكليزية يترجم إلى : Stone.

وتحجر واستحجر يترجم إلى : To petrify.

٣ـ وكلمة ﴿مشكاة﴾ في قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور : ٣٥] ذات دلالة خاصة بها ، وقد اختارها القرآن دون الكلمات الأخرى التي تفقد فيها مميزات لفظ المشكاة خاصة ، وترجمتها لا تعطي دقائق المشكاة بما فيها من دلالة وبهاء وجمال ، وتبادر ذهني عميق وقد لا يوجد ما يماثلها في اللغة المترجم إليها ، مما يعني أن البديل لها يفقد الكلمة كل خصائصها الجمالية في المورث البلاغي للقرآن.

٤ـ وقد نجد كثيراً من الألفاظ في استعمالاتها القرآنية تشكل مشكلة لا يستهان بها في ذاتية الترجمة ، فبعضها لا يمكن ترجمتها بل توضع على حالتها إذ لا يقابلها في اللغة المترجم إليها ما يدل على حرفيتها ، وبعضها لا تفي الترجمة بمعناها الاصطلاحي الدقيق ، فمن الأول أسماء الأعلام كافة ، فالتقيد الحرفي بها يوحي بقدرة كتابة نصها كما هو ، وقد يصاحب ذلك فقدان البديل المناسب.

فالمستشرق الإنكليزي (بكتال) في ترجمته لا يستعمل (God) لله تعالى بل يستعمل لفظة الله نفسها ، لأن كلمة Cod لا تدل على المفهوم الكامل والمدلولات الشاملة لما في كلمة الله[1].

وفي الثاني جملة الألفاظ ذات المدلول الشرعي كالصلاة والتيمم والوضوء والغسل والسجودوالركوع والصوم والحج والسعي والزكاة وأمثال هذه الألفاظ التي إن ترجمت لغوياً فقدت دلالتها الشرعية.

وهناك قسم ثالث هو المدلول الاستعاري للكلمة والذي لا تفي به الترجمة كالاستعارة والتمثيل والكناية ، فهي إنما يتحقق معناها بالمفهوم المجازي المستعملة فيه ، ولا يتحقق هذا المفهوم إلا بمعرفة معنى المعنى أو المعنى الثانوي المستفاد من طبيعة الاستعمال المجازي ليتم التفريق بين الاستعمالين ، وفي فنونه إلى الترجمة بعد التوصل إلى إرادته الاستعمالية في القرآن ولا سيما في الاستعارة التي عبر عنها عبد

---

(١) ينظر : الندوي ، ترجمات معاني القرآن الكريم ، ٧٥ .

القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) « إنك تثبت بها معنى لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ ، ولكنه يعرفه من معنى اللفظ »[١].

٥ـ وما يشترط في مخارج الكلمة المفردة العربية ، وهو : أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج[٢] . لا يمكن تحقيقه في الترجمة لألفاظ القرآن ، إذ تتعرض الألفاظ المترجمة لهذا النقص في أغلب الصيغ ، وقد يكون اللفظ القرآني سهلاً ومرناً في فصاحته وليس الأمر كذلك في ترجمته ، سواء أكان ذلك في تركيب الحروف أم كان في جرسها وصداها الخارجي.

وأما ما اشترطه علماء البلاغة بكون الكلمة معتدلة « غير كثيرة الحروف فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت ، وخرجت عن وجه الفصاحة »[٣] فأمر غير متيسر إطلاقاً في الترجمة العادية فضلاً عن الترجمة القرآنية ، إذ قد تترجم اللفظة القليلة الحروف بما يعادلها معنى في لفظ كثير الحروف.

وتأسيساً على ما تقدم فإن فصاحة الكلمة وسلامة مخارجها ومناسبة حروفها من مشكلات الترجمة التي لا يمكن تلافيها عامة.

٦ـ وقد تكون اللفظة في القرآن من الأضداد ، تصدق على المعنى وضده ، كما هي الحال في القرء في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ففي دلالة هذه اللفظة معنيان متضادان هما الطهر والحيض . وكما في ﴿ عَسْعَسَ﴾ من قوله تعالى : ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير : ١٧] في إرادة المتقابلين منها في معنى أقبل تارة وأدبر أخرى.

وفي هذه الحالة قد لا تتوافر في اللغة المترجم إليها اللفظة التي تعطي المعنى وضده ، وما يقال في مجال الأضداد قد يصدق أحياناً في وجوه المشترك والمترادف والوجوه والنظائر لألفاظ القرآن الكريم.

٧ـ وقد تكون اللفظة ذات دلالة قرآنية خاصة ومتميزة ، كالإشارة في القرآن بأكثر من مئة مرة إلى الكتاب المرتبط بعملية التنزيل والإنزال والوحي الإلهي ، وليس الحال كذلك في ترجمتها إلى الإنكليزية بلفظ قد يعني استعمالاً ساذجاً لا دلالة إيحائية معه ،

---

(١) الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ٣١٠ .
(٢) ابن سنان ، سر الفصاحة ، ٦٦٥ .
(٣) الندوي ، ترجمات معاني القرآن الكريم ، ٧٥ .

فهو يصدق على كل كتاب دون خصوصية في ذلك اللفظ الإنكليزي : Book وقد تنبه بعض المترجمين إلى هذا الملحظ الدقيق فأولوه عناية خاصة بحدود ، فالأستاذ محمد أسد في ترجمته لمعنى الكتاب يضع التعبير التالي Divinewrit أي الإعلام السماوي أو الإلهي[1] .

٨ـ وهناك ألفاظ في القرآن لا نجد مفهومها متكاملاً في ألفاظ من لغة أخرى ، فيختار لها ما هو المقارب أو المناسب كما في كلمة (الغيب) المترجمة إلى الإنجليزية لكلمة Unseen أي غير المرئي ، كما اختار ذلك جملة من المترجمين في حين لا تدل الكلمة الإنكليزية هذه على المفهوم الشامل المتكامل لمعنى الغيب ، وهنا نجد الأستاذ محمد أسد يختار تعبيراً مفصلاً :

Which is Beyonhd The Reach of Humam Perception

أي ما هو فوق مبلغ الحواس البشرية .

٩ـ وفي كثير من الأحيان قد تقابل اللفظة العربية في القرآن لفظة في اللغة المترجم إليها ولكن دلالتها متعددة الجوانب ، والمراد بها أكثر من معنى مستفاد ، كما يبدو ذلك من استقراء القوانين الأجنبية ولا التقاء بين أكثر هذه المعاني دلالة ، وهنا تكمن الحيرة عند المترجم في استيفاء المعنى وتحديده ، فقد يضطر إلى استعمال البديل المقارب للمعنى إذا أدرك تشتت المعنى في اللفظة الأولى .

وقد تتقابل اللفظة القرآنية الواحدة ، بألفاظ متعددة متشابكة في اللغة المترجم إليها فهي من قبيل المترادفات ، وهنا يتوافر الذوق البلاغي على اختيار أمس الألفاظ صلة ، وأشدها أسراً باللغة القرآنية .

فالمترجم في الحالة الأولى يعاني من مشكلة تحديد اللفظ ، وفي الحالة الثانية يعاني من مراعاة موافقة الأولى مناسبة النص ، وهنا يتضح أن اختيار اللفظ المناسب في الترجمة إزاء المعنى المناسب من مشكلات الترجمة البلاغية إلى جانب إيجاد اللفظ في اللغة المترجم إليها ، إذ قد لا يتأتى في جملة من الأحوال ، وبمثل هذه الحالة يلجأ المترجم إلى اختيار اللفظ الملائم بعد تجربة صلاحيته المعنى المراد ، وفي هذا الاختيار تتجلى الذائقة الفنية والمقدرة البلاغية للمترجم ، وتجاه هذا الملحظ تجب العناية بموقع اللفظة المختارة فنياً وبلاغياً لأن دلالة اللفظة على المعنى في نقلها إليه

---

(١) ينظر : الندوي ، ترجمات معاني القرآن الكريم ، ٨٨ .

شرط أساسي ، والإيجاز الملائم بطبيعة النص دليل على أصالة الترجمة .

ب ـ التركيب الجملي:

أصالة التركيب الجملي في التعبير القرآني ، من أولى دلائل الإعجاز البلاغي للقرآن ، فعند رعاية القرآن لسلامة اللفظ ، وعنايته بجودة المعنى ، تبدو دقائق التراكيب ، وملامح التناسق ، وتدافع الصور البيانية بما يمثل ظاهرة فنية تعنى بالعلاقات القائمة بين الألفاظ والمعاني ، لهذا يرى ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) أن التركيب الجملي هو الذي يميز خصيصة الألفاظ من حيث قيمتها وعلوها ، وهو الأمر الذي انفرد بأصول تركيبه القرآن الكريم فقال :

« ألا ترى أن ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم ، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب »[1] .

وما سبق بيانه فيما يتعلق بمشكلات الألفاظ المنفردة عند الترجمة يصدق في كثير من تطبيقاته على الألفاظ المركبة ، وتعود القضية معقدة حين تفقد الترجمة أصالة المعنى المراد بحيثياته وجزيئاته كافة . وعلى سبيل المثال لا الحصر نطرح النماذج القرآنية التالية :

١ـ في قوله تعالى : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة : ١٨٧] بالنسبة للزوجات ، لا أعلم مترجماً قد حقق مرادالقرآن في ذلك ، إذ قد ترتبط الترجمة بمادية الألفاظ دون التوصل إلى حقيقة الاستعمال المجازي في رصانته التعبيرية ، ودلالته الإيحائية مما يؤكدما أورده عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) : من « أن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما له تعلق بصريح اللفظ »[2] .

وهذا ظاهر في دلالة الآية القرآنية إذ يلازمها من الفهم الكنائي ما لا تعلق له بصريح اللفظ لهذا كان التفطن للمعنى من المراد من الألفاظ حالة تركيبها ضرورياً لأداء المهمة البيانية لأي تعبير لا يوحي لفظه بالمعاني المترتبة عليه ، وأنى لمترجمي القرآن إلى اللغات الأجنبية الوفاء بهذا الملحظ الدقيق الذي يعني أن يستفيد المترجم إفادة معنوية

---

(١) ابن الأثير ، المثل السائر ، ١/ ٢١٣ .
(٢) الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ٣٨ .

خاصة من التركيب الجملي للألفاظ في استخراج معنى المعنى ، واستكناه العلاقة الفنية القائمة بين الألفاظ والمعاني للتوصل إلى المعاني الثانوية التي لا ينطق بها اللفظ بذاته دون الضمائم الأخرى.

٢ـ وفي مسألة التقديم والتأخير بالنسبة للتركيب الجملي في القرآن تكون الإشحاطة بأصول التركيب ضرورة ملحة في الترجمة ، فبملاحظة قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف : ٢٤] : نجد الكلام قد حمل على التقديم والتأخير من أجل تنزيه يوسف عليه السلام من الميل النفسي : « ويكون التقدير : ولقد همَّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها ، ولما رأى برهان ربه لم يهم بها »[1].

والمترجم لهذا النص قد لا ينتبه إلى فنية الآية بلاغياً ، فيترجمها متسلسلة عادة ، وفي ذلك فساد للمعنى ، إذا كان المعنى كما سبق بيانه.

٣ـ وفي الاستعمال الاستعاري لقوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ [البقرة : ٩٣] تبدو مشكلة الترجمة لهذا التعبير شبه مستحيلة لما فيه من حمل اللفظ الحقيقي على المجاز وما يشتمل عليه في جزيئاته من بعد استعاري حقيقته دلالة التركيب بخصائص عدة طرحتها اللغة القرآنية من خلال عمقها البلاغي في إرادتها فوق ما يعطيه لفظ : الشرب ، القلب ، العجل ، والترجمة بذات النص قد لا تفي بذات الدلالة ، وهي قضية ترتبط بعلمي المعاني والبيان في تتبع خواص التركيب من جهة علم المعاني ، وفي ارتباطها بالاستعمالات المجازية والاستعارية والتشبيهية من علم البيان.

٤ـ وفي قوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم : ٤] يقف المترجم حائراً إزاء الاستعارة في هذا الجزء من الآية ، واستفادة المعنى المراد منها في استنباط القدر الجامع بين المستعار منه والمستعار له ، وفي التماس الشبه الحسي بينهما ، مما يجعل الترجمة غير قادرة على كشف هذه المميزات وسبر أغوارها.

وما يقال هنا يقال بالنسبة للاستعارة التخيلية في قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء : ٢٤] فهذا التركيب ينظر له من جهتين ، الأولى : الألفاظ ودلالتها منفردة ، والثانية : دلالة هذه الألفاظ منضمة إلى بعضها ، لإدراك حقيقة الاستعارة من الألفاظ ذاتها يربط بعضها من بعض ، لأن الألفاظ منثورة تلتبس بين الاستعمال الحقيقي والمجازي ، وبتركيبها الجملي تبرز دلالتها المحددة في

---

(١) الطبرسي ، مجمع البيان ، ٣/ ٢٢ .

الاستعمال.

ومن هنا يبدو أن تحديد الغرض الأصلي والفرعي من هذه المركبات الجملية إنما يتميز من خلال التركيب نفسه ، وهذا التركيب يجب الوفاء به في الترجمة ، وهو ما يعسر تطبيقه ، وشواهد القرآن على هذا لا تحصى ، ومعالمه لا تستقصى.

إن الذي يهمنا في بحث التركيب الجملي عند الترجمة هو المحافظة على الأداء الذي يعطي المعاني والأغراض والإشارات متكاملة وهذا ما لم نجده في ترجمة ما على وجه اليقين.

جـ- النظم والسياق القرآني:

يقول أبو سليمان الخطابي (ت ٣٣٨هـ) : « وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة الحذق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض فتقدم له صورة في النفس يتشكل بها البيان »[1].

وذلك أن الالتفات إلى ربط أشتات الكلام بعضها ببعض ، وعلاقة اللفظ بالمعنى ، والمعنى بالسياق ، وتعلق كل كلمة بما بعدها ، وارتباطها بما قبلها ، والصورة التي تستنبط من اقتران الألفاظ بالمعاني كل أولئك ضروري في تحقيق فكرة النظم ، إذ لا يبدو النص متكاملاً في الألفاظ ما لم يضف إليه علاقتها بالمعاني ، وانتظام كل من الألفاظ والمعاني بالسياق العام ، وما ينطوي عليه النص من فنون تتفاوت معرفتها في حالات القول في الإسناد أو الشرط أو الاستفهام أو الاستدراك ، أو الخبر أو الإنشاء ، أو الفصل أو الوصل ، أو الحذف أو الإضمار ، أو التقديم أو التأخير ، والإحاطة بصنوف هذه الأجزاء بديهي التوافر في مقتضيات الترجمة الفنية في نص عميق الأصالة كالقرآن الكريم.

يقول عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) وهو يتحدث عن التلاؤم بين الألفاظ والترابط في السياق القرآني لقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود : ٤٤].

« فتجلى لك الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وإذا لم

---

(١) الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، ٣٦ .

يظهر الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن استقر بها إلى آخرها ، وإن الفضل نتائج ما بينها ، وحصل من مجموعها »[1].

وعبد القاهر يؤكد على جانب التناسق الفني بين ربط الألفاظ بعضها ببعض ، والاتساق في النظم والسياق عند جلاء صورة الكلام وفضيلته.

ومهمة العناية بالنظم القرآني عند الترجمة مهمة شاقة ومضنية ، فالقرآن معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته كما يرى الرازي[2].

والكشف عن هذا الإعجاز في الترجمة متعذر التحقيق ، وتطبيقه على مواطن النظم يدعو إلى ترصد ناحية ذات أهمية خاصة اقتضتها حكمة النظم القرآني ، وهي تعدد الموضوعات في السورة الواحدة ، ومع ذلك نجد السورة لا تفقد وحدتها الموضوعية ، واستيفاء هذا الملحظ لا تستطيعه أية ترجمة ، لأن هذه الطريقة قد انفرد بها القرآن الكريم ، ولا نظير لها في النصوص الأدبية الأخرى ، إذ تعتمد النصوص وحدة الموضوع عادة دون الدخول بتفصيلات مماثلة ، بينما يحافظ القرآن على وحدة الموضوع ليربطه بموضوع آخر دون تصادم في الأفكار ، أو تجاوز التجانس الموضوعي.

يقول فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) : « اعلم أن عادة الله في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه ، وهو أن يذكر شيئاً من الأحكام ثم يذكر عقيبه آيات كثيرة في الوعد والوعيد والترغيب والترهيب . يخلط بها آيات دالة على كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة إلهيته ، ثم يعود مرة أخرى إلى بيان الأحكام ، وهذا أحسن أنواع الترتيب وأقربها إلى التأثير في القلوب ، لأن التكليف الشاق لا يقع في موقع القبول إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد ، فظهر أن هذا الترتيب أحسن الترتيبات اللائقة إلى الدين الحق »[3].

إن هذه الظاهرة الفريدة تدعونا بجدية إلى ملاحظة أن الترابط بين أوائل السور وأواسطها وأواخرها ذو رؤية مدركة في بيان حسن النظم وترتيب السياق في القرآن ، ورصد هذا الترابط في النظم بحاجة إلى إحساس بلاغي عميق في مواضع البيان كافة

---

(١) الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ٣٦ .

(٢) ينظر : الرازي ، التفسير الكبير ، ١٣٨/٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦١/١١ .

لاستجلاء خصائص البناء القرآني في جميع أبعاده المتشعبة.

لهذا يبدو أن الترجمة لا تكون دقيقة حتى إذا كانت على وجه التفسير وبذلك لا تعود ذات قيمة بلاغية، لفقدانها الكثير من مواقع التعبير القرآني بصلاته السابقة واللاحقة في منظور النظم والسياق.

وقد نلمس بعض التصرفات غير الأمينة في جملة من الترجمات ينطبع أثرها على السياق والنظم، منها ما لم يقصد إليه، ولكنه اجتهاد خاطىء، ومنها ما قصد إليه عمداً بغية تغيير المفاهيم، وتحديد شمولية القرآن الكريم.

فمن القسم الأول ما وقع به أحد الباحثين في ترجمته الإنجليزية للقرآن، فقد لوحظ أن المترجم يبيح لنفسه تقديم كلمة في التركيب وتأخير أخرى، حتى وإن أدى ذلك إلى تغيير المعنى وتجاوز النظم.

ففي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] يترجمها كالآتي:

This is the Book, in it is guidance sure without doubt, to those who fear God.[1]

ومعناها: هذا هو الكتاب فيه هداية قطعية من دون شك للذين يخافون الله. وفي هذه الترجمة يتخطى المترجم حدود النظم والسياق القرآني، فالريب منفي عن الكتاب الكريم في الأصل، والهداية فيه للمتقين، وليست الترجمة بمؤدية لهذا المعنى، بل هي تنفي الريب عن المتقين، وتعطي صفة القطع والحتمية للهداية، بينما نفي الريب لا يتناول الكتاب في الترجمة.

ومن القسم الثاني ما وقع به المستشرق الإنجليزي (جورج سيل) (١٦٩٧ - ١٧٣٦م) في ترجمته من استئثار باللفظ والمعنى والتركيب الذي يريده المترجم لا القرآن، حتى قلب ذلك إلى مداليل أخرى وفقاً لرغبات نفسية أو تبشيرية لدى المترجم، نرصد منها ما يلي[2]:

١- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . .﴾ ترجمها كالتالي:
O. Men of Mecca وتعني الترجمة الحرفية لذلك يا أهل مكة، وذلك تغيير

---

(١) الندوي، ترجمات معاني القرآن الكريم، ٨.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٣٤ وما بعدها.

للصيغة والمؤدى تنطبع نتيجتها على النظم والصورة القرآنية ، وذلك بجعل نبوة محمد ﷺ ورسالته إقليمية ، تخص أهل مكة ، ولا تشمل الإنسانية ، وهو معنى مقصود في الترجمة لا مسوغ له .

٢ـ في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ : ٢٨].

نجده يعمد إلى قلب المفهوم القرآني « كافة للناس » بترجمته كالتالي :

. All Common Men

وتعني ترجمتها « العامة من الناس » وهذا تعبير يختلف في مؤداه ومفهومه وسياقه عن إرادة القرآن الكريم ، فالناس كافة عموم البشر ، والعامة من الناس سوادها دون الخاصة ، ولا يريد القرآن ذلك .

٣ـ وفي سورة الفاتحة تصرَّف في ترجمة ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢].

The Lord All Creatures وهي تعني رب جميع المخلوقات ، وليس الأمر كذلك ، فالقرآن يؤكد على العوالم المرئية وغير المرئية المستحضرة في الذهن والغائبة عنه مما نعلمه ، ومما لا نعلمه ، ورب المخلوقات يحدد المعنى ولا يشمل إطلاقه في دلالته الواسعة .

خامساً ـ ترجمات القرآن إلى اللغات الأجنبية ليست بترجمات ، بل هي تعابير عن بعض المفاهيم القرآنية بلغات أجنبية:

وفي ضوء ما تقدم من مشكلات بلاغية يبدو أن ترجمات القرآن إلى اللغات الأجنبية تفقد في كثير من أبعادها جملة من الدلالات اللفظية ، ويتعذر عليها الإشحاطة بالتركيب الجملي كما عليه النص القرآني .

والأهم من هذا يتضح أن الوفاء بالنظم القرآني ، والتمكن من سياقه التركيبي مسألة ذات أبعاد معقدة في الترجمة ، لا يصح معها أن تعد الترجمة في كل صورها قرآناً ، ويبدو منها أن تتحقق الترجمة في مسماها على الإطلاق .

وفي مثل هذه النتيجة ليس باستطاعتنا أن نسمي ما تعارف عليه المستشرقون بترجمات القرآن ترجمات ، بل هي تعابير عن بعض المفاهيم القرآنية بلغات أجنبية ، هذا مع أمانتها ودقتها ، وبدونهما ينتفي الموضوع جملة وتفصيلاً .

وتأسيساً على ما سبق فإن بإمكان الأيدي الأمينة ، أن تترجم مفاهيم القرآن وتعاليمه ، وذلك شيء والقرآن بعدها شيء آخر ، ومن أجل رسالة القرآن الإنسانية ،

فإن ترجمة مفاهيمه قد تحقق هذا الغرض الديني وإن فاتها الغرض الفني ، لأن الترجمة بمدلولها الاصطلاحي لا يمكن تحقيقها ، بل يتحقق جزء منها ، وعلى هذا فالتسميات الشائعة قد تكون من قبيل تسمية الكل باسم الجزء في أسلم الأحوال .

o o o

ثبت المصادر والمراجع

أ ـ المصادر القديمة :

١ـ خير ما نبدأ به : القرآن الكريم.

٢ـ الآلوسي ، أبو الفضل ، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، إدارة المطبعة المنيرية ، القاهرة (د . ت).

٣ـ ابن الأثير ، أبو السعادات ، المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦هـ) ، جامع الأصول في أحاديث الرسول ، تصحيح : عبد المجيد سليم ومحمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٤٩م.

٤ـ ابن الأثير ، أبو الفتح ، ضياء الدين ، نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧هـ) ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى البابي ، القاهرة ، ١٩٣٩م.

٥ـ الأصبهاني ، حمزة بن الحسن (ت ٣٥١هـ) ، التنبيه على حدوث التصحيف ، دمشق ، ١٩٦٨م.

٦ـ الأنباري ، أبو البركات ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧هـ) ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، القاهرة ، ١٢٩٤هـ.

٧ـ الباقلاني ، أبو بكر ، محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ) ، نكت الانتصار ، تحقيق : محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف الإسكندرية ، ١٩٧١م.

٨ـ البخاري ، أبو عبد الله ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت ٢٥٦هـ) ، الجامع الصحيح ، مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٣٧٨هـ.

٩ـ البلوي ، أبو الحجاج ، يوسف بن محمد المالكي ، ألف با ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٢٨٧هـ.

١٠ـ البيهقي ، أبو بكر ، أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ) ، كتاب الأسماء والصفات ، القاهرة ، ١٣٥٨هـ.

١١ـ الترمذي ، أبو عيسى ، محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ) ، سنن الترمذي ، ضبط ومراجعة وتصحيح : عبد الرحمن محمد عثمان ، نشر : محمد عبد المحسن الكتبي ، مطبعة الاعتماد ، وأيضاً طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

١٢ـ التهانوي ، محمد علي بن علي التهانوي الفاروقي (من علماء القرن الثاني عشر الهجري) ، كشاف اصطلاحات الفنون ، نشر : شركة خياط ، بيروت (د . ت).

١٣ـ الجرجاني ، أبو بكر ، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ) ، دلائل الإعجاز ، تصحيح : محمد عبدة ومحمد محمود التركزي الشنقيطي ، مطبعة مجلة المنار ، القاهرة ، ١٣٢١هـ.

١٤ـ الجرجاني ، أبو بكر ، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ) ، الرسالة الشافية ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق : محمد أحمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٦م.

١٥ـ ابن الجزري ، أبو الخير ، محمد بن محمد(ت ٨٣٣هـ) ، غاية النهاية في طبقات القراء ، القاهرة ، ١٩٣٢م.

١٦ـ ابن الجزري ، أبو الخير ، محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ) ، النشر في القراءات العشر ، القاهرة ، (د . ت).

١٧ـ الحاكم النيسابوري ، أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) المستدرك على الصحيحين في الحديث ، دار الكتاب العربي ، بيروت (د . ت).

١٨ـ ابن حجر العسقلاني ، الحافظ ، شهاب الدين ، أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

١٩ـ ابن حجر العسقلاني ، الحافظ ، شهاب الدين ، أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) ، لسان الميزان ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م.

٢٠ـ أبو حيان الأندلسي ، أثير الدين ، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي ، الغرناطي (ت ٧٥٤هـ) ، البحر المحيط ، نشر : مكتبة ومطابع النصر الحديثة ، الرياض ، (د . ت).

٢١ـ أبو حيان التوحيدي ، (ت ٤١٤هـ) ، البصائر والذخائر ، تحقيق : أحمد أمين وأحمد صقر ، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٣م.

٢٢ـ الخطيب البغدادي ، أبو بكر ، أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، تقييد العلم ، تحقيق : يوسف العش ، دمشق ، ١٩٤٩م.

٢٣ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ) ، المقدمة ، طبعة بولاق ، القاهرة ، (د . ت).

٢٤ـ الداني ، أبو عمر ، عثمان بن سعيد (ت ٤٤٤هـ) ، المحكم في نقط المصاحف ، تحقيق : د . عزت حسن ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٦٠م.

٢٥ـ الداني ، أبو عمر ، عثمان بن سعيد (ت ٤٤٤هـ) ، المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار ، تحقيق : محمد أحمد دهمان ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٤٠م.

٢٦ـ ابن أبي داود ، أبو بكر ، عبد الرحمن بن سليمان السجستاني (ت ٣١٦هـ) ، كتاب المصاحف ، تحقيق : آرثر جفري ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، ١٩٣٦م.

٢٧ـ الدمياطي البنا ، أحمد بن محمد (ت ١١١٧هـ) ، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر ، طبع : عبد الحميد أحمد حنفي القاهرة ، ١٣٨٠هـ.

٢٨ـ الذهبي ، الحافظ ، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، معرفة القراء ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، مطبعة دار النشر والتأليف ، القاهرة ، (د . ت).

٢٩ـ الذهبي ، الحافظ ، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١م.

٣٠ـ الرازي ، فخر الدين ، محمد بن عمر بن الحسين (ت ٦٠٦هـ) ، مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، دار الكتب العلمية ، طهران ، الطبعة الثانية.

٣١ـ الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد بن الفضل (ت ٥٠٢هـ) ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، مطبعة المصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦١م.

٣٢ـ الزركشي ، بدر الدين ، محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ) ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧م.

٣٣ـ الزمخشري ، أبو القاسم ، جار الله محمود بن محمد الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ) ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م وطبعة دار الكتاب العربي ، بيروت (د . ت).

٣٤ـ ابن سعد ، أبو عبد الله ، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م.

٣٥ـ ابن سنان الخفاجي ، الأمير ، أبو عبد الله بن سعد بن سنان (ت ٤٦٦هـ) ، سر الفصاحة ، تحقيق : عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ.

٣٦ـ السيرافي ، أبو سعيد ، الحسن بن عبد الله (ت ٣٦٨هـ) أخبار النحويين البصريين ، تحقيق : فرنسيس كرنكو ، بيروت ، ١٩٣٦م.

٣٧ـ السيوطي ، جلال الدين ، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) ، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة ، ١٩٦٧م.

٣٨ـ الشاطبي ، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت ٧٩٠هـ) ، الموافقات في أصول الشريعة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة (د . ت).

٣٩ـ أبو شامة ، شهاب الدين ، عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ) ، المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ، تحقيق : طيار آلتي قولاج ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٥م.

٤٠ـ ابن شهراشوب ، محمد بن علي بن شهراشوب الشروي المازندراني (ت ٥٨٨هـ) ، متشابهات القرآن ومختلفه ، مكتبة البوذر جمهري المصطفوي ، طهران ، ١٣٢٨هـ.

٤١ـ الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ) ، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة (د . ت).

٤٢ـ الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ) ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ.

٤٣ـ الطبرسي ، أبوعلي ، الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ) ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٧٩هـ.

٤٤ـ الطبري ، أبو جعفر ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تحقيق : محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر ، القاهرة (د . ت).

٤٥ـ الطوسي ، أبو جعفر ، محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ) ، التبيان في تفسير القرآن ، تحقيق : أحمد حبيب القصير ، المطبعة العلمية ، الأشرف ، ١٩٥٧م.

٤٦ـ أبو عبيد ، القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤هـ) ، غريب الحديث ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٧م.

٤٧ـ ابن عبد البر : أبو عمر ، يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، جامع بيان العلم وفضله ، إدارة المطبعة المنيرية ، القاهرة (د . ت).

٤٨ـ ابن عطية ، عبد الحق بن أبي بكر الغرناطي (٩٧٢هـ) ، مقدمة المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ضمن كتاب : مقدمتان في علوم القرآن ، نشر : آرثر جفري ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٤م.

٤٩ـ الفيروزآبادي ، مجد الدين ، محمد بن يعقوب بن محمد (ت ٨١٧هـ) ، القاموس المحيط ، المطبعة الحسينية ، القاهرة.

٥٠ـ القاضي عبد الجبار ، عماد الدين ، أبو الحسن ، عبد الجبار بن أحمد الهمداني (ت ٤١٥هـ) ، تنزيه القرآن عن المطاعن ، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع ، دار النهضة الحديثة ، بيروت (د . ت).

٥١ـ القاضي عبد الجبار ، عماد الدين ، أبو الحسن ، عبد الجبار بن أحمد الهمداني (ت ٤١٥هـ) متشابه القرآن ، تحقيق : الدكتور عدنان محمد زرزور ، دار التراث ، القاهرة (د . ت).

٥٢ـ ابن قتيبة ، أبو محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٩٨١م.

٥٣ـ القرطبي ، أبو عبد الله ، شمس الدين ، محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧م.

٥٤ـ القسطلاني ، شهاب الدين ، أحمد بن محمد (ت ٩٢٣هـ) لطائف الإشارات لفنون القراءات ، تحقيق : عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين ، القاهرة ، ١٩٧٢م.

٥٥ـ القلقشندي ، أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٣م.

٥٦ـ ابن كثير ، أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ، تفسير القرآن العظيم ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٥٦م.

٥٧ـ ابن كثير ، أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ، فضائل القرآن ، مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ.

٥٨ـ ابن مجاهد ، أبو بكر ، أحمد بن موسى التميمي البغدادي (ت ٣٢٤هـ) ، كتاب السبعة في القراءات ، تحقيق : د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٢م.

٥٩ـ مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) ، الإبانة في معاني القراءات ، تحقيق : عبد الفتاح إسماعي شلبي ، مطبعة الرسالة ، القاهرة (د . ت).

٦٠ـ مسلم النيسابوري الإمام ، أبو الحسن ، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (ت ٢٦١هـ) ، صحيح مسلم ، مؤسسة دار التحرير للطباعة والنشر ، والقاهرة ، ١٣٨٣هـ.

٦١ـ ابن منظور ، جمال الدين ، محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ) ، لسان العرب ، نسخة مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة (د . ت) وطبعة دار إحياء التراث العربي ، ببيروت.

٦٢ـ ابن النديم ، محمد بن إسحاق بن يعقوب البغدادي (ت ٣٨٥هـ) ، الفهرست ، نشر الأستاذ غوستاف فلوجل ، ليزل ١٨٧٢م ، مكتبة خياط ، بيروت ، (د . ت).

٦٣ـ الواحدي ، أبو الحسن ، علي بن أحمد النيسابوري (ت ٤٦٨هـ) أسباب النزول ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٩م.

بـ : المراجع الحديثة:

٦٤ـ إبراهيم أنيس ، (الدكتور) ، دلالة الألفاظ ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م.

٦٥ـ أحمد علم الدين الجندي ، (الدكتور) ، اللهجات العربية في التراث ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٧٨م.

٦٦ـ بروكلمان ، المستشرق الألماني ، كارل بروكلمان (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦م) ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨م.

٦٧ـ بكري شيخ أمين ، (الدكتور) ، التعبير الفني في القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٣هـ.

٦٨ـ بلاشير ، المستشرق الفرنسي ، الدكتور رجيس بلاشير (ولد سنة ١٩٠٠م) ، القرآن : نزوله ـ تدوينه ـ ترجمته ـ تأثيره ، ترجمة : رضا سعادة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٤م.

٦٩ـ البوطي ، (الدكتور) محمد سعيد ، من روائع القرآن ، مكتبة الفارابي ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠م.

٧٠ـ جميل صليبا ، (الدكتور) ، المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٩م.

٧١ـ جورج بوست ، (الدكتور) ، قاموس الكتاب المقدس ، المطبعة الأمريكية ، بيروت ، ١٨٩٤م.

٧٢ـ جولدتسهير : مستشرق مجري (١٨٥٠ ـ ١٩٢١م) ، مذاهب التفسير الإسلامي ، ترجمة : عبد الحليم النجار ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

٧٣ـ ابن الخطيب ، محمد محمد عبد اللطيف ، الفرقان ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الطبعة الولى ، ١٩٤٨م.

٧٤ـ الخوئي ، أبو القاسم الموسوي الخوئي ، البيان في تفسير القرآن ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٧٥ـ الزنجاني ، أبو عبد الله الزنجاني (١٣٠٩ـ١٣٦٠هـ) ، تاريخ القرآن ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩م.

٧٦ـ صبحي الصالح ، (الدكتور) ، محاضرات في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٥م.

٧٧ـ طه حسين ، عميد الأدب العربي الراحل (١٨٨٩ـ١٩٧٣م) ، الفتنة الكبرى ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٨م.

٧٨ـ طه حسين ، (الدكتور) ، في الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٥٨م.

٧٩ـ عبد الهادي الفضلي ، (الدكتور) ، القراءات القرآنية ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م.

٨٠ـ عبد الوهاب حمودة ، (الدكتور) ، القراءات واللهجات ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٤٨م.

٨١ـ عدنان محمد زرزور ، (الدكتور) ، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، الدار الشامية ، بيروت ، ١٩٥٥م.

٨٢ـ غانم قدوري حمد ، (الدكتور) ، محاضرات في علوم القرآن ، دار الكتاب للطباعة ، بغداد ، ١٩٨١م.

٨٣ـ مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨م.

٨٤ـ مجمع اللغة العربية في القاهرة ، مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها

المجمع ، حـ ١٠ ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٩٦٨م.

٨٥ـ محمد حسين الذهبي ، (الدكتور) ، التفسير والمفسرون ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٨٦ـ محمد حسين الطبطبائي ، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ، الميزان في تفسير القرآن ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٧٣م.

٨٧ـ محمد حسين علي الصغير ، (الدكتور) ، المستشرقون والدراسات القرآنية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

٨٨ـ محمد رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار ، دار المنار بمصر ، مطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

٨٩ـ محمد رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٩٣٥م.

٩٠ـ محمد عبد الله دراز ، (الدكتور) ، مدخل إلى القرآن الكريم ، ترجمة محمد عبد العظيم علي ، دار القرآن الكريم ، الكويت ، ١٩٧١م.

٩١ـ محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ.

٩٢ـ محمد عبد الغني حسن ، فن الترجمة في الأدب العربي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (د . ت).

٩٣ـ محمد عوض محمد ، فن الترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٩م.

٩٤ـ مرعشلي ، نديم وأسامة مرعشلي ، الصحاح في اللغة والعلوم ، دار الحضارة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤م.

٩٥ـ مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٦م.

٩٦ـ الندوي ، عبد الله عباس ، ترجمة معاني القرآن الكريم وتطور فهمه عند العرب ، دار الفتح ، مكة المكرمة ، ١٩٧٢م.

٩٧ـ نولدكه ، المستشرق الألماني ، الدكتور تيودور نولدكه (١٨٣٦ـ١٩٣٠م) ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ـ ٩ ، مادة : الدين ، تعريف : د عبد الحميد يونس وجماعته ، القاهرة ، ١٩٣٣م.

جـ ـ الصحف والمجلات:

٩٨ـ أحمد حسن الزيات ، مجلة الرسالة المصرية ، عدد ٨ ، يناير ، ١٩٥٠م.

٩٩ـ جواد علي ، (الدكتور) ، لهجة القرآن الكريم ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ٢٩٠ ، ١٩٥٥م.

١٠٠ـ وديع فلسطين ، مقومات الترجمة الصحيحة ، مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، يناير ، ١٩٦٢م.

د ـ المراجع الأجنبية:

101- A. Yousif Ali, The Holy Qur'an Text, Trnaslation And com-mentary, Beirut 1965.
102- Noldeke, in Encyclopedia Britaniea (1910-1911).
103- Muir Sir w., The life of Mahomet (from original sources) Edinburgh, John Grant 1912.

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الأول
في التعريف بالعلم وبيان نشأته وتطوره
وأشهر المؤلفات في هذا العلم
٩ ـ ٢٠

أولاً ـ في معنى علوم القرآن ١٢
١ ـ تعريف لفظ (علوم) ١٢
أ ـ العلم عند الحكماء والمتكلمين ١٢
ب ـ العلم في لسان الشرع العام ١٢
جـ ـ العلم في عرف التدوين العام ١٣
٢ ـ تعريف لفظ (القرآن) ١٣
أ ـ القرآن في اللغة ١٣
ب ـ القرآن في الاصطلاح ١٤
٣ ـ معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافي وباعتباره علماً على هذا الفن ١٤
ثانياً ـ موضوع هذا العلم والفائدة من دراسته ١٥
ثالثاً ـ لمحة حول نشأة هذا العلم وتطوره ١٦
رابعاً ـ أشهر المؤلفات في علوم القرآن ١٧

الفصل الثاني
ظاهرة الوحي الإلهي
٢١ ـ ٣٨

أولاً ـ رعاية الوحي للنبي ﷺ ٢٣
ثانياً ـ التعريف بظاهرة الوحي ومقدمة عن عالم الغيب ٢٤
ثالثاً ـ معنى الوحي في اللغة والاصطلاح الشرعي ٢٥

رابعاً ـ الفرق بين الوحي والكشف والإلهام ٢٦
خامساً ـ ظاهرة الوحي مرئية مسموعة خاصة بالنبي ﷺ ٢٧
سادساً ـ صور الوحي الإلهي ٢٩
سابعاً ـ ادعاءات وافتراءات أمام ظاهرة الوحي والرد عليها ٣٢

الفصل الثالث
نزول القرآن وأسرار تنجيمه
٣٩ ـ ٥٠

أولاً ـ الوحي والتنزيل ٤١
ثانياً ـ مدة نزول القرآن ، وزمن النزول ، والنزول التدريجي والجملي ٤٣
ثالثاً ـ أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه ٤٥
رابعاً ـ أسرار تنجيم القرآن الكريم ٤٧

الفصل الرابع
جمع القرآن وتدوينه
٥١ ـ ٧٠

أولاً ـ جمع القرآن وترتيبه في عهد النبي ﷺ ٥٤
أ ـ ترتيب القرآن في عهد النبي ﷺ ٥٤
ب ـ جمع القرآن وكتابته في عهد النبي ﷺ ٥٥
ثانياً ـ جمع القرآن في عهد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ٦٠
ثالثاً ـ نسخ المصاحف في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه ٦٢
رابعاً ـ قاعدة عثمان في الجمع ومزايا المصاحف العثمانية ٦٥

الفصل الخامس
علم المكي والمدني
٧١ ـ ٩٢

أولاً ـ أهمية علم المكي والمدني ٧٣

ثانياً ـ الفرق بين المكي والمدني ٧٤
ثالثاً ـ عناية العلماء بالمكي والمدني واهتمامهم به ٧٥
رابعاً ـ معرفة المكي والمدني ٧٧
خامساً ـ الفائدة من دراسة علم المكي والمدني ٧٧
سادساً ـ ضوابط ومميزات المكي والمدني ٧٩

الفصل السادس
الناسخ والمنسوخ
٩٣ ـ ١٠٤

أولاً ـ معنى النسخ في اللغة والاصطلاح ٩٥
ثانياً ـ أهمية علم الناسخ والمنسوخ وحكمته ٩٦
ثالثاً ـ ما يقع فيه النسخ ٩٧
رابعاً ـ شروط النسخ ٩٨
خامساً ـ ما يعرف به النسخ ٩٨
سادساً ـ أقسام النسخ ٩٨
سابعاً ـ السور التي فيها الناسخ والمنسوخ والخالية منها ١٠١
ثامناً ـ أداة النسخ : الكتاب والسنة ١٠٢

الفصل السابع
المحكم والمتشابه
١٠٥ ـ ١١٨

أولاً ـ معنى المحكم والمتشابه في اللغة والاصطلاح ١٠٧
ثانياً ـ الحكمة من إنزال الآيات المتشابهة في القرآن ، وفوائد هذا الإنزال ١١٠
ثالثاً ـ مقدار انتشار الآيات المتشابهة في القرآن ١١٢
رابعاً ـ الدليل الذي يرجع إليه المفسرون في معرفة المحكم والمتشابه ١١٢
خامساً ـ الاختلاف في معرفة المتشابه ١١٤
سادساً ـ الوقوف على بعض الشواهد التطبيقية من خلال آي القرآن الكريم ١١٥

الفصل الثامن
ترتيب آيات القرآن وسوره
١١٩ ـ ١٢٨

أولاً ـ تعريف الآية والسورة ١٢١
ثانياً ـ عدد السور وأسماؤها واختلاف مقاديرها ١٢٢
ثالثاً ـ ترتيب الآيات والسور ١٢٤
(أ) ـ ترتيب الآيات ١٢٤
(ب) ـ ترتيب السور ١٢٥
رابعاً ـ حكم مخالفة ترتيب المصحف ١٢٧

الفصل التاسع
شكل القرآن ورسمه
١٢٩ ـ ١٤٨

أولاً ـ ما المراد من شكل القرآن ؟ ١٣١
ثانياً ـ كراهة الأوائل للزيادات التوضيحية في الرسم العثماني ١٣٢
ثالثاً ـ بداية إعجام المصحف العثماني ونقطه ١٣٣
رابعاً ـ ابتداع أشكال الحركات ١٣٥
خامساً ـ ضوابط للتمييز بين النص القرآني ومحسناته ١٣٦
سادساً ـ مسألة الرسم المصحفي وما صاحبها من مغالاة وتقديس ١٣٧
سابعاً ـ مناقشة ١٣٩
ثامناً ـ نفي ادعاء كون الخط المصحفي توقيفياً والذهاب إلى أنه كان باجتهاد ممن كتب ١٤١
تاسعاً ـ بقاء شكل القرآن متجاوباً مع اختلاف الرسم في كل العصور حتى انتشار طباعته ١٤٦

الفصل العاشر
القراءات القرآنية والقُرّاء
١٤٩ ـ ١٦٨

أولاً ـ الاتجاهات الرئيسة في أسباب نشوء القراءات القرآنية ١٥١
ثانياً ـ مناقشة حديث الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ١٥٤
ثالثاً ـ اختلاف القراءات وتعددها منذ عهد مبكر ١٥٥
رابعاً ـ وجوه القراءات ١٥٦
خامساً ـ عدد القُرّاء وتضارب الآراء في منزلتهم ١٥٨
سادساً ـ شروط القراءة المعتبرة في ضوء مقاييس النقد والقبول ١٦٤
سابعاً ـ أنواع القراءات من حيث السند ١٦٦

الفصل الحادي عشر
ترجمة القرآن الكريم
١٦٩ ـ ١٩٤

أولاً ـ مدلول الترجمة ١٧٢
ثانياً ـ أقسام الترجمة وأجزاؤها ١٧٣
أ ـ ترجمة الألفاظ (الترجمة الحرفية) ١٧٣
ب ـ ترجمة المعاني (الترجمة التفسيرية) ١٧٥
ثالثاً ـ شروط الترجمة وضوابطها ١٧٦
أ ـ شروط المترجم ١٧٦
ب ـ شروط الترجمة ١٧٧
رابعاً ـ المشكلات البلاغية التي تعترض سبيل الترجمة القرآنية ١٨٠
أ ـ دلالة الألفاظ ١٨٣
ب ـ التركيب الجملي ١٨٨
جـ ـ النظم والسياق القرآني ١٩٠
خامساً ـ ترجمات القرآن إلى اللغات الأجنبية ليست بترجمات ، بل هي تعابير
عن بعض المفاهيم القرآنية بلغات أجنبية ١٩٣
المصادر والمراجع ..... ١٩٥ ـ ٢٠٢
فهرست الموضوعات ..... ٢٠٣ ـ ٢٠٧